



المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

منير
بوشناقى

التُّرَاثُ المُدْمَرُ

كنوز الإنسانية التي شوّها جنون البشر

ترجمة:
سهيل الشملي

التُّرَاثُ الْمُدْمَرُ

افتتاحية

يُسعدني أن أقدمَ لجمهور لُغة الضاد هذه الترجمة العربية لكتاب الخبير الدولي الدكتور منير بوشناقى "التُّراث المُدمَّر"، وتزدادُ سعادتي أكثر عندما تتألَّ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم شرف ترجمة هذا المؤلَّف الهام الذي يمثُلُ حصيلة تجربة ثرية وطويلة في العمل الدولي في مجال التراث الثقافي ولا سيَّما في البلدان التي عرفت بعض الاضطرابات الأهلية والكوارث الطبيعية وغيرها.

ولمَّا كانت الترجمة جسرًا للحوار ولحركة الأفكار والتواصل بين الثقافات والحضارات، أولت منظمة الألكسو هذا المجال اهتمامًا متزايدًا سواء في إطار أنشطتها الدورية وبرامج مراكزها الخارجية مثل مكتب تنسيق التعريب بالرباط والمركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق، أو ضمن بعض المشاريع الأخرى على غرار برنامج الشراكة مع المنظمة الدولية للفرنكوفونية في إطار جائزة ابن خلدون - سانغور للترجمة من وإلى اللُّغتين العربية والفرنسية وغيرها...

ويتنزل هذا الإصدار في إطار مواصلة التعاون بين المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والخبير الدولي الدكتور منير بوشناقى والاستفادة من تجربته الواسعة في العديد من برامجها وأنشطتها مثل الدورات التدريبية في مجال التراث الثقافي واجتماعات مرصد التراث المعماري والعمراني بالبلدان العربية وبرامج حماية التراث الثقافي وصونه وغيرها...

وفي هذا الكتاب يعودُ الخبير الدكتور بوشناقى إلى جذور نشأة الوعي بالتراث الثقافى إبّان الحرب العالمية الثانية ودور منظمة اليونسكو فى المحافظة عليه ووضع التشريعات لحماية، ثم يأخذ القارئ فى رحلة ميدانية شيقّة عاين ووثقَ فيها كثيرا من الانتهاكات التى تعرّض لها التراث الثقافى فى عديد البلدان، وتحدّث خلالها مع الكثير من المسؤولين الدوليين وساهم بشكلٍ فعّالٍ فى الحدِّ من تلك التعديات وفى تجاوز مُخلفاتها، ليختمَ بجملة من التوصيات يدعو من خلالها لحفظ هذا الإرث للأجيال القادمة ويستعرضُ منافع ذلك على مختلف المستويات.

ولئن بدا ذلك للوهلة الأولى وكأنه جزءٌ من المسيرة المهنية للمؤلف وسرد لوقائع مختلف المهام التى أنجزها فى إطار وظيفته كخبير دولى فى مجال التراث الثقافى، فإن الكتاب يتناول فى الواقع بكثير من التعمق مختلف الرّهانات التى تحفُّ بتدمير المواقع الأثرية والمعالم التاريخية زمن الحروب، والأبعاد الفكرية التى تقف وراء ذلك، ونظرة السياسيين للموضوع، والتناول الإعلامى له، والصعوبات التى تواجه من يريد حماية هذا التراث.

ولمساعدة القارئ على فهم مختلف الحثيات التى يسردها والأحداث التى عاينها، دَعَمَ المؤلفُ كتابه بعدد الوثائق والصور الميدانية وبكلماتٍ لبعض المسؤولين السياسيين خلال عدد من المنتديات والملتقيات حول الموضوع، وبعض البيانات المنبثقة عنها والقرارات التى تمَّ اتخاذها فى إطارها.

وبفضلِ كلِّ ذلك، لقيَ هذا العمل منذ صدوره في طبعته الفرنسية في سنة 2016 كثيرا من الاهتمام والتقدير، وتمَّت ترجمته إلى أكثر من لغة ليصدر اليوم في نسخته العربية في طبعةٍ مُدقَّقةٍ وأنيقةٍ يعود الفضل فيها أولا وبالأساس إلى الدكتور منير بوشناقى الذي تكرَّم بالترخيص في ترجمة الكتاب، ثمَّ إلى إدارة الثقافة وبقية المُتدخلين من فنيين وتقنيين وإداريين بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، فلهم مني جميعاً جزيل الشكر والعرفان، وإلى المهتمين بهذا المجال أحر التهاني بصدور هذا الكتاب.

والشكر موجّه إلى الأستاذ سُهيل الشملي، على كل ما بذله من جهودٍ لإنجاز هذه الترجمة بأسلوبٍ سلسٍ وبلغَةٍ جميلةٍ، وتحريه الدقيق في المصطلحات التقنية والتاريخية والأثرية، وحرصه على إبلاغ المضمون كما أُريدَ له أن يصل بلغته الأصلية.

والله الموفق،

المدير العام

أ. د. محمد ولد أعمار

كلمة المترجم

سهيل الشّملي

جامعي / مترجم

كلية الآداب والفنون والإنسانيات

جامعة منوبة - تونس

"يجب ألا نشوّه تراثنا بتكرار أخطاء الماضي" (غاندي)

كتاب "التراث المُدْمَر" (Patrimoines mutilés) للدكتور منير بوشناقِي
يُمثّل، في تقديرنا، وثيقة إدانة ووسام شرف، وثيقة إدانة لكلّ من استباح
"حُرمة" التراث الثقافي الإنساني واستهدفه بالتدمير والتخريب والتشويه
والنهب والتهريب، ووسام شرف على صدر كلّ من سعى إلى صونه وحمايته
وإعادة بنائه وتأهيله وتثمينه.

لقد اختار منير بوشناقِي، الخبير الدوّليّ الذي كرّس جزءا كبيرا من
حياته ومن مسيرته المهنيّة لخدمة التراث الثقافيّ الإنسانيّ، أن يكون كتابه
شهادةً ذاتيّةً على واقع موضوعي، شهادةً على تاريخنا المعاصر وما عرفه من
نزاعات مسلحة كانت وبالاً على المواقع والمعالم والتحف الأثريّة، وخلّفت،
في مناطق مختلفة من العالم، عبثا رهيبا بذاكرة الشعوب، وتراث الإنسانيّة،
وشهادةً كذلك، على الجهود التي تبذلها المنظّمات والمؤسّسات والدول، ولا
سيّما منظّمة اليونسكو، من أجل حفظ التراث الثقافيّ الإنسانيّ الماديّ منه
واللاماديّ.

لعلّ ما ذكرناه من مميزات في شأن الكتاب وصاحبه، يمثّل بعضاً ممّا دفع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) إلى ترجمته إلى العربية ليكون متاحاً لكلّ قارئ عربيّ.

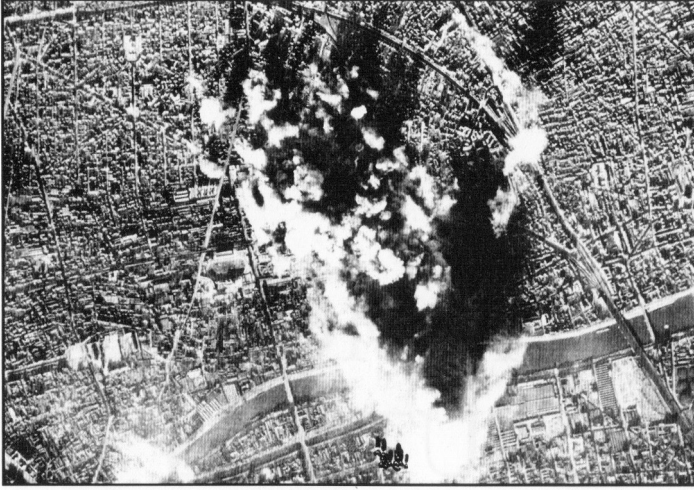
ولئن خَلَّت صياغة الكتاب الأصليّة من العسر والتعقيد، فقد اقتضت منّا ترجمته مجهوداً استثنائيّاً في تدقيق أسماء المواقع والمعالم والحضارات والمعابد والشخصيات والهيئات والمؤسسات... وتحقيق الشواهد من مضانها، واضطررنا أحياناً إلى تصحيح بعض الأخطاء التي تسربت إليه سهواً، وذلك بعد استشارة مؤلّف الكتاب.

وعلى قدر حرصنا على دقّة الترجمة ووفائها للنصّ الأصليّ، كان حرصنا على أن يكون النصّ العربيّ ذا صياغة مقبولة ومقروئية واضحة تجعلان القارئ ينسى أنّه إزاء نصّ مترجم. وتيسيراً للمقارنة، والتزاماً بالضوابط المنهجية، أدرجنا، بين معقوفين مستقيمين، أرقام صفحات الكتاب الأصلي، في النصّ المعرّب.

وفي الختام، لا يفوتني أن أذكّر بالشرف الذي نلته من تكليفي بترجمة هذا الكتاب، فشكراً جزيلاً إلى إدارة الثقافة بمنظمة "الألكسو" وإلى السيّدة حياة القرمازي والسيّد فتحي جرّاي اللذين شرفّتا بالتعامل معهما في هذا الإطار.

ولا يفوتني أيضاً، أن أشكر الأستاذين محمود الهميسي ومحمّد الشيباني اللذين تفضّلاً، تطوّعاً، ورعايةً لحقّ ما بيننا من صداقة، بمراجعة الترجمة وتدقيقها.

الحرب العالميّة الثانية: التدمير المكثّف

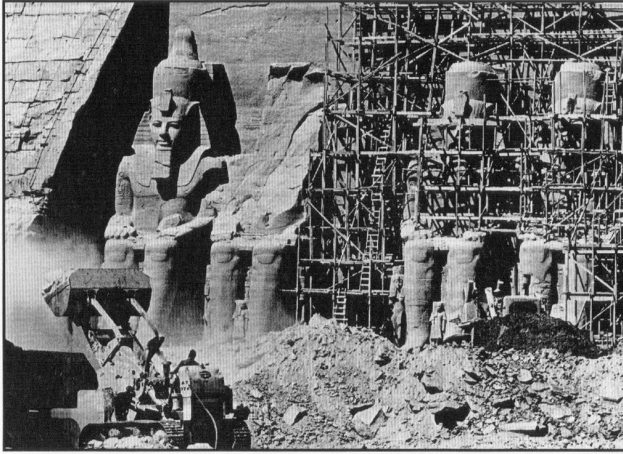


قصف مدينة باريس سنة 1943.

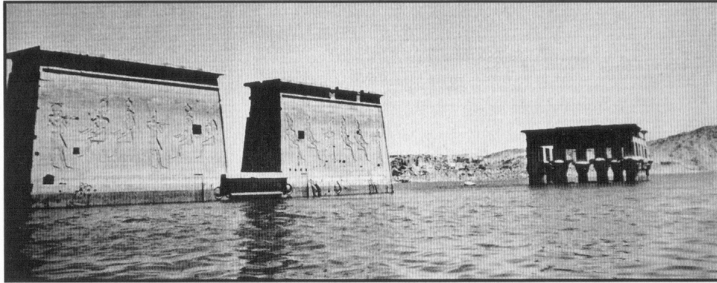


مشهد مدينة دراسد بعد أن قصفها الحلفاء من 13 إلى 15 فيفري/فبراير 1945.

أشغال اليونسكو انطلقت بعد الحرب العالمية الثانية



معبد أبو سمبل - مصر: هذا التحفة الفنيّة النوبيّة التي بناها رمسيس الثاني، تقع في الأصل على تليّ مها وإبشق المقدّسين، وقد تمّ تفكيك المعبد بالكامل وإعادة تركيبه في موقع أكثر ارتفاعاً فوق تلة اصطناعيّة على حافة البحيرة بعيداً عن تهديد ارتفاع المياه. وقد انطلقت الأشغال في مارس 1964، ودُشنت معابد أبو سمبل في سبتمبر 1968.



بدأ تغيير موقع معابد فيلاي في مصر بقصّ الأطلال ونقلها بالبوارج إلى موقع تخزين وقتي. وفي الأثناء تمّ تهيئة جزيرة إجيلكيا، الواقعة على بعد ثلاثمائة متر شمال غرب فيلاي، لتستقبل الأطلال. وقد استقبلت الجزيرة القطع الأولى في 9 سبتمبر 1974 وانتهت عملية إعادة تركيب الأطلال بعد سنتين.

نزاعات السنوات 80-90



متحف بيروت سنة 1991 بعد الدمار الذي خلفته الحرب الأهلية.



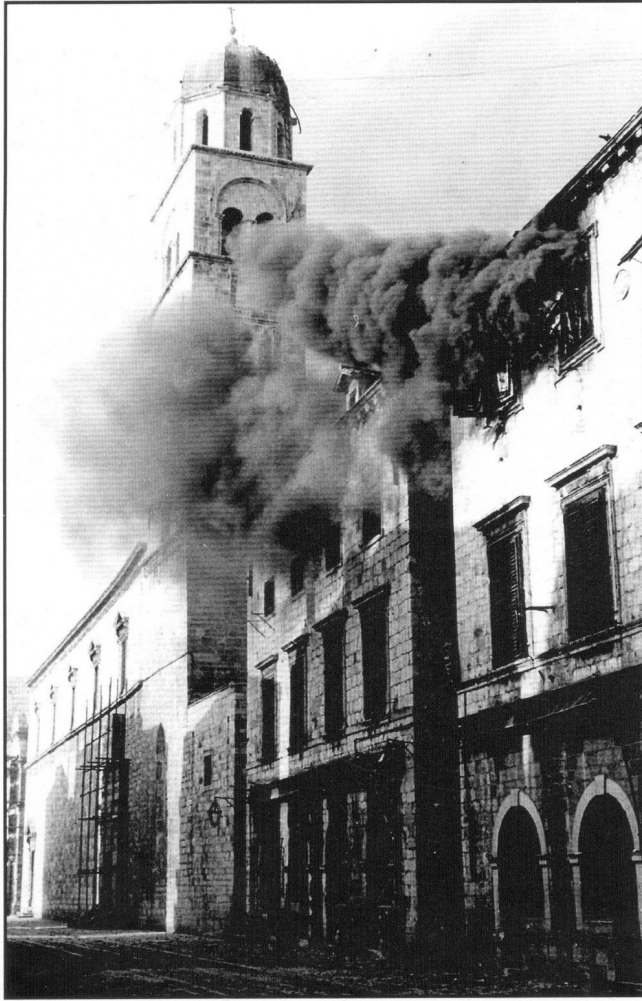
متحف بيروت سنة 1996 - مخازن المتحف.



متحف بيروت سنة 1998 بعد ترميمه.



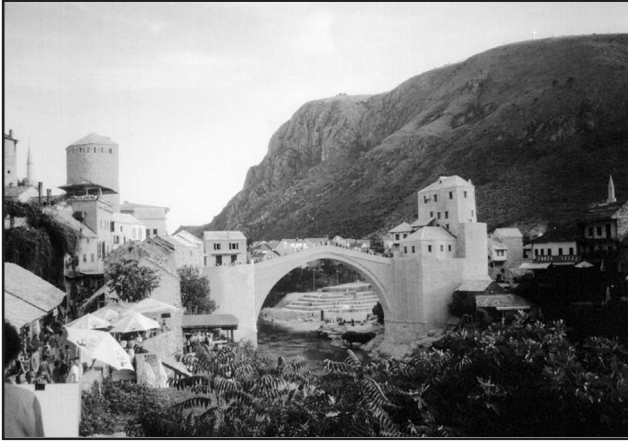
متحف بيروت يفتح أبوابه من جديد سنة 1998: قاعة العرض الرئيسية.



دوبروفنك-كرواتيا: من ديسمبر 1991 إلى 1992، خلال حرب استقلال كرواتيا، أصابت طلقات القذائف 68 % من بنايات المدينة القديمة بصورة مباشرة أو غير مباشرة.



البوسنة: جسر موستار: دامت المواجهات بين البوسنيّين والكرواتيّين والصرب في موستار
قراءة السنتين (1994-1992).



البوسنة: جسر موستار تمّ ترميمه برعاية اليونسكو وبتمويلات من البنك العالمي وعديد
الدول. بلغت تكلفة إعادة بنائه 12.5 مليار دولار. ودُشّن في 22 جويلية/يوليو 2004
تحت شعار المصالحة بين المجموعتين العرقيّتين البوسنيّة والكرواتيّة.



البوسنة: أوّل بعثة لليونسكو في سراييفو في مارس 1994 استقبلها قائد وحدة قوّات حفظ السلام الفرنسية التابعة لمنظمة الأمم المتحدة والتي كانت تسيطر على مطار سراييفو.



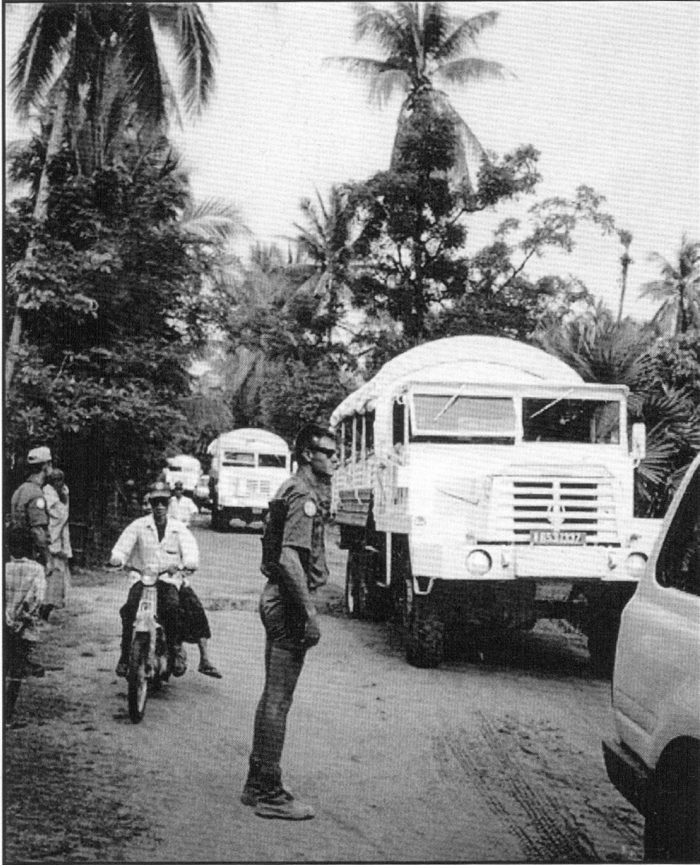
البوسنة: جامع طَبْسِيكا الذي بُني في حدود سنة 1600، يقع في قلب مدينة موستار التاريخية وقد دُمّر أثناء النزاع، وألحقت به أضرار جسيمة خلال العمليات العسكرية من 1992 إلى 1993: دُمّرت منذئته تدميرا كئيبا وانهار سقفه وهُدِمت شرفته الخشبية. وتمّ الفراغ الآن من مشروع ترميمه ودُشّن في جوان/يونيو 2000.



كمبوديا: في أنغكور، معبد بايون على حالته التي كان عليها في مارس 1992.



كمبوديا: على اليمين: في أنغكور، أمودج من أعمال التخريب التي تظهر على وجه تمثال للآلهة أبسرا (التقطت الصورة في سبتمبر 1992)
على اليسار: حفظ موقع أنغكور وبداية أشغال تصنيف التحف الأثرية.



كمبوديا: في أنغكور، قافلة وحدة قوات حفظ السلام الفرنسية التابعة لمنظمة الأمم المتحدة ترافق بعثة اليونسكو المتجهة نحو معبد بنتاي سراي الملغم بالكامل.

نزاعات السنوات 2000



متحف كابول في أفغانستان: أبريل/أبريل - ماي/مايو 2002، وقد كتب على الالفة "الأمّة تنظّل صامدة عندما تنظّل ثقافتها على قيد الحياة".



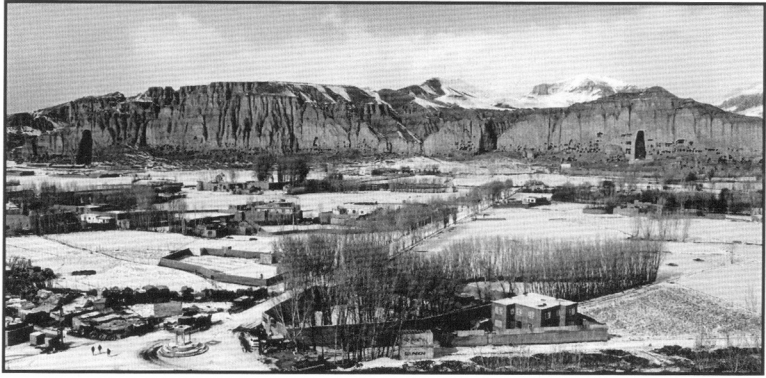
متحف كابول في أفغانستان: كلّ القاعات الداخليّة هُدمت.



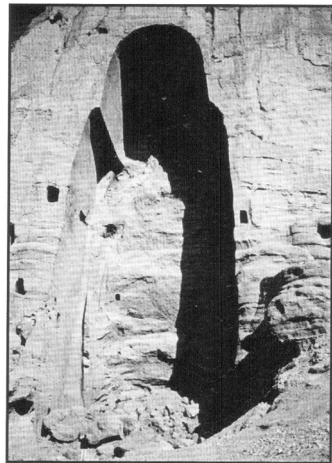
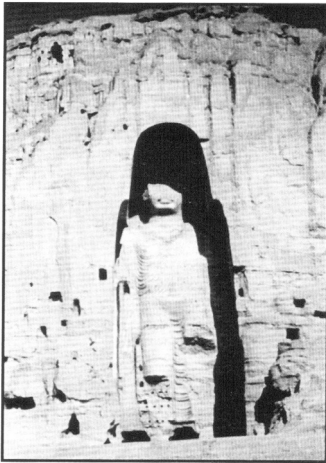
متحف كابول في أفغانستان: مخازن المتحف حُرِّبَت تخريبا كاملا.



كابول - أفغانستان، اجتماع بالرئيس حميد كرزاي ووزير الثقافة مخدوم رهين في 29 ماي/
مايو 2002.



موقع باميان: في أفغانستان، تماثيل بوذا [الصخرية] التي تعود إلى الفترة الإغريقية البوذية. كان عددها ثلاثة: بوذا الأكبر يبلغ علوه 53 مترا وبوذا الأصغر علوه 38 مترا ويقعان بالقرب من مدينة باميان وكذلك بوذا ككراك الذي له من الطول 10 أمتار ويقع على بعد أربعة كيلومترات جنوب شرق باميان. وقد نُحِتَت هذه التماثيل الثلاثة نحتا بارزا في الصخر على نحو تبدو فيه كأنها منفصلة عن عمق حجرة هيئت لها في جرف رملي.





المتحف العراقيّ ببغداد - العراق: دبابة أمريكية تحرس مدخل المتحف الذي أنشئ في العشرينات بدفع من جرترود بال، وجُدّد خلال السبعينات في إطار التعاون بين ألمانيا والعراق.



بغداد - العراق: أمام المتحف العراقيّ ببغداد في اتصال هاتفي عبر القمر الصناعي مسؤولي اليونسكو في باريس لتوصيف الخسائر التي سببها النهب.



المتحف العراقي ببغداد - العراق: تماثيل من رخام تعود إلى عهد مملكة الحضرة كسرت بوحشية لأنه كان من العسير نقلها.



المتحف العراقي ببغداد: على اليمين، زيارة تفقد للمخازن المنهوبة صحبة السيدة نؤالة متولي وبحضور عسكريين أمريكيين. على اليسار، لقاء بـ "بول برنجر" الذي عُيّن يوم 3 جويلية/يوليو 2003، مديرا مسؤولا عن إعادة البناء والمساعدة الإنسانية في العراق.

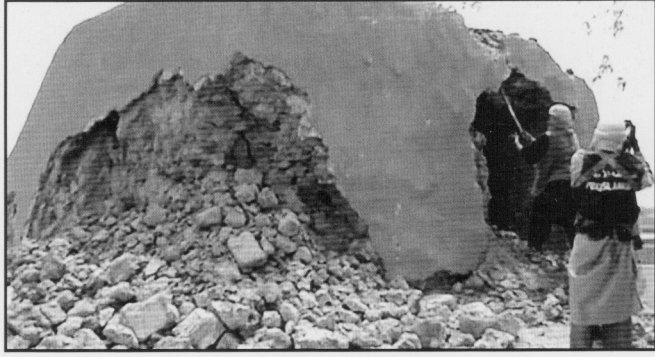


المتحف العراقيّ ببغداد في 16 ماي/مايو 2003 - العراق: في مكتب السيّد ماهر، مدير عام مديريةّة الآثار في العراق، السفير الإيطالي، بياترو كُردون مبعيّة دوني جورج محافظ المتحف. وقد تمّ تعيين بياترو كُردون وزيرا للثقافة في العراق من قِبَل السلطات الأمريكيّة من ماي/مايو إلى أكتوبر 2003.

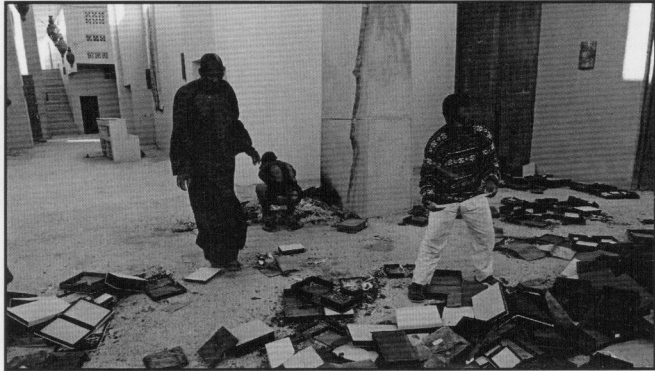


بغداد- العراق: على اليمين، بيت الحكمة وقد تمّ تخريبها. على اليسار، قاعات المكتبة الوطنيّة متفحّمة.

الإرهاب الإسلامي في إفريقيا

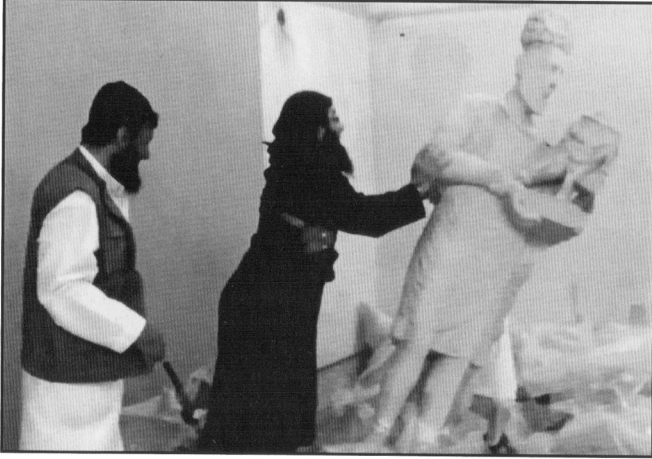


تمبكتو- مالي: في 30 جوان/يونيو 2012 دمّر التنظيم الإرهابي "أنصار الدين" عددا كبيرا من أضرحة الأولياء الصالحين في مدينة تمبكتو، ردًا على قرار اليونسكو الذي أدرج، في 28 جوان/يونيو 2012، هذه المدينة التاريخية ضمن قائمة التراث المهدّد بالخطر.

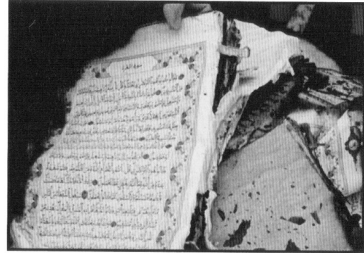
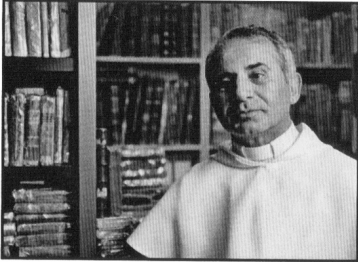


تंबكتو- مالي: سگان مدينة تمبكتو يلتقطون وثائق قديمة أحرقتها الإسلاميون في مركز التوثيق والبحث أحمد بابا في 29 جانفي/يناير 2013.

تنظيم "داعش" والعنف الأقصى



الموصل- العراق: صور دعائية. داعش تأمر بتدمير تماثيل قاعة العرض الخاصّة بالعهد الحضري في متحف الموصل. كل ما سبق العهد الإسلامي يجب أن يندثر.



الموصل- العراق: مكتبات الآباء الدومينيكان في الموصل مهذّدة بالحرق. فقّر الأب نجيب إنقاذ الوثائق والمخطوطات الأساسية بنقلها من الموصل إلى أربيل (أوت/أغسطس 2014).



موقع مملكة الحضر - العراق: أول موقع عراقي يُسجّل في قائمة اليونسكو للتراث العالمي. صدر أمر بتشويه موقع مملكة الحضر التي يعود تاريخها إلى القرن الثالث ميلاديًا. هذا الرأس المنحوت في الجدار مصحوب بنص باللغة الآرامية وهو، بالنسبة إلى داعش، مخالف للإسلام.



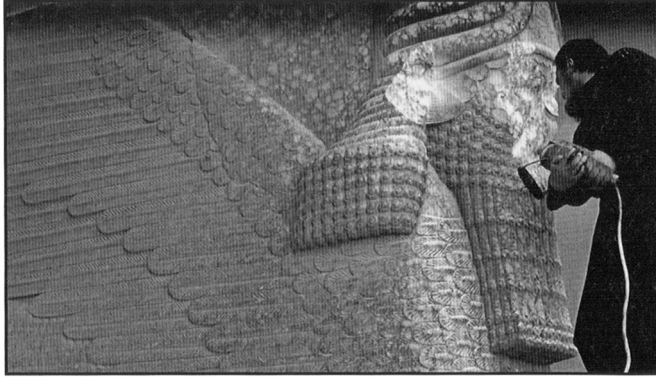
موقع ممرود - العراق: صور دعاية. كُتّاب البغدادي تمحو النقوش النائية نتوءًا خفيفًا وتمحوها بكلّ وحشية.



موقع نمرود - العراق: صور دعائية. تنظيم داعش يفجّر يوم 5 مارس 2015 القصر الموجود شمال غرب الموقع، وهو أحد أهمّ مواقع بلاد الرافدين، العاصمة الآشورية القديمة في القرن التاسع قبل الميلاد.



سوريا: صور دعائية. عناصر من تنظيم داعش الإرهابي يدمرون دَيْرَ مار إلبان في سوريا.



نينوى- العراق: صور دعابة. لاماسو (الثور المجنح) نينوى فُطِّع بالمنشار والمصقلة في فيفري/فبراير 2015.



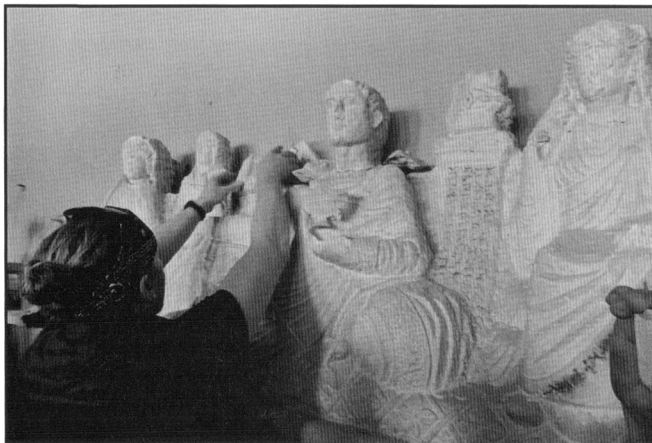
تدمر- سوريا: الحالة التي كان عليها متحف تدمر في 5 ماي/مايو 2016. من الصعب تقييم الوضع في هذه الحالة المأساوية المؤسفة.



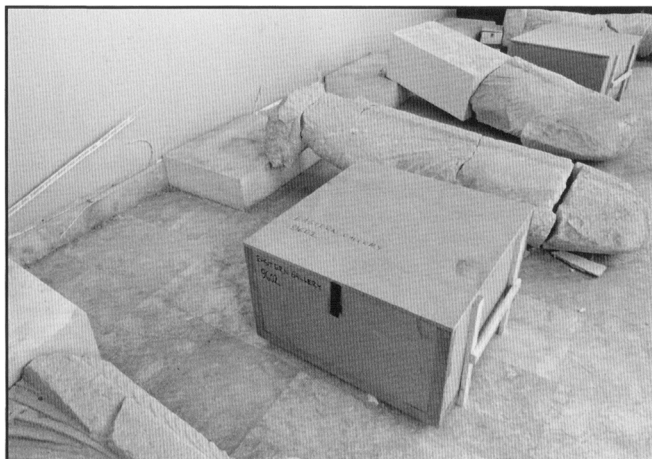
سوريا: بدعوة من المندوبية الروسية الدائمة لدى اليونسكو، وموافقة المديرية العامة للمنظمة، تنقلتُ إلى موقع تدمر مهيبة بعثة سفراء لدى اليونسكو يوم 5 ماي/مايو 2016. وقد مكنتني هذه الزيارة، التي أديتها مهيبة مدير عام قسم المتاحف والآثار في سوريا الدكتور مأمون عبد الكريم، ومدير عام متحف "إرمتاج" بسان بيترسبورغ، من الاطلاع على حالة الموقع بعد تحريره من هيمنة عناصر تنظيم داعش.



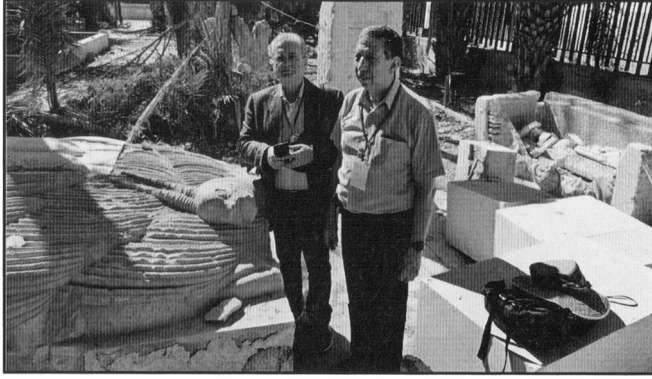
تدمر - سوريا: 5 ماي/مايو 2016، المتحف وما فيه من واجهات للعرض تحوّل إلى مجرّد
ركام.



تدمر- سوريا: أحد البولونيين المتخصّصين في الترميم والموجودين في تدمر، انطلق، بعد تحرير الموقع، في تجميع بقايا تماثيل القبور المدمّرة في المتحف.



تدمر- سوريا: في إحدى قاعات العرض في المتحف، تماثيل من تدمر مفكّكة وملقاة على الأرض.



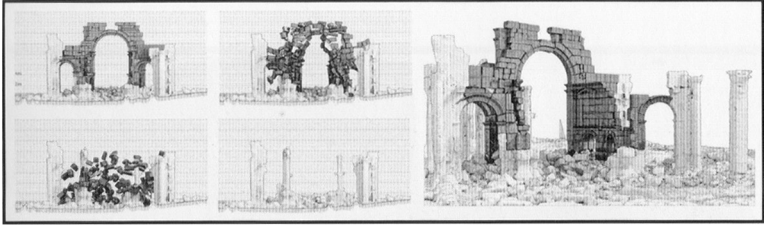
تدمر- سوريا: عند مدخل المتحف صحبة الأستاذ ميخائيل بيتروفسكي مدير عام متحف "إرمتاج" بسان بيترسبورغ أمام تمثال أسد اللآت المتضرّر والذي كان يتصدّر مدخل المتحف.



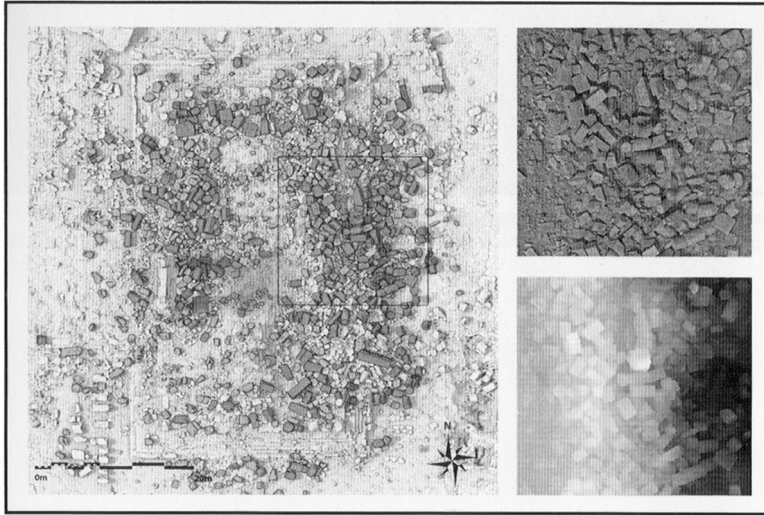
تدمر- سوريا: زيارة للموقع الأثري بتدمر، وصورة بالقرب من معبد بعل الذي دُمّر في أكتوبر 2015.



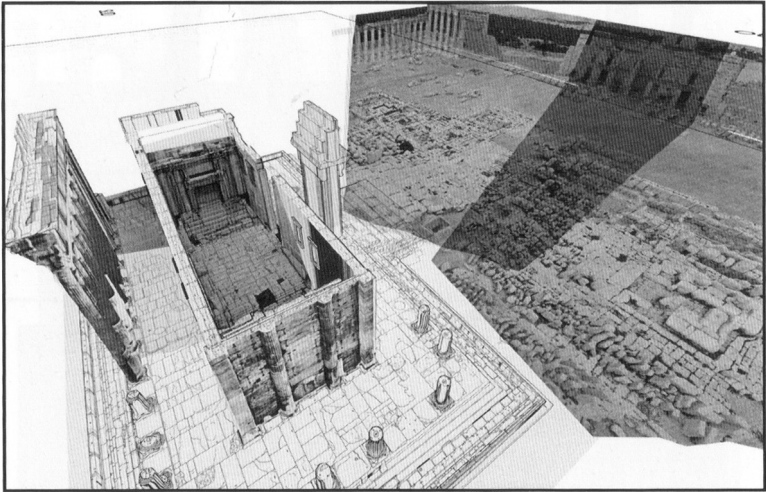
تدمر - سوريا: أثناء زيارة الموقع، مشهد بقايا قوس النصر وأعمدته.



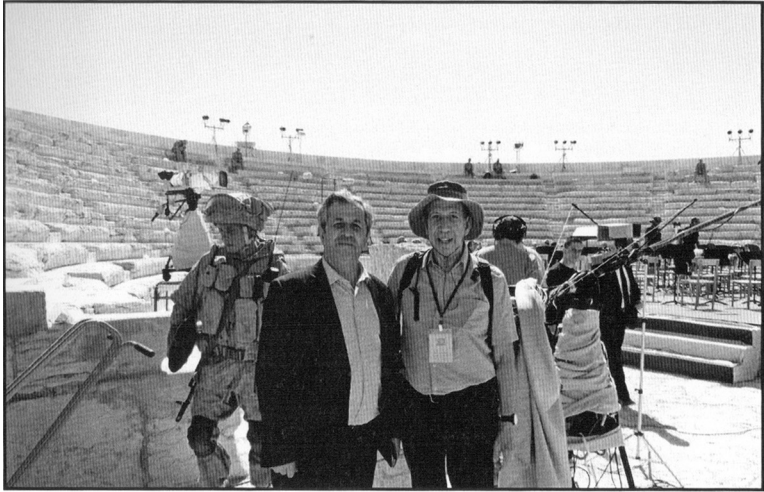
تدمر- سوريا: صورة "إيكونام"، إعادة تجسيم ثلاثي الأبعاد لقوس تدمر.



تدمر- سوريا: صورة "إيكونام"، تحليل دقيق لمعبد بعل.



تدمر- سوريا: صورة "إيكونام"، إعادة تجسيم ثلاثي لمعبد بعل.



تدمر- سوريا: في المسرح القديم، بعد يوم مؤتمر وتاريخي، وأظهرُ في الصّورة صحبة الدكتور مأمون عبد الكريم مدير عام قسم المتاحف والآثار في سوريا (5 ماي/مايو 2016).

منير بوشناقى

التُّراث المُدمَّر

أَيُّ إنقاذ للتراث العالمى المهدّد بالخطر؟

توطئة: السيّدة إرينا بوكوفا
المديرة العاقّة لليونسكو

ترجمة: سهيل الشملى

تنسيق ومتابعة: الدكتور فتحي الجراي

تصميم: نرجس الزواري

كتاب «التراث المدمر» منير بوشناق

تونس - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 2021

ISBN: 978-9973-15-440-8

تونس: 2022/02/22

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

جميع حقوق النشر والطبع محفوظة للمنظمة

[3] إهداء

إلى عائلتي

[5] "أعود إلى الوراء قرنا بعد قرن إلى حدود تلك القرون الغابرة فلا أجد شيئا يشبه ما تراه عيناى الآن. وبما أنّ الزمن الماضى توقّف عن إنارة سبيل المستقبل، فإنّ الفكر يسير فى الظلمات".

ألكسيس دي توكفيل، فى الديموقراطية فى أمريكا

"صحيح أنّنا من فترة إلى أخرى، نكون شاهدين أيضا على تقلّبات غير مأمولة للخلاص، فنشرع، تبعا لذلك، فى الاعتقاد أنّ البشر الذين انسدت أمامهم السبل سيجدون بالضرورة، وبضرب من المعجزات، سُبُل النجاة. ولكن سرعان ما تطرأ تقلّبات أخرى تكشف عن نزوات إنسانية مغايرة تماما، هي أشدّ فتامة وأكثر ألفة. فنعيد الكرة ونتساءل: ألم يبلغ بنو جلدتنا أقصى درجات انعدام الكفاءة الأخلاقية؟ وهل سيواصلون التقدّم فى هذا المسلك؟ ألم يحن وقت الشروع فى التراجع عمّا يجعل ما عملت على بنائه أجيال وأجيال متعاقبة، محلّ إعادة نظر؟"

أمين معلوف، اختلال العالم،

عندما يصيب الإنهاك حضاراتنا

[7] أخبار عاجلة

"مواقع دمّرها الإرهابيون"

تومبكتو، جوان ايونيو 2012

تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي وجبهة أنصار الدين يهدّمان أكثر من نصف أضرحة تمبكتو المشيّدّة بالطين. وقد حدثت هذه الجريمة بعد يومين من إدراج "مدينة الثلاثمائة وثلاثة وثلاثين وليًا [صالحا]" ضمن قائمة التراث العالمي المهدّد بالخطر، حيث أنّ صيتها ذائع بفضل جامعتها الإسلاميّة وما فيها من مخطوطات يبلغ عددها مئات الآلاف ويرجع بعضها إلى العصر الوسيط. وقد صنّفت محكمة الجنايات الدوليّة، فيما بعد، هذه الأعمال ضمن "جرائم الحرب".

الموصل، جويلية ايليو 2014 - فيفري افرابر 2015

بسبب التعلّصّ المحض الرفض للتماثيل، تنظيم داعش في الموصل ينسف، بواسطة المتفجّرات، المسجد الذي يحتوي قبر النبي يونس الذي تعترف به الديانات السماوية الثلاث وتجلّه لكونه ابن آدم وحوّاء. وفي المستقبل ستعدّ هذه المدينة عاصمة دينيّة لمن نصّب نفسه خليفة [على المسلمين].

تنظيم الدولة الإسلاميّة يخرب بالمعاول اليدوية والمطارق الميكانيكيّة التماثيل الآشوريّة والفرثيّة الموجودة في المتحف الأثري بالموصل الذي يعدّ، من حيث قيمة ما يحتويه من تحف وقطع أثريّة، ثاني متاحف العراق بعد متحف بغداد. وقد جدّت هذه الأعمال التي بلغت درجة عالية من الوحشيّة، بعد احتراق مكتبة المدينة وهدم عدد كبير من الصروح.

فهرود، حضر، مارس 2015

عملية هدم، بواسطة الجرافات، لموقعي نينوى وفهرود [8] العاصمة القديمة للإمبراطورية الآشورية في عهد الملك آشور بانبيال الثاني، وهي مشهورة بنقوشها الناتئة نتوءًا خفيفًا ومنحوتات الثيران والأسود ذات الرؤوس البشرية. وبعد ذلك دمّر تنظيم داعش مدينة حضر الفريثية المعروفة بزخارفها المجسّدة، وهي أول موقع عراقي أدرج بقائمة التراث العالمي.

تدمر، أوت أغسطس 2015

أُحقّ تنظيم داعش أضرارًا جسيمة بالموقع القديم لتدمر. وتمّت، في المسرح القديم، عمليات إعدام دون محاكمة، وقُضي قضاء مبرما على عديد الأضرحة وعلى تمثال أسد اللآت. وبعد أن لُغِم الموقع بالكامل، قُطع رأس خالد الأسعد عالم الآثار الذي كان مديرا للموقع طيلة اثنتين وخمسين سنة. وبعد ذلك دمّر الإرهابيون بالمتفجرات معبدَي بعلشامين وبعل اللذين يعود تاريخهما إلى العصر الهليني (القرن الأول). وهذه المواقع كانت مشهورة بأعمدتها وتيجانها وزخارفها المنحوتة وبروعة تناسق أحجامها. وقبل مغادرة الموقع دمّر تنظيم داعش قوس النصر وجزءًا من الأعمدة الفخمة.

دير مار إيليا، جانفي إينار 2016

تنظيم داعش يدمّر تدمرا كليًا أقدم دير في العراق إذ يعود تاريخه إلى القرن السادس وهو يقع بالقرب من الموصل ومنذور للقدّيس إيليا. وهذا الدير الذي أقيم فيه، في القرن الثامن عشر، ما يزيد عن مائة وخمسين قسًا، كان قبلة مسيحيي المشرق الذين يفدون عليه بالآلاف في شهر نوفمبر بمناسبة إحياء ذكرى عيد هذا القدّيس.

تدمر، مارس 2016

القوات الحكومية السورية تستعيد السيطرة على موقع تدمر بمساعدة القوات الجوية الروسية.

[9] تدمر، من 24 إلى 26 أبريل 2016

أول بعثة إلى تدمر من مركز التراث العالمي ومكتب منظمة اليونسكو ببيروت من أجل صياغة تقرير أولي في شأن حالة الموقع والمتحف.

تدمر، من 04 إلى 06 ماي امايو 2016

بعثة إلى تدمر مكونة من قرابة عشرة سفراء لليونسكو أعضاء في المجلس التنفيذي أو في هيئة التراث العالمي تولت دولة روسيا تنظيمها بالتعاون مع السلطات السورية.

نينوى من 18 إلى 19 ماي امايو 2016

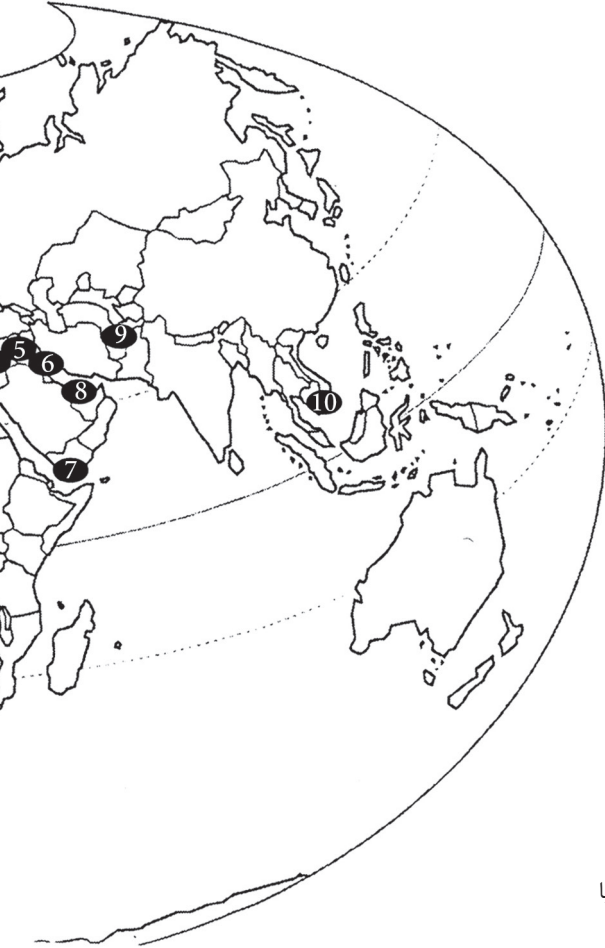
الجماعات الإرهابية تستأنف تدمير جدران نينوى بالجرافات.

لاهاي (هولندا)، 22 أوت أغسطس 2016

محاكمة أحمد الفقيه المهدي، عضو الجماعة الإرهابية "أنصار الدين" في محكمة العدل الدولية بلاهاي، بتهمة "جريمة حرب" لتعمده إعطاء أوامر بتدمير أضرحة تمبكتو في شهر جويلية/يوليو 2012 ولمشاركته في ذلك.

وماذا بعد...؟

[10-11 مفتاح الخريطة:]



1. تمبكتو/مالي
2. ليبيا
3. موستار/البوسنة - دوبروفنيك/كورواتيا
4. متحف بيروت - صور/لبنان
5. تدمر/سوريا
6. الموصل - نينوى - نمرود - بغداد - بابل - أور - البصرة/العراق



- .7 صنعاء/اليمن
- .8 الدوحة/قطر - أبو ظبي
- .9 باميان/أفغانستان
- .10 أنغكور/كمبوديا

تصدير [13]

تبليغ رسالة التراث

في التاريخ الحديث، لم يُدمر التراث الإنساني قطً مثلما دُمّر في الشرق الأوسط حاليًا. وبصفتي مديرة عامّة لليونسكو ندّدت بلا هوادة بهذا التدمير المتعمّد للتراث، معتبرة ذلك جريمة حرب، بل خطة حرب كاملة الشروط، تندرج، اليوم، في استراتيجيّة تصفية ثقافيّة كليّة تستهدف في الآن نفسه الأرواح البشرية ومقرّات التعليم والثقافة وحرية التعبير.

هذا العنف يستدعي أيضا ردّة فعلٍ ووعيا عالميًا بالدور الجوهري للثقافة في تنمية الإنسانيّة لعلّها تضاهي ردة الفعل التي خلّفتها الحرب العالميّة الثانية سنة 1945، والشعور الذي خلّفه تبني اليونسكو لاتفاقيّة التراث العالمي سنة 1972.

ففي كلّ بقاع العالم، عندما يُدمر تراث، وإن انتمى إلى ثقافة أخرى وبلد آخر وعصر آخر مختلف عن عصرنا، نشعر بأنّ اندثاره شبيه بفعل ينال من إنسانيتنا المشتركة. وهذا الاقتناع يُعبّر بإسهاب عن الرابط الذي يوحد الإنسانيّة وعن قدرة التراث على تقمّص هذا الرابط. إنّ التعبئة العالميّة حول التراث تثبت أنّ الثقافة تجمعننا وأنّ هذه التعبئة، رغم بطئها وقلة وسائلها، [14] أمل يمكن أن يكبر على قاعدة مبادئ واضحة.

منير بوشناقى، المدير السابق لمركز التراث العالمى التابع لليونسكو، والمدير العام المساعد لليونسكو المكلف بالثقافة، يستعرض في هذا الكتاب بعضا من هذه المبادئ بكثير من البيداغوجيا والذكاء. فهو يبيّن في الآن نفسه مركزية التراث في الصراعات الحديثة وأهمية حمايته في كلّ استراتيجيّة مستدامة تبني السلام.

أمام ضخامة المهمة والشعور بالعجز في مواجهة الوحشية، يُعدّ هذا الكتاب بمثابة تذكير بالحقائق: تذكير بالمهمة الحيوية لليونسكو، المنظمة الحكومية الدوليّة الوحيدة في منظمة الأمم المتحدة الموكول إليها السهر على حماية التراث، وتذكير بما تحقّق من تطوّر منذ عقود على صعيدي التّصوّر والإنجاز الماديّ من أجل ضمان هذه الحماية من قبل منظمة اليونسكو وشركائها، وتذكير بالنجاحات الملموسة بدءا بموقع أنغكور الأثريّ ووصولاً إلى إعادة بناء أضرحه تمبكتو، وتذكير بما تحقّق من تقدّم تشريعيّ من أجل أن يُعتبر التدمير المتعمّد للتراث جريمة حرب وأن يُعاقب مقترفها، وتذكير أيضا بالثغرات والنقائص التي ينبغي أن تُواجه دون مجاملة وأن يتمّ تداركها.

في هذا الكتاب، يمتزج هذا الالتزامُ بشغف رجل نذر حياته للتراث وأصبح أحد أكبر الأخصائيّين فيه على الصعيد العالمي. هذا الشغف يتجاوز بكثير الميل إلى "الأحجار القديمة"، بل هو إنصات لما يمكن أن نقوله لنا تلك الأحجار، وللرسالة الإنسانيّة التي تحملها. فالتراث حمّال قيمٍ أساسيّة تتوارثها الإنسانيّة جيلا عن جيل ودونها يمتنع وجود مجتمع إنسانيّ. [15] إنّها قيم

يسعى المتطرفون إلى محوها. وباسم هذه القيم، قيم الحرية والكرامة والحوار، نحن ملزمون بحمايتها.

ولهذا السبب، يُعتبر تدمير التراث جزءاً لا يتجزأ من الأزمة الإنسانية، وتُعتبر حمايته أمراً لا ينفصل عن حماية الأرواح البشرية. فالتراث درس في الحذر وطول النفس يتطلب عملية تقييم كبرى عبر العالم، خدمة للشعوب الموجودة دائماً في الصفّ الأوّل في مقدمة المواجهة.

لقد خاض منير بوشناقي التجربة تلك، ممّا كان طرفاً رئيسياً فاعلاً في إعادة بناء جسر مُستار في البوسنة والهرسك أو ممّا كان في قلب المفاوضات من أجل منع نسف تماثيل بوذا في باميان وسط أفغانستان. فسرده لتلك القصة يعدّ ردّاً على السدّج الذين يعتقدون في الحلول الجاهزة، وردّاً على السدّج الذين يرون أن لا شيء ممكن. منير بوشناقي يواجه هؤلاء وأولئك بنظرة تسامح ووضوح من رجل خبير وملتزم لا يجهل صعوبات التدخل السريع، ولكنّه يعلم أيضاً النتائج الملموسة التي يحققها العمل الدّولي. هذه الرسالة ضرورية اليوم من أجل مساعدة الثقافة على النهوض إذ حيثما تولد الثقافة من جديد، ثمّة شعب ينهض أكان ذلك في تنبكتو أم في باميان حيث يوجد وادي تماثيل بوذا، أم في مُستار في البوسنة والهرسك، أم في فرصوفيا بعد سنة 1945.

السيدة إيرينا بوكوفا

المديرة العامّة لمنظمة اليونسكو

مقدمة [17]

وعى ناشئ عن الحرب العالمية الثانية

على إثر الحرب العالمية الأولى، اكتشف المجتمع الدولي، في ذهول، ضخامة حجم الكارثة التي حلت بمناطق مختلفة من العالم من حيث العدد المفزع للضحايا والجرحى والمهجرين. وهذا ما جعل ضمير الإنسانية يهتز إلى الأبد.

لقد بلغ العدد الهائل من الضحايا المدنيين والعسكريين ما يقارب سبعين مليون ضحية أي ما يفوق أربعة أو خمسة أضعاف ضحايا الحرب العالمية الأولى. وانضفت إلى الكارثة البشرية، الكارثة التي حلت ببيئة البلدان المتنازعة وبتراثها الثقافي سواء في المدن أو في الأرياف.

ليس من النادر أن نكتشف الآن، في بداية القرن الحادي والعشرين، قذائف مازال بعضها قابلا للانفجار وتتطلب تدخلا سريعا من المختصين في إزالة الألغام. وفي هذا الصدد وعلى سبيل المثال، تمّ في شهر مارس 2014 العثور على لغم وتسع عشرة قذيفة على شاطئ في مقاطعة فينستار بفرنسا.

هذه الحرب العظمى الثانية في القرن العشرين كانت شاهدا على تدمير مدن بأكملها مثل دراسد وفرصويا اللتين كانتا مشهورتين بقيمة معالمهما ومواقعهما الأثرية وأهميتهما. فبعض من هذه المعالم مَحَي من الوجود بالكامل إمّا في وطيس المعارك وإمّا عن إرادة تدمير محضة تهدف إلى إبادة كلّ منارة

ذات صلة بالهويّة [18] وكلّ ما يمثّل ذاكرة لسكان المدينتين. فنهبت أعمال
فنيّة لا تقدّر بثمن، ودمّر بعضها الآخر بغير رجعة.

التراث الثقافي، سفينة القيادة في اليونسكو

غداة هذه الحرب المبيدة على الصعيد الصناعي، وبعد أن وعت القوى
المتحاربة حجم الدمار الحاصل، ورغبة منها في تجنّب تكرّره، قرّرت منظمة
الأمم المتحدة في نيويورك إنشاء إحدى منظّماتها المختصّة أي "منظمة الأمم
المتحدة للتربية والعلم والثقافة" - المعروفة اختصاراً باسم اليونسكو ومقرّها
باريس - من أجل المساهمة في المحافظة على السلم في العالم.

ولذلك نحن نفهم السبب الدّاعي إلى إعلان ميثاق تأسيس اليونسكو في
ديباخته أنّه "لمّا كانت الحروب تولد في عقول البشر، ففي عقولهم يجب أن
تُبنى حصون السلام". ويمكن أن نفهم أيضاً الأسباب التي دفعت المؤسّسين
الأوائل إلى أن يجعلوا لهذه المنظمة الناشئة هدفاً هو "المساهمة في حفظ
السلام والأمن عن طريق تعزيز التعاون بين الأمم في مجالات التربية والعلم
والثقافة من أجل ضمان احترام كونيّ للعدالة والقانون ولحقوق الإنسان
والحرّيات الأساسيّة لكافة البشر دون تمييز بينهم في العرق والجنس واللغة
والدين كما ينصّ على ذلك ميثاق الأمم المتحدة لكلّ الشعوب".

فاليونسكو، بهيئاتها الاستشاريّة¹ وبالمنظّمات غير الحكوميّة [19]
والمؤسّسات التي تزايد عددها، إذا كان ثمة مجال نالت فيه وسام الشرف فهو

1 المجلس الدولي للمعالم والمواقع (إيكوموس) ومقرّه باريس - الاتحاد الدولي لصون الطبيعة (غاند) - المركز الدولي
لدراسة صون الممتلكات الثقافية وترميمها (إيكروم) ومقرّه روما.

بلا شكّ ما تقوم به من عمل منذ ما يقارب سبعين عاما من أجل حماية التراث الثقافي وتثمينه. وذلك طبقا لما ينصّ عليه الفصل الأوّل من الميثاق التأسيسيّ للمنظمة الذي يوكل إليها مهمّة "السهر على صون وحماية التراث العالمي من الكتب والأعمال الفنية وغيرها من الآثار التي لها أهميتها التاريخية أو العلمية؛ وبتوصية الشعوب صاحبة الشأن بعقد اتفاقيات دولية لهذا الغرض". وهذا ما يفسّر استمراريّة البرنامج المتعلّق بصون التراث الثقافيّ ونجاحه، ويفسّر كذلك القيمة التي يوليها لهذا البرنامج مجموعُ الدول الأعضاء في منظمة اليونسكو وكافة منظمات المجتمع المدني المدافعة عنه.

مفهوم "التراث الثقافي" اليوم

هذه العبارة لم تعني دائما شيئا واحدا، ولا الشيء نفسه، خاصّة خلال العشريّات الستّ الأخيرة. فمفهوم التراث الثقافيّ تغيّر وعرف تطوّرًا كبيرًا. يعتبر دومينيك أودوروري في كتابه "مفهوم التراث وحمايته"² أنّ "التراث قسم من أحلامنا وهو في نفس الوقت علامة على ماضٍ نرفضه أحيانا. إنّه في النهاية مفهوم ينطوي على مفارقة، وهذه المفارقة لم تتوقّف عن التنامي إلى حدّ بلوغ الغموض: [20] عندما يصبح كلّ شيء تراثًا، فأيّ معنى دقيق وعميق يجب أن نعطيه لهذا اللفظ؟".

بعد أن اتخذ مفهوم التراث لنفسه في البدء مرجعا هو المجموعات الفنيّة الأكثر تمثيلا وبقايا آثار الثقافات الماضية، توسّع تدريجيًا ليشمل أصنافا

2 سلسلة "Que sais-je" باريس، 1997، ص.3.

جديدة متأتية من قطاعات نشاط غير فنية، مثل التراث الصناعي والهندسة المعمارية الحديثة والمشهد الثقافي، أو ليشمل أيضا سياقات أكثر خصوصية مثل التراث الثقافي المخمور بالمياه.

فمفهوم التراث الثقافي، اليوم، مفهوم منفتح يمكن أن يشمل أشياء جديدة وأن يبرز دلالات جديدة باعتباره مفهوما يمثل انعكاسا للثقافة الحية لا انعكاسا لصورة جامدة عن الماضي.

ثقافة حية مصدر للتنمية

لقد وعينا بأنّ طريقتنا في التعامل مع التراث لا يمكن، مستقبلا، أن يفصل فيها بين مفهومي "الطبيعة والتراث" ولاسيما في الوضعيات التي يوجد فيها رابط وثيق بين الإنسان ومحيطه الطبيعي، إن أردنا أن نبين بصدق تنوع التجليات والتعبيرات الثقافية.

فقطع النظر عمّا يمثله التراث الثقافي اللامادي، فإنّ تطوّر التصرّو المتصل بهذا المفهوم يجعلنا نعلم أنّ بقايا الآثار المادية والأطلال لا يمكن أن تكون محلّ إعجاب في ذاتها ولذاتها.

فمن الضروريّ جعلها متّصلة بالعناصر الأخرى اللامادية، وينبغي تمثّلها متفاعلة مع محيطها الماديّ، بل كذلك مع محيطها الطبيعيّ والبشريّ معًا.

[21] وتبعًا لذلك، أصبح التراث الثقافي واقعا معقّدا أكثر فأكثر، وبالتالي أشدّ هشاشة وتعرّضا للتهديد. وهذا ما يجعلنا، مستقبلا، أشدّ وعيا دائما بالدور الذي ينهض به في الحياة، وفي تطوّر المجتمعات لما فيه من شحنة قويّة ذات صلة بالهويّة، وذات قيمة رمزيّة.

إنّ التصدُّور الجديد للتراث الثقافيّ، وما يوجد من اتفاق شامل حول رؤية مُجدّدة للثقافة باعتبارها مصدر تنمية، قد ضبطته وعقلنته تجربة اللجنة العالميّة للثقافة والتنمية في ندوة ستوكهولم سنة 1998، ثم منظمة اليونسكو ومنظمة الأمم المتحدة.

وفي شهر سبتمبر 2010، وباقتراح من اليونسكو، صادقت الجلسة العامّة للأمم المتحدة على الوثيقة النهائيّة لقمة أهداف الألفية. ويمكن للمرء أن يقرأ في الورقة المفاهيميّة أنّ "البعد الثقافيّ للتنمية يقتضي، ضمناً وبطرق شتى، حماية التنوع الثقافيّ والتشجيع عليه لا سيما عبر مبادرات صون التراث الثقافيّ الماديّ واللاماديّ وحماية الممتلكات الثقافيّة من النهب والتفريب، أو عبر تنويع عرض الممتلكات والخدمات الثقافيّة"³.

الهويّة الثقافيّة والتراث اللاماديّ

اعتنت منظمة اليونسكو، طيلة ما يزيد عن الستين عاماً، بدعم المبادرات الدولية وبتنظيم ما له علاقة بهذا المجال الذي يعتبر أساس هويّة الشعوب ومصدر إلهامها.

[22] ففي ستينات القرن الماضي، أصبحت دول كثيرة من العالم الثالث، أعضاء في اليونسكو وأقرّت بأنّ "التحرّر السياسيّ يُعدّ، نسبياً، بغير قيمة تذكر ما لم يصاحبه التحرّر الثقافيّ". وعبرّت الدول في هذا الاتجاه عن تمسّكها بتشكّلات الهويّة الثقافيّة، لا سيما التي يُمثّلها التراث الماديّ، من معالم ومواقع وتحف محفوظة في المتاحف.

3 انظر "portal.unesco.org/culture/fr/files/note conceptuelle"

هذه المقاربة الأنثروبولوجية تدفعنا، اليوم، إلى اعتبار التراث مجموعة اجتماعية من التشكلات المتنوعة والمختلفة والمركبة والمتربطة فيما بينها. فالتراث الثقافي، في معناه الواسع، يعكس، مستقبلا، تنوع التعبيرات الثقافية، ولكن التجليات الثقافية أيضا.

وعلى هذا النحو اكتسب البحث عن "معنى" للممتلكات الثقافية أهمية أكبر. فهو يقتضي تعريف القيم الأخلاقية، أو العادات الاجتماعية، أو العقائد، أو الأساطير التي يمثل التراث المادي رمزا لها وتعبيرا عنها. فدلالة البناءات المعمارية أو الحضريّة وتحويل المناظر الطبيعية بفعل التدخل البشري أصبحت مرتبطة أكثر فأكثر بمسائل الهوية.

وانطلاقا من هذه الأفكار، تمت مقارنة أكثر اكتمالا، من أجل أن تعطى قيمة أكثر لمفهوم التراث اللامادي الذي يُنظر إليه باعتباره مصدرا للهوية الثقافية وللإبداع والتنوع. ويشمل هذا التراث اللامادي العادات والتقاليد الشفوية والموسيقى واللغات والشعر والرقص والأفراح والاحتفالات الدينية، مثلما يشمل أيضا طقوس الاستطباب والمعارف التقليدية والمهارات ذات الصلة بالمظاهر المادية للثقافة، مثل الأدوات والمسكن.

[23] عملية صون على الصعيد العالمي

في مطلع القرن الحادي والعشرين، ظلت اتفاقية اليونسكو لسنة 1972 المتعلقة بحماية التراث الثقافي والطبيعي العالمي، معترفا بها اعترافا واسعا باعتبارها إحدى الوسائل المعيارية الدولية الكبرى التي تحدّد المقصود بالتراث الثقافي والتراث الطبيعي أيضا.

ينبغي أن يكون مرجعنا، على وجه التخصيص، الفصلين الأولين اللذين وُقِعَ عليهما إلى حدِّ اليوم 191 بلدا، أي تقريبا كلِّ بلدان العالم. ويُفصِح هذا العدد، في حدِّ ذاته عن الكثير، إذ يبيِّن أنَّ هذا الميثاق أصبح من أكثر المعاهدات المعترف بها دوليا.

وفي هذا الصِّدِّ نستشهد بفقرة مقتطفة من الفصل الأوَّل: "لتحقيق غايات هذه الاتفاقية، تُعتَبَرُ من التراث العالميِّ المعالمُ والمجموعات والمواقع" وفي هذا السياق، يُعدُّ مفهوم "منظر ثقافي"، الذي تمَّ الحديث عنه بكثرة خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة، إحدى تلك الأفكار التي تهدف إلى توسيع تصوُّر التراث فمكَّنت من إنشاء رؤية للتراث الثقافيِّ أكثر انسجاما، ولكن أكثر تعقُّدا، إذ صار الأمر متعلِّقا بحماية "أعمال بشريَّة أو أعمال مشتركة بين الإنسان والطبيعة".

أثناء الدورة الأخيرة لهيئة التراث العالميِّ التي التَّأمت ببون في صائفة 2015، أمكن استخراج الإحصاءات التالية بناء على تطبيق اتفاقية 1972: أدرجت، إلى اليوم، في قائمة التراث العالميِّ 1031 من الممتلكات، 31 منها عابرا للحدود، و48 منها في خطر، و802 موقع ثقافيِّ، و197 موقعا طبيعيا، و32 ممتلكا مُختلطا. وهذه المواقع موزَّعة على 163 دولة.

القسم الأول ^{٢٥}

[27] إنجازات اليونسكو عبر الزمن

منذ نهاية القرن التاسع عشر، حظيت المعالم التاريخية بالخصوص بعناية السلطات الوطنية أو الجهوية أو المحلية في أوروبا على وجه التخصيص. فمن بين النتائج التي أفرزتها الثورة الصناعية والتقنية في القرن الماضي، إثارة شعور التمسك بالقيمة التاريخية والجمالية للمعالم والمواقع التي تمثل شاهدا على حقبة تاريخية انقضت والتي يُرغَب في الارتباط بها من باب البحث عن هوية، ولكن بدافع ضرب من ضروب الرومنسية أيضا.

توجّه الاهتمام، في الفترة الحديثة، إلى وضع تصوّر متصل بمفهوم جديد هو "التراث الثقافي للأماذي"، وإلى تعيين هذا البعد الإضافي. وهذا المفهوم ناتج عن مقارنة أكثر عمقا وحميمية تهتمّ بنقل المعارف والمهارات في إطار أنظمة معارف جماعية أو فردية، روحية وفلسفية في الآن نفسه، والتي يمارس الإنسان عبرها نشاطه الإبداعي.

وستكون العديد من النماذج التي اهتمنا بها في هذا الكتاب تمثيلا للعناية التي يحظى بها التراث الثقافي في العالم بأسره وتبريرا لها، سواء أكان الأمر متعلّقا بممتلكات منقولة [28] أم ثابتة تطلق عليها عادة عبارة "تراث مادي" أو "تراث ملموس"، أم بممتلكات تطلق عليها مستقبلا عبارة "تراث حي" أو "تراث لامادي".

نحو تعريف موسّع لمفهوم التراث

على الصعيد المبدئيّ، تجلّى هذا الوعي المتنامي من خلال إصدار ميثاق أثينا ذي البعد العالميّ في شهر أكتوبر من سنة 1931، ثمّ إصدار ما يُعرف بميثاق البندقية في شهر ماي/مايو سنة 1964، الذي تمّم المبادئ الأساسية التي ينبغي احترامها أثناء أشغال حفظ المعالم والمواقع، وضَبطها.

ومنذ هذا التاريخ، تمّ، في كلّ أصقاع العالم تقريبا، وبشكل تدريجيّ، إيلاء اهتمام أكبر بمشاكل الصون، لا صون المعالم التاريخية فقط، بل صون مجمل محيطها، وبالأساس الأحياء ذات القيمة التاريخية أو المدن التاريخية. ومنذ مدّة قصيرة، يُقرن بالمعالم التاريخية المحيط الطبيعيّ أيضا، تبعا لتزايد ظاهرة التحضر والنموّ الديموغرافيّ الذي يظهر بصورة جليّة في بلدان العالم الثالث.

لئن كان تصوّر حماية التراث التاريخي وصونه، مفهوما نسبيا فهما جيّدا، لا سيّما منذ توصيات فرسوفيا-نيروبي التي صادقت عليها الجلسة العامّة لليونسكو سنة 1976، فهيهات أن يكون تطبيقه أمرا مكتسبا. فثمة عمل دؤوب لا بدّ أن يقوم به المدافعون عن التراث الذين يرى فيهم البعض [29] أشخاصا "رومنسين" أو "مُعادين للتقدّم".

ولهذا السبب، بادر خبراء المجلس الدولي للمعالم والمواقع إيكوموس بتحرير نصّ من أجل حماية المدن التاريخية يكون امتدادا لميثاق البندقية في سنة 1964. وقد تمّت المصادقة على الخطوط العريضة لنص هذا الميثاق سنة 1986 بتوليدو التي تعدّ مدينة تاريخية بامتياز، وتمّ إصداره إثر ذلك

في الجلسة العامّة للمجلس الدولي للمعالم والمواقع إيكوموس⁴ في واشنطن سنة 1987.

وفي سنة 2011، صادقت منظّمة اليونسكو على توصية جديدة تتعلّق بحماية "المناظر العمرانيّة التاريخيّة". ولم تقترح هذه التوصية مبدأً جديداً في مجال حفظ التراث، ولم تكن الغاية منها تعويض النصوص الموجودة، بل هي تنخرط في منطق الاستمراريّة. وتعتبر هذه التوصية أداة تكميليّة ومُقارِبَةٌ تهدف إلى تعزيز إدماج الثقافة والتراث وأخذهما في الاعتبار وتثمينهما في سياسات التنمية العمرانيّة واستراتيجياتها⁵.

صون موروثنا الثقافي المشترك

يمكن للمرء، فعلاً، أن يتساءل كيف يستطيع الإنسان الحديث، الذي يواجه تحوّلات شتى في إطار حياته، إدماج الموروث الثقافيّ في محيطه اليوميّ مع حفظه من التدمير، بل كيف يريد أن يكون ذلك في المستقبل؟ هذه المسألة أساسيّة لأنّ فكرة حماية الموروث الثقافيّ وصونه قد تودّي فقط إلى إثارة نقاش نظريّ وتغذيته، والحال أنّ التراث يواجه بشدّة تهديدات حقيقيّة.

[30] ويكمن الصراع الحاصل بين من يدعون إلى حفظ الأحياء القديمة ومن يعتبرونها عمليّة عديمة الجدوى، في اختلاف الطّرق التي تعالج بها مسألة التراث. ويجب أن نعلم أنّ عملية الحفاظ تقتضي فعلاً وقتاً أطول

4 المجلس الدولي للمعالم والمواقع.

5 نصّ صادر عن اليونسكو

ومجهودات أكثر ديمومة، وتبعاً لهذا تتطلّب تمويلاً أضخم بكثير ممّا يُرصد عادة لمخطّطات مشاريع البناء الجديدة ولإنجازها.

فطيلة الخمسين سنة الماضية، أمكن لكلّ من اهتموا بحفظ الأحياء التاريخية التفتّظنّ إلى أنّ المسؤولين عن التخطيط العمرانيّ أو عن المالّيّة العموميّة يميلون أكثر إلى إيلاء الأولويّة لمشاريع التجديد وإعادة الإعمار على أراضٍ بيضاء عوضاً عن المصادقة على إعادة تأهيل بنايات قديمة.

فلمّا كان من الصعب التحكّم بالقدر الكافي في تفاصيل هذه العمليات، في مستوى التكلفة والزمن والموارد البشريّة المرصودة لها، فمن الأسرع والأجدي والأنجع استعمال الجرافات وتسوية الأرض والبناء عليها دون قيد أو شرط.

هل الترميم واجبٌ؟ ولمَ الترميم؟ وماذا نُرمّم؟

هذا الإقرار، على قساوته، ليس بعيداً عن الواقع، لأنّه غالباً ما يمثّل حجة ترفع في وجه من تُوكّل إليهم مهمّة صون التراث وحمانيته فيُدعون إلى تقديم تبريرات وحجج مقنعة للدفاع عن وجهة نظرهم الداعية إلى حفظه وتثمينه.

[31] كتب أندري شاستال فقال: "إنّ الأمر الذي يشحذ هذا الإحساس بوجود تصدّع ونزاع، هو أنّ ازدهار الحضارة الصناعيّة يجرّ وراءه حيثما حلّ، في داخل المدن وفي الأحياء المحيطة بها وفي المجال الريفيّ، بناياتٍ حديثة عادة ما تكون كئيبة وعلى نمط موحد، وعلى مقربة من مبانٍ قديمة. ولأوّل مرّة في التاريخ، نشب بين من يتّخذون الماضي مرجعاً ومن يدعون إلى مواكبة

الراهن، صراعٌ حادٌّ من أجل احتلال المجال وتهيئته، ولا بدّ في ذلك من إيجاد تبريرات دائماً⁶.

ففي فترة ما قبل المرحلة الصناعيّة، كانت تحكّم عملياتِ التحوير والتجديد التي تشهدها مدنُ الماضي التاريخيّة، ثوابتٌ ثقافيّة استقرّت عبر الزمن. والوسائل التقنيّة المحدودة لم يكن لها إلاّ أثر بسيط في هذه المبادئ. وقد وسّم بعض الحكّام مدنهم بطابع شخصي، فأعادوا تصميمها بصورة جذريّة، أو أنشأوها من العدم. ولكنّ الأمر لم يكن متعلّقاً آنذاك إلاّ بحالات معزولة أو بظواهر محدودة.

كانت التغييرات في بعض الأحيان تستجيب لرغبة في احترام طقس من الطقوس الدينيّة أو لظواهر النظام الكوني التي يحتلّ فيها الموقع دلالة مخصوصة يمكن أن يدركها عامّة النّاس. ورغم هذه التصدّعات الملحوظة في مجال التطوّر المجالي والمعماري فقد ظلّت الاستمراريّة الثقافيّة مضمونة هي أيضاً.

خلق الدخول في الحقبة الصناعيّة وضعيّة جديدة تمام الجدّة: فقد وهب تقدّم التقنيّة قدرة الإنسان على الخلق والتحويل، الوسائل التي تمكّنها من التحققّ والتجليّ حتى في فنّ العمارة [32] وفي عمليّة الإعمار الشامل لمواقع من المواقع. وبلغ حجم المجال المبنيّ قدراً لم يكن في ما مضى قابلاً للتخيّل.

6 الموسوعة الكونيّة، أندري شاستال، فصل تراث وفنّ وثقافة.

وساهمت في ذلك أيضا، بصفة غير مباشرة ولكن بعمق شديد، وسائل التواصل والإنتاج الجديدة وأنماط العيش المستحدثة. فمن الآن فصاعدا، تنهض التقنية بدور المحرك الذي كان، في ما مضى، مقصورا على الثقافة والدين. وهذا التحوّل مقترنا بأليات اقتصادية جديدة تعرف هي أيضا قطيعة عن السياق الثقافي التقليديّ، أضحى سريع الانتشار.

التحضّر الصناعي في أوروبا

إذا اتخذنا أوروبا، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نموذجا، فإننا سنتبيّن أنّ المدن الأوروبيّة أخذت في التنامي بنسق مذهل بفعل عوامل جديدة صاحبها، هي بدورها، بروز طبقات اجتماعيّة جديدة، وتراتبية جديدة.

فلقد أفضى ما شهدناه من توسّع للضواحي، ودكّ للأسوار، وردم للخنادق، ومدّ للطرق الواسعة، إلى ولادة تصوّر جديد للمدينة الحديثة مناقض لتصور المدن القديمة التي تنمو أحيانا وفق حركة انتشار غير واضحة المعالم.

ولا يُنظر إلى هذه المدن القديمة باعتبارها أحياء تاريخيّة، بل باعتبارها تجمّعاتٍ سكانيةً عفنة وجدت فيها الفئات الشعبيّة الأكثر فقرا، وبروليتاريا بدايات المجتمع الصناعي، ملاذا لها، بينما تسكن الفئات البورجوازية المسيورة في عمارات تمتدّ على طول الشوارع الجديدة وفي أحياء سكنيّة تقع في الضواحي. هذا الاستقطاب وما صاحبه من انشقاق اجتماعي ظلّ قائما في أوروبا إلى [33] أواسط القرن العشرين. وفي العشرينات والثلاثينات، كان عدد كبير من

بين المهندسين المعماريين، يمثلون الحركة الحداثيّة ويدافعون عن فكرة هدم الأحياء القديمة. وكان لي كوربوزي أوضحهم على الإطلاق، إذ كان ينوي في مشروعه، مشروع "المدينة المشعّة"⁷، التضحية بقسم كبير من باريس القديمة لإقامة مجموعة من ناطحات السحاب المنظّمة وفقا لمثال هندسيّ.

ولحسن الحظّ، لم تر هذه المقترحات المتطرّفة التورّ، إلّا أنّ الإيديولوجيا التي كانت تحرّكها ساهمت مساهمة واسعة في محو عدد كبير من الأحياء التاريخية الأوروبيّة قبل أن تندلع الحرب العالميّة الثانية فتدمّر كليًا بعض المراكز العمرانيّة في أوروبا الوسطى وبشكل أكثر فظاعة ممّا كان في الإمكان أن يقوم به المهندسون المعماريون الحديثون بتخيلاتهم الأكثر جرأة.

وتولّدت، في الستينات، عن هذه الخسائر المخطّط لها أو غير المخطّط لها، فكرة جديدة. ففي أحياء غير واضحة المعالم، خالية من طابع يميّزها، ولا يجد فيها السكّان أيّ رابط يجعلهم يرون ذواتهم في محيطهم المشيّد، كشفت "آلة السكن" القابلة للتبديل عن كلّ عيوبها.

ومن ناحية أخرى، فرض ظهور ضرب من الوعي البيئيّ مراجعة تدريجيّة للتصوّرات المعماريّة العمرانيّة المهيمنة. وفي النهاية أجبرت نُدرة الموارد التاريخية في المدن الكبرى، الإدارات البلدية والمهندسين المعماريين على مزيد الاحتياط في شأن المادة التاريخية التي صمدت في وجه الزمن.

7 مخطّط فوازان لوسط مدينة باريس، 1922-1925.

وكما هو الحال في مثل هذه الوضعيات، شرعت عقارب الساعة في الدوران في الاتجاه المعاكس. فإلى جانب انشغال المشروع بحفظ المعالم، ظهرت في هذا الشأن صرامة مبالغ فيها حالت دون أيّ تجديد إبداعيّ [34] للبناءات العاديّة جدًّا. ففُرضت قوانين شكلية لا سيّما في خصوص تجديد الواجهات: تُعادُ تهيئةُّ ما بداخل البنايات إعادةً كليّةً ويحافظُ بدقة على تركيبه الواجهات القديمة ذرًّا للرماد على العيون. وهذا التصرف أطلقت عليه لفظة "الواجهيّة"⁸ التي غالباً ما تتعرّض للنقد.

ونجد أمثلة كثيرة لهذا في مدن مختلفة من أوروبا حيث تختفي وراء واجهات العمارات السكنية القديمة متاجر كبرى، ومثل هذا التغيير للوجهة شجّع عليه شغف متزايد بالمراكز "المُجدّدة". أمّا المناطق المخصّصة للمتجّلين في الأحياء التاريخيّة والتي كان التجار فيما مضى ينفرون منها بسبب عسر دخول العربات ذات المحركات إليها، فقد أضحت، فجأةً وبفضل التطوّر السياحي، منجم ذهب.

وعلى هذا النحو انطلقت عمليّة إضفاء صبغة بورجوازيّة على أحياء قديمة ذات منزلة وضيعة بتحويلها إلى أحياء "نبيلة". ولا تخلو هذه العملية المتمثلة في إعادة تأهيل المدينة القديمة، المركز الحقيقي للمدينة الكبرى التي نمت في محيطها، من جوانب إيجابية. ولكن، لئن كان هذا ردّ فعلٍ على عملية "التزديل" القديمة، فإنّه ولّد أيضاً مشاكل اجتماعيّة جديدة. ولم تفلح في المحافظة على مركزها التاريخي وفي تأهيله تدريجيًّا دون أن تؤدّي المضاربة

العقارية إلى التخلّص من السكّان الأصليين، إلّا بعض المدن (مثلا بولونيا في إيطاليا).

التدمير الحاصل في فترة ما بعد العهد الاستعماري

للأسف، يُطرح مشكل المدن القديمة بأكثر حدّة في البلدان النامية [35] التي شهدت موجة عارمة من التحديث في خمسينات وستينات القرن الماضي، أي، على سبيل التعميم، زمن حصولها على الاستقلال السياسي.

إنّ المدن الاستعماريّة للقرن التاسع عشر، كانت نقطة عبور الحضارة "الحديثة" أي الحضارة الأوروبيّة، ولكنّها كانت أيضا مدنا تمثّل أنظمة اجتماعيّة مغلقة، لا صلة لها تقريبا بمدن السكّان الأصليين. ولم يزل هذا التعارض الثنائيّ إلّا عندما انتهت الهيمنة الاستعماريّة، وشرعت طبقة من السكان الأصليين في الاستقرار بالمدن الاستعماريّة التي تخلّى عنها من أقاموا بها في البداية.

ومنذ ذلك الوقت، حافظت هذه المدن على درجة من الفخامة تمثّل تجلّيًا لما بلغته أشدّ الرغبات جموحا، في بلدان متعطّشة للتقدّم. وتمّ الحطّ من قيمة المراكز التاريخيّة وتدحرجت إلى درجة الأحياء التي لا تتوفر فيها أدنى شروط السكن، كما كان الحال في أوروبا في القرن التاسع عشر.

وقد ساهمت الحركات الديموغرافية التي حدثت في العشرينات الأخيرة، في تسريع هذا التدهور. فالطبقات الاجتماعية الثريّة هاجرت إلى المدن الجديدة الأوروبيّة بينما تكتسح أذفاق النازحين من الأرياف الأحياء القديمة والأحياء القصديريّة الواقعة على الأطراف لأنّها الوحيدة التي توفرّ مسكنا

بثمن بخس، وتتيح إمكانية الشغل في القطاع ما قبل الصناعي أو ما يسمّى بالقطاع "غير المهيكّل" في الاقتصاد.

وعلى هذا النحو، ظلّت الأحياء التاريخيّة القديمة في عموم مدن بلدان العالم الثالث جيوبا ذات تقاليد وعادات ما قبل صناعيّة، في قلب عالم في أوج التحوّل. وقد مكّنها هذا تحديدا من استقطاب مجموعات بشريّة أقبلت من الأرياف نحو وسط حضريّ تقليديّ وجدت فيه [36] ظروفًا قريبة نسبيا من طريقة عيشها الأصليّة. ومن السهل رصد الخطر الذي تحدّثه هذه الوضعيّة بالمدن التاريخيّة في بعض المناطق من إفريقيا وأمريكا اللاتينيّة وآسيا: فالضغط الديموغرافيّ المتزايد يؤدّي إلى استغلال تلك المباني استغلالا مبالغا فيه. والكثير من البيوت القديمة والاسطبلات وحتى الأقبية التي هجرها مالكوها، تستعمل لأنشطة مهنيّة غير خاضعة للمراقبة، مثل الصناعات التقليديّة أو الورشات شبه الصناعيّة، مهمتها تزويد السوق الداخليّة بتكلفة مربحة جدّا. إلا أنّ هذه الأنشطة تتمّ في وضعيّة صحيّة مزريّة.

ثم إنّ المباني التاريخيّة التي تُحوّل لمثل هذه الأنشطة، سرعان ما تستحيل إلى أنقاض. وفي متاهة أزقة المدن القديمة غالبا ما يصعب التفتّن إلى البيوت، بل إنّ مظهرها الخارجيّ لا يثير أحيانا أيّة شبهة، وهذا ما يحول دون أيّ رقابة للأنشطة غير المرغوب فيها أو غير القانونيّة.

وينضاف إلى تدهور حالة المباني نقصان الشروط الصحيّة: فوسائل التزوّد بالماء، وشبكة الصرف الصحيّ لم تعد عموما تستجيب للحاجيات الراهنة،

وعندما تظل الأنظمة التقليدية صامدة فإنها تكون في حالة رديئة أو مهملة. أما الطرق فهي أيضا في وضعية متردية.

معاينات أولية إزاء تردّي وضع التراث

من أجل تحسين ظروف حياة السكّان، ينبغي تبني سياسات تضع حدًا لهذه الوضعيّة وترجع للأحياء القديمة تركيبة اجتماعية متنوّعة ذات سلوك مسؤول، إذ أنّ المعالم الكبرى، لئن كانت السلطات العموميّة هي الوحيدة القادرة على ترميمها، فإنّ العناية بمدينة [37] في مجملها يقتضي دعم المبادرات الخاصّة. وأنداك تبرز صعوبة أخرى تتمثّل في أنّ التحسينات الماديّة تحتاج إلى استثمارات هامة ولكن تحول دون تحقيقها موارد عامّة ما تكون غير كافية أو إن وجدت فهي مُخصّصة لإدارة الأحياء التي تسمّى "حديثة" وللعناية بها وصيانتها.

ولا بدّ أن نشير إلى صعوبة إضافيّة: لا يمكن أن تُعتمد في تجديد المدن القديمة مقاييس تطبّق على مدن حديثة، لأنّ مثل هذا التمشّي قد يُفقدنا طابعها الخاصّ الذي يبرّر، تحديدا، الاستثمارات الضخمة. فعملية التجديد ينبغي أن تحترم بدقّة هيئة تشكّل الأحياء القديمة. ولكن، للأسف، ليس من النادر أن نجد نماذج لمدن قديمة تمّ تقريبا تدميرها عبر عمليات تطهير غير مدروسة أدّت إلى نقيض الهدف المنشود فألحقت في النهاية ضررا بنوعية المساكن.

وعلى هذا النحو، ترتبّت على شقّ طرق محوريّة في عدد من المدن العتيقة انعكاسات سلبية. ولئن كانت هذه الأعمال تتمّ بنوايا حسنة فإنها كانت

جاهلة بالاحتياجات الأساسية للنسيج الحضري التقليدي ودون تفكير فيما سينجر عن هذه الحلول التقنية المحض من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والجمالية. فالتجديد الحكيم للأحياء التاريخية يستوجب، من قبل الخبراء المحليين أو الدوليين الذين كُلفوا بذلك، إعادة النظر في المناهج المنقولة عن التخطيط الحضري الحديث، واستنباط حلول تتلاءم مع الوضعيات المحلية، وهي حلول لا يمكن أن تنشأ إلا عن معرفة عميقة بالبنى الحضريّة التقليديّة وباقتصادها الداخليّ.

وفضلاً عن هذا، يتعيّن تصوّر الحفاظ على الأحياء [38] التاريخية وإعادة الحياة إليها في علاقة بالسياق الكلي للمدينة. فإذا كان في الإمكان المحافظة على بناية معزولة ذات طابع تاريخي ومعاملتها معاملة المتحف، فإنّ مدينة عتيقة تُؤوي أحيانا مئات الآلاف من السكّان لا يمكن التعامل معها بنفس الطريقة.

ففي هذه الوضعية لا بدّ من تعبئة قوى حيّة وطاقات بشرية لإعادة الحياة للفضاء المعماري ولمنع انحطاطه. وتتمثّل المهمة الأولى التي ينبغي أن يظطلع بها من يضع المخطّط، في خلق توازن بين ترميم البناءات ترميماً وفيّاً، وتكييفها تدريجيّاً للحاجيات الراهنة.

ماذا تفعل اليونسكو لمواجهة هذه الرهانات والتحديات؟

لقد بيّنت السنوات التي تلت الحرب العالميّة الثانية، وجود تغيير في العقليات لا سيّما في أوروبا. فهل هو ناتج عن الكوارث التي سبّبتها الحرب

فأدت إلى وعي البشر بضرورة حفظ تراث هو ثمرة تراكمات تاريخ بعيد، أم هو مجرد وعي بأهميّة "ذاكرة الأمكنة" و"ذاكرة الأشياء"؟

إنّ مشكل قطيعة التوازنات الاجتماعية التقليدية الذي عمّقت خطورته حركة نزوح داخلية قويّة، كان قد حوّل المراكز العمرانية التقليدية إلى "أحياء خزّانة" لبيد العاملة الزهيدة، بينما كانت تنمو مناطق مدن جديدة فتزيد من حدّة التقابل بين ثنائيّة "التقليديّ" و"الحديث".

وبالتالي إنّ عددا كبيرا من سكّان الأحياء القديمة كانوا لا يعيرون أيّ اهتمام لحفظ البناءات التي يعيشون فيها، وبدرجة أقلّ [39] لترميمها، لأنهم لا يملكون وسائل تحقيق ذلك. ويصل بهم الأمر إلى حدّ بخس التراث الذي كانوا يعيشون فيه، بل هم مستعدّون لهجره ما إنّ تسنح لهم فرصة الحصول على مسكن حديث.

ههنا تكمن علّة إحدى الأفكار الرئيسيّة في أيّ سياسة لإعادة تأهيل أو لترميم حيّ تاريخيّ، وهي تتمثّل في تشريك الأهالي المعنيين أكبر قدر ممكن من التشريك. فثمّة فعلا خطر الرفض الذي يهدّد عمليات الحفظ متى أمّلتها نماذج وتصوّرات خارجيّة لا تراعي نمط العيش والثقافة اللتين تختصّ بهما كلّ مدينة تاريخيّة.

وفي هذا النطاق، وزيادة على ما سبق، ثمّة خطّان لا بدّ من تجنّبهما، الأولى تستلهم من نظريات القرن التاسع عشر فتحصر، بشكل شبه دائم، الترميم في المعالم المعزولة، والثانية تتمثّل في اتخاذ المضاربة وسيلة لخلق جيوب بذخ في الأحياء القديمة لغاية سياحيّة قد تجعلها عرضة للتشويه.

عملت منظمة اليونسكو جاهدة منذ أكثر من ستين سنة، على أن تضع حيزَ التطبيق مقارنة تتمثل في الجمع بين ترميم المعالم وإعادة الحياة للمراكز العمرانية التاريخية أثناء الحملات الدولية الهادفة إلى صون التراث الثقافي للإنسانية. فالحملات التي أُطلقت بين الستينات والسبعينات من القرن العشرين ساهمت بالتأكيد في تطوير تصوّر "التراث العالمي الثقافي والطبيعي" الذي وضعته موضع تبجيل اتفاقية اليونسكو لسنة 1972.

فبالنسبة إلى عموم الناس، يرتبط ذكر اسم اليونسكو، دون منازع، بهذه العملية الهامة التي قادتها المنظمة لفائدة التراث الثقافي منذ ستينات القرن الماضي، [40] سواء تعلّق الأمر بإنقاذ معبدي أبو سمبل وفيلة في مصر أو بحماية المراكز التاريخية في البندقية وفلورينسيا بإيطاليا، أو أيضا بترميم معبد بوروبيدير في إندونيسيا، وهذا كلّه على سبيل الذكر لا الحصر.

لقد حظيتُ، طيلة سنوات كثيرة، بتعييني مسؤولاً عن تنسيق هذه الحملات الدولية وأمكنتني أن ألاحظ شغف سكّان المواقع التي تمّ اختيارها في هذه الحملات بإعادة تأهيلها وبثمينها ووعيهم الحقيقي بذلك وإدراكهم لأهمية هذا العنصر وما يمكن أن يجرّ وراءه من نمو اجتماعي واقتصادي.

ولكن للأسف، سنرى، في موضع آخر، النتائج الكارثية التي سببتها النزاعات التي اندلعت في البلدان والمدن التي انطلقت فيها حملات الصون هذه. وتلك كانت حالة المدينة القديمة في صنعاء، حيث تعرّضت منذ نهاية

شهر مارس 2015 لقصف جوِّي وشهدت معارك ألحقت أضرارا فادحة بتراتها الثقافيِّ الثريِّ الفريد.

فمنذ مطلع الثمانينات، وُضع برنامج لحفظ مدينة صنعاء التاريخيَّة وتثمينها، إذ هي من أكثر مدن العالم روعة ومن أشدّها تعرّضا للخطر. وقد دُعِم ذلك بحملة صون دوليّة انطلقت في شهر ديسمبر 1984. وكذا كان شأن شبام مدينة الطين، ذات البيوت الشبيهة بالأبراج الشاهقة والمطلّة على وادي حضرموت والتي أطلق عليها اسم "منهاتن الصحراء".

وحرصا على حفظ شهادة حيّة على الماضي، كانت السلطات اليمنيّة قد بادرت بصون هذه المدن القديمة بإعانة دوليّة. [41] وكانت المهمّة على قدر كبير من الأهميّة وكان الرهان استثنائيًّا. ولكن بتضافر جهود الجميع أمكنت المحافظة على الديناميّة والحيويّة التي يتميِّز بها سكّان هذه المواقع العالية القيمة بقطع النظر عن الندرة النوعيّة للمجموع المعماريِّ والعمراني في كلّ واحد من البلدين.

وفي الواقع، كان الأمر يتعلّق بتحقيق ما كان يبدو في الظاهر أمرا شبيها بالرهان ويتمثّل في حفظ التراث العمرانيِّ وإدماجه في الحياة الحديثة في الآن نفسه. ولكن دون أن نُتَّهم بوضع الأحياء القديمة "تحت قبة بلوريّة" وبتحويل سكانها إلى "سلعة سياحيّة".

أهم حملات الصون (من 1960 إلى 1998)

- | | |
|------|--|
| 1960 | معالم النوبة (أبو سمبل وفيلة في مصر) |
| 1966 | البنديّة وبحيرتها (إيطاليا) |
| 1972 | معبد بوروبيدير (إندونيسيا) |
| 1973 | موقع قرطاج الأثري (تونس) |
| 1974 | موقع موينجودارو (باكستان) |
| 1978 | جزيرة غورية (السينغال) |
| 1979 | معالم وادي كتمندو (النيبال)، والمنتزه التاريخي بشوخوتاي (تايلندا) |
| 1981 | مدينة فاس (المغرب الأقصى)، المدن القديمة في موريتانيا (وادان، شنقيط، تيشيت، ولاتة)،
التراث الثقافيّ لمدينة هويي (فياتنام) |
| 1983 | هافانا (كوبا)، الأحياء التاريخية والمعالم في إسطنبول، وموقع غوريم (تركيا) |
| 1984 | مدينة صنعا القديمة، ومعالم ومواقع وادي حضرموت وتخصيصا مدينة شبام (اليمن) [42] |
| 1985 | معالم باهاربور، فيهارا، باغرهات (بنغلاداش) |
| 1987 | معلم سان فرانسيسكو ليما (بيرو) |
| 1989 | موقع لاليبلا ومعامله (أثيوبيا) |
| 1998 | موقع مدينة صور وما حولها (لبنان) |
| 1998 | هذا تاريخ إطلاق اليونسكو آخر الحملات الدولية لصون التراث الثقافيّ إذ اعتبر كلّ من المجلس التنفيذي والجلسة العامّة أنه قد يوجد فعلا خطر يُنذر بتضخّم هذا الصنف من النشاط الذي يتطلّب مجهودات ضخمة بحثا وتمويلا تتجاوز حدود الميزانيّة. ورغمًا عن ذلك، أبرزت اليونسكو طيلة أكثر من ثلاثين سنة، أهميّة حفظ المدن التاريخية والمواقع الأثريّة القيّمة في العالم. ولأسباب متنوّعة لاقت بعض الحملات نجاحا وإشادة على الصعيد الدولي، وأضحت عناصر مرجعيّة على غرار حملات صيانة مدن البندقيّة وقرطاج وفاس وهافانا وصنعا، بينما لم تعرف حملات أخرى نفس النتائج واستعصى الظفر بالموارد الماليّة الضروريّة لتحقيق ما حُطّط له من صون وتنمية. |

اتفاقية لاهاي لحماية الممتلكات الثقافية في حالة النزاع المسلح

في أعقاب ما خلفته الحرب العالمية الثانية من تدمير للتراث الثقافي، صادقت منظمة اليونسكو بتاريخ 14 ماي/مايو 1954 في لاهاي على أول اتفاقية دولية [43] تنص على حماية الممتلكات الثقافية في حالة النزاع المسلح. وكان ذلك منطلق عملية معيارية طويلة النفس جعلت منظمة اليونسكو تتصدر المشهد الدولي في كل ما له صلة بحماية التراث الثقافي للإنسانية وبثمينه. فالحقيقة الجديدة هي أنّ الحروب الآخذة في التزايد منذ نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، أصبحت تستهدف أكثر فأكثر رموزا للثقافة من أجل القضاء على هوية شعب من الشعوب. فطبيعة النزاعات تغيرت ولم تعد بالأساس مسألة أطراف خارجية متنازعة، بل أضحت مسألة صدمات داخلية تتخذ فيها الأطراف المتحاربة، للأسف، التراث الثقافي هدفا رئيسيا مقصودا.

هذا الصنف من التدمير دفع المجتمع الدولي إلى ردّ الفعل بطريقة أكثر صرامة، مذكرا بهذا التطور الحاصل، من أجل تحديد الآليات التي يمكن أن تستجيب للطلبات المتزايدة في مجال حفظ التراث الذي تلقى، في مثل هذه النزاعات، ضرباتٍ في العمق.

ومثلما أشارت إلى ذلك كريستيان جوهانو-غراديس، "تمّت، بعد مضي قرابة نصف قرن عن اتفاقية سنة 1954، المصادقة على بروتوكول لاهاي

الثاني سنة 1999. فالانخراط غير الكافي في تلك الاتفاقية منذ المصادقة عليها، والمشاكل المرتبطة بتطبيقها، لئن تجنّد له المجتمع الدولي بصورة متواترة، فإنّه لم يحصل أيّ تطوّر من أجل تحسين النصوص القانونيّة وتطبيقها على أرض الواقع. فالحرب التي اندلعت بين إيران والعراق، وغزو العراق للكويت، وما وقع فيما بعد من نزاعات في ما كان يسمّى يوغسلافيا، دفع المجتمع الدولي، في الأخير، إلى الوعي بضرورة البحث عن تحسينات من أجل [44] حماية التراث الثقافيّ حماية أفضل⁹.

وبصفتي مديرا لقسم التراث الثقافي¹⁰، التمتت من الأستاذ بتريك بويلان¹¹ صياغة نصّ لمنظمة اليونسكو ينبثق من اتفاقية لاهاي لسنة 1954.¹² فكان ذلك النصّ قاعدة عمل لفريق الخبراء الحكوميين الذين دعتهم اليونسكو لإعداد صياغة البروتوكول الثاني لاتفاقية لاهاي الذي يرمي إلى سدّ الثغرات الموجودة في تلك الاتفاقية.

وقد كتب زميلي إيتيان كليمان¹³ في شأن اتفاقية لاهاي فقال: "تُبشّر ديباجة اتفاقية لاهاي لسنة 1954 منذ البدء بالروح التي تمت بها صياغة

9 كريستيان جوهانو غراديس، التراث الثقافي المادي واللامادي: أيّ حماية في حالة النزاعات المسلّحة؟، أطروحة في كلية الحقوق بجامعة جنيف، زوربخ-بال، 2013، صص 120-121.

10 بالاتفاق مع زميلتي السيّدة ليندال بروت، مديرة فرع المعايير في هذا القسم.

11 أستاذ بجامعة كولاج لندن وعضو المكتب التنفيذي لإيكوم (المجلس الدولي للمتاحف)

12 باتريك بولان، إعادة نظر في اتفاقية حماية الممتلكات الثقافية في حالة النزاع المسلّح المؤرخة في 14 ماي/مايو 1954، اليونسكو، باريس 1993.

13 رجل قانون وعضو فرع المعايير في قسم التراث الثقافيّ.

هذه الأداة: الأضرار التي تلحق بممتلكات ثقافية يملكها أي شعب كان، تمسّ التراث الثقافي الذي تملكه الإنسانية جمعاء، فكل شعب يساهم [45] بنصيبه في حماية الثقافة العالمية (...). وحتى تكون هذه الحماية مجدية، يتمّ تنظيمها منذ وقت السلم باتخاذ التدابير اللازمة، سواء أكانت وطنية أم دولية".

تتضمّن الديباجة إذن تصوّراً للمسؤوليّة الجماعيّة في صون التراث الثقافيّ، وهو أمر سيكون موجوداً ضمن تعليمات اليونسكو اللاحقة وكذلك في بعض الأدوات التي صادقت عليها هيئات أخرى. وما أقدمت عليه اليونسكو من وضع لمعايير دوليّة، تُرجم في السنوات الخمس والعشرين التي تلت، إلى مصادقة على ثلاث اتفاقيات وعشر توصيات. وهذه الاتفاقية تشكّل، بأحكام تنفيذها وبروتوكولها، قانون حماية للممتلكات الثقافيّة، يشمل في الآن نفسه حماية الممتلكات الثابتة والممتلكات المنقولة"¹⁴.

وعيّ رأى النور منذ العصور القديمة

خلافاً لبعض الأفكار المسلمّة، ليست هذه الإرادة في حماية التراث المشترك إلاّ امتداداً لإرادة ظهرت منذ العصور القديمة، بما في ذلك عصر الفتوحات الإسلاميّة. ويشهد لنا التاريخ على أنّ تدابير أُتخذت منذ أقدم الأحقاب للمحافظة على دور العبادة وعلى الأعمال الفنيّة في العالم المعروف آنذاك.

14 Etienne Clément, "Le concept de responsabilité collective de la communauté internationale pour la protection des biens culturels dans les conventions et recommandations de l'Unesco", *Revue belge de droit international* 1993/2 — Editions Bruylant, Bruxelles, pp538-539.

[46] وعلى هذا النحو، ومثلما ذكّرنا بذلك فرانسوا بونيون، "في يونان المدن، كان مجموع المعابد الهلنستية الكبرى مثل المبي وديلوس ودالف ودودون، في عداد المواقع المقدّسة التي لا تنتهك حرمتها: فكان من المحظور أن تُرتكب فيها أعمال عنف، بل إنّ الأعداء المهزومين يجدون فيها ملاذا لهم. وهذا هو أصل حقّ اللجوء. وفي أوروبا القرون الوسطى كانت أعراف الشهامة والفروسيّة تحمي الكنائس والأديرة".

وتوجد في الإسلام وصايا عديدة تدعو إلى احترام دور العبادة المسيحية واليهودية. ويمكن أن نذكّر بما أمر به الصحابي أبو بكر، أوّل الخلفاء الراشدين وصهر الرسول محمّد صلى الله عليه وسلّم، جُنْدَه عند فتح الشام والعراق، حيث قال: "وسوف تمرّون بأقوام فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له".

وكذا الشأن في كتاب الخراج لقاضي القضاة أبي يوسف الذي ذكر في شأن مسيحيي نجران: "ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمّد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملّتهم وغائبهم وشاهدتهم وعشيرتهم وبيعهم وكلّ ما تحت أيدهم من قليل أو كثير"¹⁵. ولكن من العسير اقتلاع الأفكار المسلمة، ومن دَوّر اليونسكو أيضا أن تذكّر [47] ببعض القيم التي

15 أبو يوسف، كتاب الخراج، ص72، فصل قصّة نجران وأهلها.
ذكر الشاهد فرانسوا بوغنيون في اجتماع خمسينيّة اتفاقية لاهاي لسنة 1954، بالقاهرة في 14 فيفري/فبراير 2004.
François Bugnion, La genèse de la protection juridique des biens culturels en cas de conflit armé dans le cadre du droit international humanitaire conventionnel et coutumier.

صنعت الحضارات الكبرى عبر حفظ التراث المشترك من إسكندر المقدوني إلى الفتح الإسلامي على سبيل الذكر لا الحصر.

عملية معيارية على الصعيد العالمي

مفهوم التراث الثقافي أصبح إذن، مرور الزمن، واقعا تزداد عمليته حمايته تعقداً أكثر فأكثر وبالتالي هي أشد هشاشة وتهديداً، مما يجعلنا في المستقبل، أكثر وعياً بالدور الذي ينهض به في حياة المجتمعات وتطورها ولا سيما بما يحمله من شحنة ذات صلة بالهوية وشحنة رمزية كشفت عنها آخر عمليات تدمير حدثت في سوريا وتمبكتو بعد تلك التي حصلت في البوسنة أو أفغانستان. وطيلة ستة عقود، توجّهت عناية الأنشطة المعيارية لليونسكو إلى حماية هذا التراث المشترك في معناه الأوسع، عبر صياغة اتفاقيات¹⁶ تمثل اليوم إطاراً تشريعياً منسجماً ومتكاملاً:

صياغة هذه الاتفاقيات دفعت أيضاً إلى التفكير محلياً في الطريقة التي تردّ بها كلّ دولة الفعل لمواجهة تطوّر أشكال إدارة المؤسسات المسؤولة عن حماية التراث الثقافي وتثمينه أكان منقولاً أم ثابتاً.

وتبعاً لذلك، عرفت المؤسسات المتحفية والمتاحف بجميع اختصاصاتها، تطوّراً سريعاً جداً، ويمكن للمرء أن يلاحظ في البلدان التي استرجعت استقلالها،

16 زيادة على هذه الاتفاقيات، صاغ الخبراء الحكوميون إحدى عشرة توصية وإعلاناً وتمت المصادقة عليها في مؤتمرات اليونسكو العامّة.

[48] ميلا إلى تعويض المتاحف المنشأة طيلة الفترة الاستعمارية، مؤسّسات متحفية جديدة غالبا ما تتطلّب إنشاء متاحف وطنية، حيث لم يكن يوجد غير متاحف مختصة في علم الآثار أو الفنون أو الإثنوغرافيا أو علوم الطبيعة. وقد تمّ تشريكي، أنا شخصيا، في تنفيذ مشاريع عديدة تكفّلت بها اليونسكو من أجل إنشاء متاحف أو إعادة تأهيلها¹⁷. فقد تابعت، بمعية زملائي في المركز الدولي لدراسة صون الممتلكات الثقافية وترميمها (إيكروم) وفي المجلس الدولي للمتاحف (إيكوم)، التحويلات والتطوّرات في المقاربة المتحفية وما أفضت إليه من تجديد في طريقة تصوّر المتحف وفي الدور المجدّد الذي يمكن أن ينهض به داخل المجتمع.

قاست المتاحف في مناطق النزاعات، شأنها شأن المعالم والمواقع الأمرين. وسأعرض في الصفحات التالية بعض الأمثلة الصارخة على ذلك ولا سيما في لبنان حيث حُرّب المتحف الوطني ببيروت تخريبا تامًا، أو متحف كابول الذي فقد سقفه وأبوابه ونوافذه... ونفس الكارثة حصلت في سرايفو، ولا نغفل عن الوضعية الكارثية التي وصلت إليها متاحف العراق بما شهدته من سرقة لم يُعرف لها مثيل حيث شملت أكثر من خمس عشرة قطعة خلال غزو القوات الأمريكية لبغداد في أبريل/أبريل 2003.

17 نذكر على سبيل المثال المتحف الوطني بطرابلس ليبيا، المتحف القومي للحضارة المصرية بالقاهرة، المتحف النووي بأسوان، مؤسسة الملك فيصل في المملكة العربية السعودية، المتحف الوطني بعمّان، متحف الفنون والعبادات الشعبية بهانوي، المتحف الأنثروبولوجي لموقع الإنسان ببيكين.

كتب جيرى طومان فقال: "الحرب عدوُّ الإنسان، وهي كذلك عدوُّ لأحسن ما صنعتها أيادي الإنسان [49] من فنِّ وثقافة ومعالم، أي مجموع التراث التاريخي والثقافي. وعلى امتداد القرون، أُتلفت تحفٌ فنيّة كثيرة لن نعرف ماهيتها أبدا ولن نراها مرّة أخرى إلى الأبد"¹⁸.

في عمليّة إعادة البناء بعد فترة حرب، يُنظر أكثر فأكثر إلى عملية حماية التراث الثقافيّ باعتبارها أولويّة. "فأكبر رهان بالنسبة إلى اليونسكو، على ما صرّح به مديرها العامّ كويشيرو ماتسورا، هو العمل على أن تفهم السلطات العموميّة والقطاع الخاصّ والمجتمع المدنيّ جميعا، أنّ التراث الثقافيّ ليس وسيلة سلّم وتصالح فقط، بل هو عامل تنمية أيضا".

هذا الخطاب الذي يعود إلى سنة 2002 ألقاه أثناء الجلسة العامّة للأمم المتحدة بنيويورك بمناسبة انطلاق سنة الأمم المتحدة للتراث الثقافيّ. وبعد مرور خمسة عشر عاما يظلّ هذا القول صالحا دائما لوقت الراهن.

الاتفاقيات الدوليّة السّت لحماية التراث

اتفاقيّة حماية الممتلكات الثقافيّة في حالة نزاع مسلّح.	1954
اتفاقيّة تدابير [50] حظر ومنع تصدير واستيراد ونقل ملكيّة الممتلكات الثقافيّة بطرق غير شرعيّة.	1970
اتفاقيّة حماية التراث العالميّ الثقافيّ والطبيعيّ.	1972

18 Jiri Toman, "La protection des biens culturels en cas de conflit armé, Commentaire de la convention de La Haye du 14 mai 1954", Paris-UNESCO, 1994, p1.

2001	اتفاقية حماية التراث الثقافي المغمور بالمياه.
2003	اتفاقية صون التراث العالمي الثقافي اللامادي
2005	اتفاقية حماية وتعزيز تنوع أشكال التعبير الثقافي.

وعيا منها بالتحديات التي واجهها التراث الثقافي، وضعت اليونسكو هذه المدونة من النصوص المعيارية التي تمّت المصادقة عليها بأغلبية كبيرة. ويتمثل الهدف الرئيسي منها في أن تضع على ذمة كلّ دول العالم، زيادةً على الجانب العمليّ، الحجج التشريعية والأسس القانونية من أجل حماية الذاكرة الإنسانية وحفظها أكانت من النوع الماديّ أم اللاماديّ.

القسم الثاني ^[51]

[53] التدمير المكثف الناتج عن النزاعات التي اندلعت في نهاية القرن العشرين

لئن فقدت النزاعات الطابعَ المدمرَ الذي كان للحربين العالميتين فإنها ظلتَ تندلعَ محلياً منذ ثلاثين عاماً تقريباً: فمن الحرب بين العراق وإيران، والحرب الأهلية في لبنان، وتفكك يوغسلافيا، ومروراً بما يعرف "بالربيع العربي" في سنتي 2011-2012 وما تلاه من شعارات دموية رُفعت في مصر أو العراق أو ليبيا أو تونس أو اليمن، ووصولاً إلى زمن صدور هذا الكتاب نُهبت، وما زالت تُنهب، كنوز لا تحصى ولا تُعدّ.

تدمير رموز الذاكرة: سلاح جديد للتواصل في عصر الأنترنت

لهذه النزاعات خاصية مشتركة تتمثل في تعمّد المجموعات المتطرّفة والإرهابية تدمير رموز الذاكرة والهوية الثقافية لهذه الشعوب. فهذه النزاعات تمثّل أيضاً كارثة على المدنيين من الأهالي وعلى محيطهم وتراثهم الثقافي المادي واللامادي.

وهذا ما كانت أكّدت عليه كريستيان جوهانو غراديس¹⁹: [54] "من المؤكّد أنّ الممتلكات الثقافية محمية حماية واسعة بقانون النزاعات المسلحة،

19 التراث الثقافي المادي واللامادي: أي حماية في حالة النزاعات المسلحة؟، أطروحة في كلية الحقوق بجامعة جينيف، زوريخ- بال، 2013، ص711.

إلا أنّ تدميرها في مثل هذه النزاعات، لئن كان بسبب ما ترمز إليه من ثقافة معادية، فإنّه غالبا ما يهدف كذلك إلى تدمير ما تحمله من تاريخ ودلالات، وكذا الشأن في بعض الحالات، بالنسبة إلى تجليات التراث الثقافي لهذه الشعوب، اللاماديّ منه أو الروحيّ، الذي يمكن أن تنطويّ عليها هذه المعالم".

منذ أكثر من أربع سنوات، اندلعت الحرب الأهليّة في سوريا، وللأسف فإنّ مشاهد التدمير المُمنهج في مدن حلب وحمص ودرعا وكذلك في الأحياء الواقعة على أطراف دمشق ودير الزور لا تقلّ بشاعة عن صور أحياء مدن مدمّرة بالكامل أثناء الحرب العالميّة الثانية.

ومن الآن فصاعدا، يضاف إلى هذه الأضرار الماديّة، توظيف التنظيمات الإرهابيّة لعمليات التدمير هذه توظيفا إعلاميا مدروسا وواسعا، مثلما حصل مع تنظيمات القاعدة وداعش وأنصار الدين وجبهة النصرة وحتى "الدولة الإسلاميّة" التي أعلنت عن قيامها من تلقاء نفسها.

فهذه التنظيمات الإرهابية اكتسبت قدرة على التواصل عن بعد عبر الفيديو وعلى استخدامه في تصوير أعمال "التطهير الثقافي" الدنيئة وتصفية الضحايا الأبرياء، بغاية إنشاء استراتيجية رعب تجد لنفسها حجة دينيّة تبرّرها، مثلما فعلت ذلك طالبان من قبل في أفغانستان بين 1998 و2001.

انطلاقا من تجربة ذاتية عشتها بين 1982 و2015، في مقرّ منظمّة اليونسكو بباريس، ثمّ بالمركز الدولي لدراسة صون الممتلكات الثقافية وترميمها في روما، وأخيرا في المركز الإقليمي العربي للتراث العالمي في البحرين،

أرجو أن أقدم للقارئ بعض [55] النماذج المعبرة عن تتالي النزاعات التي تهدف إلى تدمير مآثر الماضي وعن الطريقة التي تمّ بها ردّ الفعل داخل اليونسكو من أجل الحدّ من تبعاتها الكارثيّة.

لم يكفّ المدراء العامون²⁰ الذين تمّ تعيينهم على رأس منظمة اليونسكو، عن الإدانة الشديدة لكلّ النزاعات التي يكون الأهالي أوّل ضحاياها، وعن دعوة المجتمع الدوليّ إلى مدّ يد المساعدة من أجل صون تراث ثقافي مشترك بين مجمل البشريّة.

سأكتفي، في ما سأذكر، بتقديم المهمة التي كلفت بها منذ أكثر من أربعين سنة، وباستخلاص بعض العبر في شأن الاستراتيجيات التي تمّ تبنيها، وأثرها في إعادة تأهيل التراث الثقافيّ وحمايته في البلدان التي تعيش وضعية تالية لنزاعات. أنا على وعي بالطابع الشخصيّ لشهادتيّ وبما قد يشوبها من نقص، ولكنّي أعتقد أنّها يمكن أن تساعد على السير قدّما في تثمين دور اليونسكو في مواجهة تدمير التراث الثقافيّ في مناطق النزاع التي عرفها العالم ومازال يعرفها منذ أكثر من ثلاثين سنة بشكل متزايد مذهل.

ردود فعل اليونسكو

تتمثّل المقاربة التي تبنتها اليونسكو، إلى حدّ اليوم، [56] لمواجهة وضعيات النزاع هذه، في الدعوة إلى وعي دوليّ، معوّلة في ذلك على تعاون

20 السيّد أمادو مهتار مبيو (1974-1987)، ثم السيّد فيديريكو مايور زاراقوزا (1987-1999)، ثم السيّد كواشيرو ماتسورا (1999-2009)، وأخيرا السيّد إيرينا بوكوفا منذ 2009.

الدول الأعضاء²¹ في اليونسكو وعلى معاضدتهم، إذ أنّ أغلب هذه الدول صادقت على الاتفاقيات الدولية الستّ المذكورة آنفا والتي تُعتمد، مستقبلا، إطارا تشريعيًا عامًا لصون التراث الثقافيّ وتثمينه.

وقد ذكّر السيّد كواشيرو ماتسورا مدير عامّ منظمة اليونسكو، في سنة 2007 بأنّ "اليونسكو، بعد مرور ستين سنة على وجودها، وضعت مجموعة من الوسائل المعيارية الدولية من أجل حفظ التنوّع الإبداعي في العالم. وتشمل مختلف الاتفاقيات والإعلانات والتوصيات كلّ مظاهر التراث الثقافيّ الماديّ واللاماديّ: من متاحف وقطع أثرية وملكيّة فكريّة والتعبيرات الثقافية المعاصرة للتقاليد الحيّة.

وتضبطّ هذه الوسائل كذلك قواعد ترمي إلى حماية التراث زمن النزاعات وإلى مقاومة التصدير غير الشرعيّ للممتلكات الثقافية (...). وزيادة على ذلك تمثّل ثلاثٌ منها، أي اتفاقية حماية التراث العالميّ الثقافي والطبيعيّ (1972)، واتفاقية صون التراث العالميّ الثقافيّ اللاماديّ (2003)، واتفاقية حماية وتعزيز تنوّع أشكال التعبير الثقافيّ (2005)، قاعدة مشتركة لصون وتعزيز هذا العنصر الأساسيّ من التنمية المستدامة المتمثّل في التنوّع الثقافيّ"²².

21 عددها 195 يضاف إليها تسعة أعضاء مشاركين.

22 كواشيرو ماتسورا، في تصدير أحد منشورات منظمة اليونسكو عنوانه "التراث العالمي، تحديات للألفية" باريس، 2007، ص7.

[57] وبدعم من المجتمع الدوليّ ومؤسساتٍ مختصة²³، حرص المدراء العامون الذين تداولوا على اليونسكو، على ضمان التنسيق الفعليّ بين الجهود [المبذولة]، بتحديد استراتيجيات عملٍ وتدخلٍ متى سمحت الظروف الأمنيّة بوضعها حيّز التطبيق، بغاية إنقاذ ما يمكن إنقاذه من التراث الثقافيّ المهّدّد بالخطر، ثمّ مساعدة الدول المعنيّة على تنفيذ برنامج إعادة التأهيل والترميم. ومّا إن وقع انتدائي سنة 1982، للعمل في قسم التراث الثقافيّ باليونسكو²⁴، حتّى كنت شاهدا على عدد من النزاعات التي زعزت مناطق مختلفة من العالم، أكانت في جنوب شرق أوروبا أم في آسيا أم في الشرق الأوسط بالخصوص.

الحرب العراقيّة الإيرانيّة

أول مهمّة لليونسكو شاركتُ فيها كانت في العراق وإيران معا. وكان الهدف منها دراسة ما خلفه تبادل القصف الجويّ والقصف بصواريخ سكود وبالقذائف بين البلدين، طيلة حرب الخليج الأولى وإلى حدود حرب الخليج الثانية بين العراق والكويت، من أثر وضرر بالمواقع والمعالم التاريخيّة²⁵.

23 نذكر منها المعهد الدولي لتوحيد القانون الخاصّ (UNIDROIT)، وأنتربول، والمركز الدولي لدراسة صون الممتلكات الثقافيّة وترميمها (ICROM)، والمجلس الدولي للآثار والمواقع (ICOMOS)، والمجلس الدولي للمتاحف (ICOM)، الاتحاد الدوليّ لجمعيات المكتبيين (IFLA)، والمجلس الدولي للأرشيف (ICA)، والاتحاد الدولي لمهندسي المناظر الطبيعيّة (IIC)، ومؤسسة المعالم العالميّة (WMF)، واللجنة الدوليّة للدّرع الأزرق (ICBS)، و"أوروبا نوسترا"، ومؤسسة الأمير كلاوس، وغيرها...

24 توليت في ما بعد إدارتها منذ سنة 1992.

25 مقتطف من موسوعة ويكيبيديا: الحرب بين إيران والعراق: "حرب الخليج الثانية نزاع واجه فيه العراق زمن حكم صدام حسين، تحالفا ضمّ أربعة وثلاثين بلدا دعمته منظمة الأمم المتحدة، وكان هذا بين سنتي 1990 و1991. وتنزّل هذه الحرب ضمن سلسلة نزاعات وقعت في منطقة الخليج انطلاقا من 1980: وتعني حرب الخليج الأولى، عادة، الحرب الإيرانيّة العراقيّة 1980-1988. أمّا حرب الخليج الثالثة فتحيل على الحرب التي شنتها الولايات المتحدة الأمريكيّة والمملكة المتحدة وعددٌ آخر من دول التحالف على العراق".

[58] فمن شهر سبتمبر 1980 إلى شهر أوت/أغسطس 1988 ألحق النزاعُ بين العراق وإيران الضرر بالبرِّ والبحر ولم يخرج أيُّ من البلدين منتصرا في هذا النزاع القاتل الدامي الذي خَلَّف أكثر من 680 ألف قتيل وقرابة مليون ونصف من الجرحى ومبتوري الأعضاء.

وقد تمكَّنت بعثة اليونسكو التي كان يترأسها السيّد العيَّاشي ياكراً²⁶، من أن تعين أنّ كلاً من العراق وإيران كانا منهيكين في نهاية النزاع. وقد لحقت بينيتيهما العسكريَّة والمدنيَّة أضرار جسيمة زيادة على الخسائر البشريَّة التي تُعدُّ بمئات الآلاف. غير أنّ المرافق الإداريَّة ظلَّت تشتغل من هذا الطرف وذلك.

وقد تسنَّت لنا زيارة العاصمتين بغداد وطهران، بل والمدن الحدوديَّة الواقعة جنوب البلدين ولا سيَّما البصرة في العراق وخرمشهر في إيران اللتين تضرَّرتا ضرراً جسيماً. وأمکن للبعثة أن تعين الإصابات التي ألحقتها القذائف الضخمة ببعض المعالم في العاصمة العراقيَّة غير أنّ الأضرار الأكثر جسامة تمَّت معاينتها في البصرة حيث هُدم الجامع الكبير وعديد البيوت التقليديَّة في مركزها التاريخيِّ.

[59] ففي كلِّ مكان على طول الحدود مع إيران، من محافظة ديالى، ولا سيما مدينة مندلي، إلى شبه جزيرة الفاو، كانت عشرات المساكن التقليديَّة، وعدد من المساجد والأضرحة قد لحقها التلُّف.

26 وزير جزائري سابق وممثل شخصي لمدير عام اليونسكو فيديريكو مايور.

وعلى سبيل الطرفة، ذكر لنا قسّ الكنيسة الرئيسيّة لمركز البصرة مفتخرًا، أنّ كنيسته أخذت ملاذاً لسكّان الجوار أكانوا من المسيحيين أم المسلمين، وأنّها، بمعجزة إلهيّة، لم تُصب قطّ بأذى طيلة سنوات الحرب الثمانيّة.

وبعد ذلك توجّهت البعثة إلى إيران للالتقاء بالسلطات الرسميّة في طهران التي لم يُصب فيها أيّ معلم تاريخيّ بالصواريخ الباليستيّة. أمّا المواقع التي لحقتها أضرار جسيمة فكان أغلبها في محافظة خوزستان وفي الجزء الجنوبي الغربي من البلاد حيث تحوّلت مدن مثل الأهواز ودرزفول وخرمشهر إلى خراب. وهناك أيضاً لم تسلم البناءات التقليديّة الخاصّة والعموميّة، زيادة على المنشآت الصناعيّة الحديثة، من القصف العشوائيّ بالقنابل وقذائف الهاون والصواريخ.

وهذه المأموريّة، التي تهدف إلى تقييم الأضرار الناجمة عن إحدى آخر الحروب الكلاسيكيّة التي تمت فيها المواجهة بين بلدين وقّعا على اتفاقيّة لاهاي لسنة 1954،²⁷ ولا أحد منهما احترامها فعليّاً، كانت ستعتمد قاعدة للتوصيات التي تخصّ إطلاق مشاريع إعادة تأهيل في مدينة البصرة القديمة وفي مدينة أصبهان التاريخيّة حيث ألحق صاروخ أضراراً بجزء من جامعها الكبير.

وقد اعتبرت مسألة تكوين الإطارات المكلفين [60] بحفظ التراث الثقافيّ أولويّة قصوى من الجانب العراقي والجانب الإيراني على حدّ سواء. وبالتالي

27 صادقت إيران على اتفاقيّة لاهاي لليونسكو سنة 1959، والعراق سنة 1967.

فإنَّ قسم التراث الثقافيّ في منظمّة اليونسكو انطلق في البحث عن أرصدة ماليةٍ إضافيّةٍ للميزانيّة تمكّن من الاستجابة لاحتياجات البلديين.

فبالنسبة إلى العراق، لم يمكّن هذا المجهود المبذول من دفع أنشطة التكوين في المركز الإقليمي العربي للممتلكات الثقافية²⁸ إلاّ مدّة سنة واحدة. وهذا يعطي فكرة عن ضعف وزن الثقافة، ولا سيما إعادة بناء المؤسّسات الثقافيّة، مقارنة بما ترصده البلدان للحرب وبالتالي لهدم تلك المؤسّسات. وبالفعل، فإنّ، حرب الخليج الثانية، التي ختمت بعملية عسكريّة أطلق عليها اسم "عاصفة الصحراء"، أوقفت كلّ تعاون مع العراق في مجال التراث الثقافيّ.

ولم يمكّن الحظر الذي قرّضته الأمم المتحدة على هذا البلد، من تجديد الاتصال بالزملاء في قسم الآثار بالعراق، إلاّ في شهر سبتمبر 1999. فما عدا البعثات ذات الطابع الإنساني، لم يكن يُسمح بأيّ بعثة أخرى. وقد اقتضى الأمر محادثات مطوّلة مع السيّد إقبال رزا²⁹ حتى يتسنى لبعثة من قسم التراث الثقافيّ السفر إلى العراق. وسأذكر في موضع لاحق نتائج هذه المهمّة.

أمّا في إيران، فالاتصالات تمّت على أساس اتفاق وقّعته، في شيء من التحفّظ، منظمّة اليونسكو بمعيّة وزير الثقافة. وأطلق مشروع أوّل واسع النطاق [61] من أجل ترميم زقورة شوغا زنبيل³⁰. ففي ستوكهولم سنة 1988

28 أنشئ في بغداد على أساس اتفاق بين اليونسكو والسلطات العراقية.

29 المستشار الخاص لكوفي أنان الأمين العام للأمم المتحدة.

30 موقع مُدرج بقائمة التراث العالمي في 1979. وتمّ تمويل المشروع بالتمويلات المرصودة من اليابان في منظمة اليونسكو لصون التراث الثقافيّ للإنسانيّة.

وهماسبة ندوة "الثقافة والتنمية" التي نظّمها اليونسكو ودولة السويد، أمكنني عقد جلسة عمل مع السيّد علي لاريجاني³¹ الشخصية المعروفة في الثورة الإيرانيّة.

ونذكر، على سبيل الطرفة، أنّ لاريجاني استقبله عند مدخل البناية التي تعقد فيها الندوة، المعارضون الإيرانيون برمي البيض! وقد عبّر لي، في البداية، عن تردّده في استقبال خبراء أجنب قد تكون لهم أنشطة غير متطابقة مع الخطّ السياسيّ لبلده.

ولكنني طمأنته حين فسّرت له أنّ المشروع ذو طابع علميٍّ. وعلى إثر هذه المحادثة، أدّيت مأموريّتي الثانية في إيران من أجل إطلاق مشروع إعادة تأهيل زقورة شوغا زنبيل الشهيرة بتنظيم ورشة تكوين في مجال ترميم المعمار المبني بالطّين.

"الموقع الحالي لشوغا زنبيل يوافق موقع مدينة دور أنتاش العتيقة التي تشرف على مجرى نهر آب ادز. وقد أُسّست لتكون عاصمة دينيّة في عهد مملكة إيلام في موقع يوجد في منتصف الطريق بين أنشان وسوس. وقد قام رومان غيرشمان ما بين 1951 و1962 بعملية استكشاف كاملة للموقع، وهو يتضمّن الزقورة الأحسن حفظا والأكبر حجما [62] في بلاد الرافدين. في المنطلق، كان المعبد الذي يقع في الوسط، معلما مربّع الشكل منذورا للإله السومري إنشوشيناك. ثمّ أُجريت على المعبد، بعد ذلك، تحويرات ليصبح

31 وزير الثقافة والإرشاد الإسلامي في إيران آنذاك.

زقورة تمثّل الطابق الأول منه. أمّا الكتلة السميكة للطوابق الأربعة الأخرى فتغطّي حينئذ كامل مساحة الباحة المركزية. أمّا اليوم فلم تعد الزقورة تتجاوز خمسة وعشرين مترا لأنّ طابقيها العلويين اللذين كانا يبلغ ارتفاعهما ستين مترا تمّ هدمهما".³²

مشروع شوغا زنبيل تمّت أشغاله بنجاح في سنة 2002 بتنسيق من المحافظ الإيرانيّ رسول فتندوست وزميلي كريستيان مانهارت ونال رضا السلطات الإيرانيّة ودولة اليابان التي تكفّلت بتمويل المشروع إلى حدود مليون دولار.

قصف مدينة دوبرفنيك التاريخية

أحد التدخلات المسلحة الأولى التي اتخذت هدفا لها موقعا من مواقع التراث العالمي، حدث تحديدا في شهر ديسمبر 1991 واستهدف تحديدا، مدينة دوبرفنيك التاريخية. وقد مثّل هذا بداية نزاع استمرّ أكثر من أربعين سنة وأدّى إلى تفكّك يوغسلافيا.

"منذ الهجمات الأولى على المدينة، تعدّدت النداءات الداعية إلى إيقاف الخراب، من جميع مناطق العالم، بدءا من دعوة صدرت عن المدير العام لمنظمة اليونسكو³³ ومن تدخلات منظمات ثقافية شتى من كلّ العالم ومرورا بالتحذيرات الصادرة عن ممثلي [63] السلطات الكرواتية. ولكن لا شيء حال

32 مقتطف من وثيقة مركز التراث العالمي لليونسكو.

33 فيديريكو مايوور.

دون تدمير هذه المدينة التاريخية ذات القيمة الكونية والتي تنطبق على كلِّ بناء فيها بنود اتفاقية لاهاي"، هذا ما كان كتبه فرديند ميدارا³⁴ سنة 1993. ومنذ بداية العدوان، كان ممثلون عن منظمة اليونسكو قد حاولوا ردّ الفعل لمواجهة ما تتعرّض له دوبرفنيك الضحيّة، فساهموا في صياغة خطة عمل وفي تنسيق عمليات الصون³⁵. كانت السلطات الرسميّة في يوغسلافيا قد بادرت بنفي وجود قصف للمدينة، إلّا أنّ انتفاضة الرأي العام العالمي وردّة الفعل العنيفة للمدير العامّ الذي أرسل على عين المكان زميلين تولّيّا جلب أجزاء من القذائف، والتقاط صور توثّق للتدمير، مثّلت حججا دامغة ضدّ الجيش الصربيّ.

"في دوبرفنيك، لا بدّ من التأكيد على خصوصيات الموقع التي توضّح لنا بعض عناصره خطة المهاجمين. فلمّا كانت المدينة تقع في مضيق بين جبل وجرف وتحاصرها الأسوار فإنّها مَوْغلة في البحر. وتزيد كثافة بناءاتها من الوحدة التي تختصّ بها نواتها العمرانيّة. فكّل معمارها المبنيّ بالحجر تحتضنه إذن طوبوغرافيا على شكل حوض. ومجموع السقوف البارزة تبدو للعيان من أماكن مختلفة. هذا الإرث وما في دواخله من كنوز هو الذي استهدفته المدفعية الثقيلة"³⁶.

34 مدير معهد حماية المعالم الثقافيّة في جمهورية كرواتيا.

35 فرديند ميدارا في ديباجة وثيقة طبعتها ونشرتها منظمة اليونسكو في 1993 بعنوان "دوبرفنيك، 1991-1992".

36 Hélène Legendre-De Koninck, "Dubrovnik, L'urgence de reconstruire", dans *Vie des arts*, Vol.38, n°151, page 52.

كان وابل من القذائف ينهال على مدينة ذات رمزيّة: [64] ودُكرت وثيقة اليونسكو بأنّ "ازدهارها المرتبط بازدهار البندقية، أثرى شوارعها وساحاتها بصروح ثمينة: كنائس، وأديرة، وقصور... وآفاقها الحضريّة المتميّزة بجمال استثنائيّ، شأنها شأن الموقع ذاته الذي يبدو متناغما مع البحر، هي التي برّرت إدراجها في قائمة التراث العالميّ".

ومنذ ذلك الوقت، اتخذت لجنة التراث العالمي، المجتمعة آنذاك في تونس برئاسة عالم الآثار عزّ الدين باش شاوش،³⁷ لأوّل مرّة في تاريخها، ودون موافقة الوفد اليوغسلافيّ، قرارَ إدراج مدينة دوبرفنيك التاريخيّة في قائمة التراث العالميّ المعرّض للخطر.

وبعد ذلك، زرت مدينة دوبرفنيك صحبة جيزال هيفارت، الخبيرة الفرنسية المختصّة في حفظ الحجارة والتي برهنت على تميّزها خاصّة أثناء الحملة الدولية لحماية موقع بوروبودور في إندونيسيا. وتمّ الاتفاق مع السلطات البلديّة على الانطلاق في عملية أولى عاجلة تعنى بترميم سقوف الكنائس والأديرة التي أصابها القذائف.

كانت اليونسكو قد فتحت تمويل طوارئ من أجل تقديم طلبية لدى شركة مختصّة في صناعة القرميد التقليديّ كائنة بجنوب فرنسا، قبلت صنعه بمميزات قريبة قدر الإمكان من نوعيّة قرميد كرواتيا³⁸. وكان إرسال القرميد

37 مدير عامّ المعهد القومي للآثار والفنون، تونس.

38 في البداية قدّمت لنا انتقادات بسبب لون القرميد الذي لم يكن مطابقا تماما للون القرميد الأصلي، ولكن بعد بضع سنوات ومهمفعول العوامل الجويّة لم يعد فارق اللون قابلا للملاحظة.

بحرا بالسفن [65] عمليّةً على قدر من المجازفة لا يصدّق، بسبب صعوبة الوصول إلى دوبرفنيك التي أصبحت منطقة خطرة. ولكن في الأخير تمّ تسليم القرميد وانطلقت أشغال الترميم.

هذا التدخّل الأول العاجل الذي تمّ في إطار خطّة صاغتها اليونسكو بالتعاون مع الأخصائيين الكرواتيين من أجل إعادة تأهيل مدينة دوبرفنيك، جعل رئيس بلديتها يتوجّ عملنا بإسناد صفة "المواطن الشرفي" للمدينة إلى وإلى جيزال تكريما لنا ولبعثات اليونسكو من خلالنا.

مأموريّة في بلغراد وفوكوفار

في بداية سنة 1992، كان من المفروض أن أعود إلى هذه المنطقة بناء على نداء من السلطات الكرواتيّة التي عبّرت عن انشغالها بعد أن بلغ إلى علمها أنّ متحف مدينة فوكوفار، التي تضرّرت أشدّ الضرر من النزاع واحتلّها الجيش الصربيّ، أُفرغ ممّا فيه من مجموعات وتمّ نقلها إلى نوفي ساد وإلى المتحف الوطني ببلغراد. وعبّرت سلطات بلغراد، من جهتها، عن رغبتها في أن تنتقل بعثة إلى فوكوفار.

ويوم 12 فيفري/فبراير 1992، أُستقبلت إذن في بلغراد في مقرّ وزارة الشؤون الخارجيّة من قبل سفير يوغسلافيا الأسبق في اليونسكو³⁹ ثمّ في مقرّ وزارة الثقافة حيث التقيت بنائبي الوزير⁴⁰ وفي الأخير بمقرّ برنامج الأمم

39 السيد سيفانوفيتش.

40 السيّد جاسنا جانيسيجيفتش والسيد رادومير بيجينيزيتش.

المتحدة للتنمية⁴¹ ومركز الإعلام للأمم المتحدة. وعبر جميع من التقيت بهم عن أملهم في أن أنتقل على جناح السرعة إلى فوكوفار لمعاينة حجم الأضرار.

[66] وتمكّنتُ فعلا من زيارة المدينة مصحوبا بمدير معهد بلغراد لحماية المعالم التاريخية⁴². لقد كانت فوكوفار، عاصمة سلوفينيا، شبه مدمّرة نتيجة المعارك الطاحنة التي دارت بين الصربيين والكرواتيين. وقد ذكر لي رئيس بلدية المدينة⁴³ أنه لم يبق من سكّانها إلا الخمس، وقد كانت قبل الحرب تضمّ أكثر من خمسين ألف نسمة.

لم تكن أهميّة فوكوفار راجعة فقط إلى كونها تقع في مَجْمَع نهري الدانوب وفوكا، بل إلى هندستها المعمارية الباروكية المميّزة لمدينة ريفيّة صغيرة. ولكن من جهة أخرى، أكتشف، قريبا من المدينة، موقع هامّ يعود إلى ما قبل التاريخ. والقيمة الاستراتيجية لهذا الموقع على ضفّة نهر الدانوب، هي التي تبرز إنشاء المدينة في العصر الوسيط حيث تمّ بناء عدد كبير من الكنائس والأديرة التي تضمّ داخلها معارض حقيقية لفنّ الرسم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ومن الثروات الثقافية للمدينة نذكر وجود متحفين: المتحف البلدي، ومجموعة بوير.

زرت المدينة التي سلّط عليها جنود الجيش الصربيّ حصارا دام أكثر من ثلاثة شهور. وعينت أنقاضها وتأكدت أنّ العبارة المستعملة "طمس

PNUD 41

42 السيد رادومير ستانيتش.

43 السيد بيبيتش وبحضور رئيس الأساقفة الأرثوذكس السيد لوكيان أوزيكو بولسكي برانسكي، والقائد يانكوفيتش يزديمير ومسؤولين عن الثقافة.

معالم هويّة المدينة⁴⁴ لم تكن فيها، للأسف، مبالغة. فكنيسة سان نيكولا الأرثوذكسيّة، والكنيسة الكاثوليكيّة، والدير الفرنسيّ، والمتحف البلدي، والبناية التي تأوي مجموعة بوير وكثير من المنشآت المدنيّة كانت قد أصيبت بأضرار جسيمة. [67] ولقد نقلت السلطات الصربيّة أغلب قطع المتحف ومجموعة بوير إلى نوفي ساد وإلى المتحف الوطني ببلغراد.

بطبيعة الحال، تواصلت مأموريّتي في جوّ على درجة من التوتر. وانعقد في المتحف الوطني ببلغراد اجتماع طال أمده توليت أثناءه التذكير بمبادئ اتفاقية لاهاي وبضرورة القيام بعملية جرد منهجيّ لكلّ القطع التي تمّت حيازتها في منطقة فوكوفار المحتلّة، والتفكير، بعد ذلك، في طريقة لإرجاع هذه القطع بعد استتباب السلم.

لمّا كنتُ أنا ومدير قسم تاريخ فنّ المتحف⁴⁵ نؤدّي زيارة لمخبر الترميم حيث كانت تعالج لوحات فنيّة وأيقونات قادمة من فوكوفار، أكّد لي أنّه ليس في نيّة الأمانة الصرب نقل ملكيّة هذه التحف الفنيّة إلى صربيا.

وقد تمّ تنفيذ ذلك بحذافيره على إثر توقيع اتفاقيّات دايتون سنة 1995. وسأعود لاحقا إلى الحديث عن هذه الاتفاقيات التي أنهت النزاع الخطير في يوغسلافيا سابقا، ولا سيما في البوسنة والهرسك حيث قامت اليونسكو بدور أساسيّ في إعادة تأهيل التراث الثقافي وإعادة بنائه.

44 ترجمة للكلمة "urbicide" التي استحدثها المهندس المعماري بوغدان بوغدانوفيتش في شأن فوكوفار.

45 السيّد نيكولا كوزوفاك صحبة نائب وزير الثقافة الصربي جاسنا جانيبيفيتش.

حرب لبنان

مثل اجتياح قوات الجيش الإسرائيلي لجنوب لبنان سنة 1982 في عملية أطلق عليها اسم "السلام في الجليل" ثم احتلالها للعاصمة بيروت، قضية انضافت إلى الأزمة الداخلية والحرب الأهلية الحقيقية التي أثرت في [68] بلد من بلدان الشرق الأوسط طيلة أكثر من عشرين سنة وانتهت بتوقيع اتفاق الطائف في نوفمبر 1989 بفضل وساطة السيد الأخضر الإبراهيمي⁴⁶.

وما أن انتهى النزاع في لبنان حتى تلقى مدير عام منظمة اليونسكو⁴⁷ في نهاية سنة 1990، طلبا من السلطات اللبنانية في إرسال بعثة خبراء يتولون تقييم واقع الحال وتحرير تقرير في شأن التدهور الذي لحق التراث الثقافي بعد أزمة داخلية دامت أكثر من عقدين. وبطبيعة الحال، لم تتكهن التدابير الأولى لاتفاقية لاهاي سنة 1954 بوقوع هذا النوع من النزاعات.

كنت، في تلك الفترة، أضطلع بوظيفة مدير قسم التراث الثقافي، وبطبيعة الحال كانت مهمة تنظيم هذه البعثة موكلة إلى هذا القسم. فاستعنت من جهة بجورج زوين⁴⁸ الزميل اللبناني في اليونسكو، ومن جهة أخرى بمحمد حسين فنطر⁴⁹ المشهور بأبحاثه في مجال علم الآثار للحضارتين الفينيقية والبونوية في البحر الأبيض المتوسط، إذ سبق أن ساهمت معه، بين سنتي 1968 و1972 في الحفريات التي تمت في جزيرة سردينيا ونظّمها معهد الشرق

46 دبلوماسي جزائري ومبعوث خاص من الجامعة العربية والأمم المتحدة.

47 السيد فيديريكو مايوور سراكوزا.

48 مختص في الرمجة في قسم الموارد الزائدة عن الميزانية.

49 أستاذ علم الآثار في جامعة تونس ومدير المعهد الوطني للتراث بتونس.

الأدنى لجامعة لاسبينزا في روما⁵⁰. وقد قدّرت آنذاك أنّه الشخص الكفء المناسب للمشاركة في مأموريّة تقييم لوضعيّة التراث الثقافي في لبنان، البلد الوريث لفينيقيا القديمة سلف قرطاج.

[69] كان وصولنا إلى مطار بيروت يوم 12 ماي/مايو 1991 جديرا برواية بولييسيّة. ففي جوّ مشحون بالتوتر، راودت قوات الأمن، من شرطة اللبنايّة ورجال أمن سوريين، الشكوك عندما صرّحنا بغاية مأموريتنا. ولم يدركوا جيّدا علّة مجيء منظمة اليونسكو إلى لبنان المنهك في تلك الفترة. ولكن لحسن الحظّ لم يغب عن ممثل برنامج الأمم المتحدة للتنمية⁵¹ أن يرسل زميلا من البرتوكول لتيسير دخولنا إلى الأراضي اللبنايّة.

لقد كانت الصور الأولى التي رأيناها في مدينة بيروت، مفزعة. فعلى امتداد الطريق بين المطار ووسط المدينة، لا توجد بناية واحدة سلمت من شظايا القذائف أو القنابل اليدويّة أو طلقات الرشاشات. ولكنّ الأدهى والأمرّ هو أنّ متحف بيروت الوطني كان يوجد تحديدا في المنطقة التي كانت تسمّى آنذاك خطّ التماسّ.

لمن احتفظ في ذاكرته بصور المدن المدمّرة أثناء الحرب العالميّة الثانية مثل دراست وفرصوفيا وستالين غراد فإنّ رؤيته لمشهد الحي المركزي ببيروت يمثل صورة مطابقة لذلك. إنّها صورة صادمة مذهلة في الآن نفسه.

50 تحت إشراف الأستاذ الشهير ساباتينو موسكاتي.

51 السيّد جورج أبو جودة.

لم تكن قد سلمت ولو عمارة واحدة أو بيت واحد. وكنا نتقدم وسط ركام لم يُرفع بعد كأننا في مدينة أشباح. وكلّ سكّان هذا الحي، من لم يُقتل منهم أو لم يُجرح، كانوا قد فرّوا من وسط مدينة العاصمة اللبنانية التي كانت فيما مضى مشهورة بحركيتها وحيويتها.

[70] نظّمت السلطات اللبنانية بمعّية برنامج الأمم المتحدة للتنمية، برنامج زيارات يمتدّ على أسبوع، ووضعت على ذمتنا سيّارة تابعة للأمم المتحدة حتى نتمكن من التنقل إلى المواقع الأثريّة وأهمّ المعالم في البلاد: عجر، بعلبك، دير البلمند، البترون، بيت الدين، بيلوس، صيدا، طرابلس، صور.

لا فائدة من الوقوف طويلا عند المكانة والأهميّة اللتين يحظى بهما لبنان في "الهلال الخصيب" فهي حوض حقيقيّ للحضارات المتوسطيّة، وبلد له تاريخ يمتد إلى آلاف السنين ممّا قبل التاريخ إلى اليوم. إلّا أنّ عقديّ النزاع اللذين عاشهما قد كانا، بوجه خاصّ، مدمّرين لا لسكانها فقط، بل لتراثها الثقافيّ أيضا.

النهب الجزئيّ لمتحف بيروت

على الساحل المتوسّطيّ للمشرق، نُقشت، في العصر الفينيقيّ، الأبجديّة الأولى المتكوّنة من اثنين وعشرين حرفا، على التابوت الحجريّ لأحيرام ملك بيلوس في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. ولحسن الحظّ مازال ممكنا الاستمتاع برؤيتها في متحف بيروت الوطنيّ.

إنّ وجود هذا المتحف على ما كان يسمّى في فترة النزاع "خطّ التماس"، جعل النّيل منه يسيرا بشكل خاصّ. بُنيّ المتحف سنة 1938 بتصميم أنجزه

المهندس المعماري أنطوان نحّاس. إنّه صرّح مهيب وأحد نماذج الهندسة المأخوذة عن المعالم العتيقة ذات التصميم المستلهم من مصر. ويضمّ داخله المجموعات الأثريّة التي اكتشفت طيلة الحفريّات التي تمت في لبنان منذ أكثر من قرن.

وبعد سنوات القلاقل والاضطرابات التي كان فيها [71] المتحف مغلقاً وأحياناً محتلاً من الفصائل المتنازعة وعرضاً للقصف من كلّ جهة، وجدنا هذا الصرح في حالة يرثى لها: سقوف مثقوبة، وأبواب محطّمة، ونوافذ مخلوعة، وواجهات عرض مهشّمة، وآثار طلاقات الرصاص في كلّ قاعات العرض. الأمر لا يصدّق: الدخول إلى المتحف أمر متاح لكلّ من كان يريد ذلك.

ففي كنف هذا الوضع الذي يكاد يكون سُرياليّاً، استقبلنا المدير العام للآثار كميل أسمر⁵² مصحوباً باثنين من معاونيه⁵³. وثلاثتهم يمثّلون آخر من بقي من موظفي مديريّة الآثار في لبنان. وكانوا محبطين تمام الإحباط بسبب الصورة التي يقدّمونها لنا عن متحفهم الذي كان، قبل الحرب، أحد مفاخر مدينة بيروت.

قدّم لنا السيد كميل أسمر صورة عن أهمّ ما أصاب المتحف والمجموعات الأثريّة من خراب، رغم أنّ المدير الذي سبقه كان قد اتّخذ بعض الإجراءات الاحتياطيّة بنقل قطع إلى أماكن أكثر أمناً لا سيما بعد معارك 1978 التي احتلّ فيها الطابق الرئيسيّ والقبو. غير أنّ ذلك لم يحلّ دون نهب الواجهات

52 خلف الأمير المشهور موريّس شهاب أوّل مدير عام لبناني لمديريّة الآثار في لبنان.

53 السيّد سوزي حكيمان والسيّد خوري حرب.

التي كانت تضمّ قطعاً من البرنز تعود إلى العهد البيزنطيّ، وقطعا من الفخار ترجع إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد، زيادة على مجموعات من الموازين الرصاصيّة والبرونزيّة.

في شهر أفريل/أبريل من سنة 1981، تعرّض المتحف مرّة أخرى إلى سرقات وخاصّة قاعة العرض التي تضمّ قطعاً من الجعلان والأختام الاسطوانيّة، تعود إلى الألفيّة الرابعة قبل الميلاد. وفي الثمانينات من القرن العشرين عُطيت المجموعات المعروضة [72] في الطابق الأرضي من المتحف بالرمل ثم بقالب من الإسمنت المسلّح.

وفي شهر جوان/يونيو من سنة 1982، زمن الاحتلال الإسرائيلي، حُلعت مكاتب إدارة المتحف، وثقّب القصفُ السقفَ وهشّم صناديق تحتوي على قطع أثريّة. وختاماً، في سنة 1990، أثناء المعارك الدائرة بين الجيش اللبناني والمليشيات، أصيبت المكاتب والمكتبة مرّة أخرى وعصفت القذائف بقاعة التوثيق.

وزيادة على ما سبق فإنّ التوابيت الحجرية الهلنستية التي تزيّن مدخل المتحف الوطني كانت قد أُستهدفت ودُمّرت جزئياً. وأثناء زيارتنا، بدا لنا داخل المتحف بفضاءاته المعدّة للعرض، خالياً خلواً يثير الكآبة. وأثارت حيرتنا كتلّ من الإسمنت رباعيّة الزوايا موجودة في القاعة الرئيسيّة للطابق الأرضي. فوضّح المدير أنّ الأمر يتعلّق بإجراءات حماية أُتخذت أثناء اجتياح الجيش الإسرائيليّ لجنوب لبنان ووصوله إلى بيروت.

فقد تمّت تغطية كلّ اللوحات الفسيفسائية والتوابيت الحجرية، بما في ذلك تابوت الملك أحيرام، بقشرة من الإسمنت المسلّح. ومثل هذه الإجراءات مكّن من إنقاذ القطع الأثرية الكبرى للمتحف الوطني.

ومن إجراءات الإنقاذ المهمة غلّق المنافذ المؤدّية إلى مخازن المتحف الموجودة في القبو. وعلى هذا النحو أمكن حماية المجموعة الوحيدة للتوابيت. غير أنّ تسرّبات ماء ألحقت أضرارا بقطع من الخزف والبور.

وللأسف، لم تصمد القطع الصغيرة المعروضة في واجهات الطابق الأوّل أمام هجمة اللصوص [73] الذين نهبوا فوانيس قديمة وتمثال من البرنز أو الفخار، وبلوريات، وقطعا نقدية، نجدها بين الفينة والفينة إمّا في قاعات البيع وإمّا ضمن مجموعات للخواصّ في لبنان أو في أماكن أخرى من العالم. وبالتفاهق مع السلطات اللبنانية أُقترح أن يكون إعادة تأهيل المتحف الوطني غاية ذات أولوية. فبحكم موقعه الاستراتيجي بين أحياء بيروت الغربية وبيروت الشرقية، يكتسب تجديده طابعا رمزيًا معبرًا عن التصالح بين الطوائف، وعن الاعتراف بالقيم المشتركة التي تمثّلها هذه المؤسسة المتحفية.

أمّا بالنسبة إلى البناية في حدّ ذاتها، فكان الأمر المستعجل يتعلّق بحمايتها من المياه. ولهذا الغرض، تمّت دعوة مخبر أشغال عامّة ليقوم بعملية اختبار لأسسها وتحليل للطبقات السفلية لتقييم تطوّر مستوى المياه الجوفية التي

غمرت المخزن في القبو. وتمّ الاتصال بمجموعة مهندسين معماريين لبنانيين⁵⁴ للبدء فوراً في الدراسات الأولى المتعلقة بالأشغال الكبرى.

وفي الآونة نفسها، مكّنت مساعدة متواضعة من اليونسكو، من توفير أول معدّات المكاتب الضرورية لعودة العمل ولتحيين الجرد بالأساس. وبمساعدة من السيّد غسان تويني⁵⁵ عرضت الصحافة للسكان أهمية حماية التراث بعد سنوات من النزاع، ما اتصل منه بالمتحف أو بالقسم الأوسط للمدينة حيث بدأت تجري حفريات أثرية واسعة النطاق في المناطق التي لحقها القصف وهُجرت.

[74] كُلف المكتب الإقليمي لليونسكو في بيروت بمتابعة هذه الحفريات التي دامت أكثر من أربع سنوات تحت مراقبة لجنة علمية دولية كان لي شرف تكوينها. وتجتمع هذه اللجنة مرّتين في السنة لمتابعة درجة تقدّم الأشغال، ولتقديم النصائح إلى وزارة الثقافة حول عملية تهيئة وسط المدينة التي لم تكن عملية خالية من العقبات باعتبار الرهانات العقارية التي تمثّلها هذه المنطقة من العاصمة.

فبفضل التزام السلطات الوطنية والدعم الذي قدّمته المجموعة الدولية، رُمّم المتحف الوطني ببيروت ترميماً كاملاً وأنشئ فيه مخبر، وبفضل تكوين متخصصين في فرنسا وبريطانيا العظمى، أعيدت تهيئة قاعاته حسب قواعد علم المتاحف على هيئة تليق بأكبر المتاحف في العالم.

54 أمين بزري وبيار الخوري وإيلي شديد.

55 مدير جريدتي لوريون لوجور والنهار اللبنانيين.

إجراءات الحماية الأوليّة في لبنان

أثناء هذه المأموريّة الأولى، تمت زيارة معمّقة للمواقع الأثريّة الرئيسيّة في البلاد، تلك التي تمّ تسجيلها بقائمة التراث العالميّ مثل صور وبيبلوس وبعبك وعنجر. وحرّر تقرير مكنّ من تسليمها للمديريّة العامة للآثار في لبنان، على نفس النحو الذي وقع في شأن المتحف الوطنيّ.

ولبيان درجة ما كان للأزمة التي عاشتها لبنان، من تأثير كارثي على تراثها الأثريّ، أودّ أن أذكّر هنا بحادثة عشتها مع السيّد كميل أسمر خلال زيارتنا لمواقع جنوب لبنان.

تمّ إعلامنا بوجود أشغال ردم كبرى جارية في موقع الجيه الأثري [75] الواقع شمال صور، وأمكنا أن نعاين فعلا وجود جرّافة تسطح الأرض التي كانت توجد فيها بقايا كنيسة من عهد المسيحيّة القديمة، يعود تاريخها إلى القرن السادس ميلاديّ. وبطبيعة الحال لم يكن أي شخص موجودا على عين المكان لإيقاف تدمير هذا الموقع الأثريّ.

وفي القرية المجاورة لهذا الموقع لاحظت في واجهة دكّان لبيع مستلزمات الرياضة والغوص، قطعا أثريّة: مصابيح زيتيّة من العهد الروماني، وأطباقا من الخزف الأصلي، وقطعا نقدية.

فبادرت صاحب الدكّان بالحديث لمعرفة مآتي هذه القطع التي تولّيت بالمناسبة التقاط صور لها. فأجاب بأنّ أحد الغوّاصين جلبها إليه. ومّا ذكرته

بأنّ بيع القطع الأثريّة جريمة أجنبي قائلًا: "الحياة هنا صعبة والفقير الذي كان عليه الأهالي جعل الإمام يصدر فتوى تبيح بيع القطع الأثريّة".

أمّا كميل أسمر، الذي كان بجانبه وسبق أن طلب منّي عدم الكشف عن وظيفته على رأس المديرية العامة للآثار في لبنان، فكان أمام مثال حيّ لما تُعانيه لبنان من التهريب المتأبّي من الحفريات السريّة.

وقد كان محافظ جنوب لبنان⁵⁶ الذي استقبلنا في مقرّ المحافظة، واعيا تمام الوعي بمشاكل حماية المواقع الأثريّة في جهته، وفي نفس الوقت كان مدركا لحدود التدخّل الحكوميّ في هذا الشأن. وذكرنا "بوجود نصوص قانونيّة تمنع الحفريات السريّة، غير أنّ ضعف الدولة هو سبب السرقات وانضافت إليه [76] تبعات الاحتلال الإسرائيليّ لجزء من الأراضي اللبنانيّة. فوجد هذا التهريب لنفسه سوقا لدى ستة آلاف من أعضاء القوات المؤقتة التابعة للأمم المتحدة (فينول)، وهذا ما دفعني إلى إعلام رئيس الجمهوريّة الذي تدخّل حتى تكفّف هذه القوات عن السماح باقتناء هذه القطع".

وانطلقت حملة إعلاميّة لمقاومة ما سمّاه المحافظ بـ"الآفة الحقيقيّة"، ولكنّه اعترف بأنّ "مقاومة ما فاعيا بائعي القطع الأثريّة ستكون صعبة حاضرا ومستقبلا".

56 الشيخ حليم فيّاض.

ثمَّ تحوّلنا إلى الشوف، حيث التقينا بوليد جنبلاط⁵⁷ وزوجته. وكان كلٌّ منهما واعيا تماما بهذا التهريب الذي أخذ يتوسّع ليشمل لوحات الفسيفساء الأرضية. وبفضل مجهودهما أمكن استرجاع عدد كبير من هذه اللوحات وحفظها في قصر بيت الدّين. وقد بدا السيّد جنبلاط مبتهجا بزيارة بعثة اليونسكو، إلى حدّ أنه اقترح عليّ أن أرافقه في سيّارته. ولا بدّ من الإشارة إلى جزئية غير مألوفة، إنّه كان يقود السيارة التي أخذتُ مكانا لي فيها، والتي احتلّ فيها الرشاش موضعا من المقعد بيني وبينه!

نهب مكثّف لموقع صور

قبل مغادرتي باريس، كانت السيّدة مها شلبي⁵⁸ [77] قد ألحّت على أن أوّدّي زيارة لموقع صور لمعاينة البناءات الجديدة التي أنشئت فيه دون أيّ ترخيص ولا سيّما ما كان منها قريبا جدّا من المسرح الأثري الرومانيّ.

للأسف هذه الظاهرة مألوفة كلّما تندلع أزمة وتغيب سلطة المراقبة. فالأخطار التي كانت تهدّد الموقع نتيجة النزاع الداخلي في لبنان، حلّت محلّها للأسف الأخطار الناجمة عن توسّع عمراني قريب من الموقع قربا مفرطا فيه. وعند وصولي إلى صور، أصبت بالذهول بسبب كثرة المنشآت الحديثة التي بنيت إبّان فترات الاضطراب ولم تتمّ في شأنها لا استشارة مديريّة الآثار اللبنانيّة ولا استشارة المديريّة العامّة للتهيئة العمرانيّة.

57 الزعيم السياسي الأوّل للطائفة الدرزيّة. أمّا اللوحات الفسيفساء الأرضية التي نجح وليد جنبلاط وزوجته في حفظها في بيت الدين كانت موضوع دراسة نشرت سنة 1989 بتوقيع كل من فريدة جنبلاط وهيلقا سيدن ومنير عطا الله.

58 الأمينة العامّة للجمعية الدولية لصون مدينة صور.

فبرؤية كل هذه العمارات الشاهقة التي يتراوح علوها بين عشرة طوابق وعشرين والتي بُنيت، في ما يبدو، على عجل ودون احترام للموقع الأثري ومحيطه، يدرك المرء الدرجة التي وصل إليها غياب السلطة المركزية.

كان يبدو أنّ قطع الأرض التي على ملك الدولة والتي تتضمّن الجزء المركزيّ من الموقع المفتوح للزوّار، تمّ احترامها. فهناك يوجد الممرّ الواسع ذو الأعمدة والمبلّط بالفسيفساء والمحفوظ بمعالم عموميّة من العهد الإغريقي الرومانيّ: معابد، وحمامات عموميّة، وصهاريج. وفي الحقيقة، ظلّ الممرّ على الحالة التي رأيتّه فيها قبل اندلاع الأزمة بقليل، إبّان زيارة أديتها للموقع في شهر سبتمبر 1969 صحبة الأمير موريس شهاب⁵⁹.

ولكن في المنطقة الأثريّة الأخرى التي تتضمّن المقبرة وميدان سباق الخيل، [78] كُسرت، عن قصد، توابيت حجريّة. وأغلب الظنّ أنّ الغرض من ذلك هو البحث عن قطع أثريّة. وفي موضع أبعد، كانت بقايا الميناء المشهور جدّاً بمكانته في العصر الفينيقيّ والحامل اسم سيدون، قد دمّرت بالكامل. وفي الأنحاء القريبة من صور، على تلة تعرف ببرج الشمالي تمّ نهب موقع أثريّ كامل باستعمال وسائل ضخمة على ما يبدو.

ومنذ ذلك الوقت، ولوضع حدّ لهذه الآفة، أطلقت اليونسكو حملة دولية لصون موقع صور الأثريّ وما حوله.

59 عائلة لبنانيّة أميريّة مسلمة.

طرابلس ودير البلمند

توقّفت البعثة، وهي في طريقها إلى طرابلس، بالبترولون البلدة الصغيرة التي حافظت على نسيجها العمرانيّ الذي يعود إلى العصر الوسيط وتمّ فيها ترميم مَعلمين دينيين، كنيسة القديس جورج وكنيسة القديس استيفان، بإشراف مدير عام الآثار والمتاحف. ولحسن الحظّ لم تلحق المركز التاريخيّ للبترولون أضرار طيلة مدّة الأزمة اللبنانية.

بيد أننا وجدنا في طرابلس، ثاني أكبر مدن البلاد، قصر القديس جيل في وضعيّة يرثى لها من الإهمال شبه الكليّ. وهذه القلعة التي تطلّ على المدينة، ويجعل منها موقعها المتميّزُ شرفَةً حقيقيّة، يمكن أن يمثّل إعادةُ تأهيلها ورقةً رابحة لتعزير السياحة في المنطقة.

المتحف الذي كان قد أنشأه عالم الآثار كمال سركيس، نُهب كلياً. وغطّت الأعشابُ ساحات القصر بالتمام. أمّا القنوات التي غابت عنها الصيانة، فيتسرّب منها الماء باتجاه الباب الرئيسيّ [79] والجدران الداخليّة. وبالتالي لم يكن غريباً أن تنهار بعض أجزاء الجدار الخارجي. فمن هذا القصر الذي يعود تاريخه إلى العهد الصليبيّ، يمكن للمرء أن يدرك درجة ارتفاع كثافة المسكن التقليديّ، وخطر الاختناق الذي كان يتهدّد المدينة القديمة التي تعود إلى عصر المماليك وصروحها ذات القيمة الهندسية العالية مثل: مسجد البرطاسي، وخان الخياطين، وخان المصريين، وخان الصابون، وفي الأخير حمّام عزّ الدين الذي بُني في موقع تكيّة قديمة من القرون الوسطى.

ومن أجل إعادة تأهيل النسيج العمراني التقليدي، قُدمت اقتراحات ملموسة مصحوبةً بمشاريع تنمية. وقد طُرحت، في نفس الوقت، على السلطات البلدية والوطنية في إطار استراتيجية شاملة لإعادة الحياة لمركز المدينة التاريخي.

وآخر محطة للبعثة في الجهة، هو دير سيدة البلمند، الأثر الوحيد للهندسة السيسترسية، ويقع على التلال الساحلية [بعيدا عن مدينة] طرابلس بخمسة عشر كيلومترا تقريبا. وقد أشرف على ترميمه بين 1965 و1975 كلٌّ من المهندس هاروتين كليان والمهندس المعماري كميل أسمر. وهذا المعلم كان قيد التهيئة لإنشاء متحف بفضاء قاعة الطعام والقبو الكبير ثم إنشاء جامعة فيه⁶⁰. وقد قُدمت البعثة نصائح من أجل صون المعلم المصنّف ضمن المعالم التاريخية والعناية الواجب توجيهها إلى منطقة الحماية ومحيط الرؤية.

[80] بيبيلوس، وعنجر، وبعلك وصيدا

لحسن الحظ، لم تلحق موقع بيبيلوس أضرار، ولكنّه يشكو بدرجة أولى نقصا في العناية به وفي دعم أسسه. وتلك هي الحال أيضا بالنسبة إلى موقعين آخرين من التراث العالمي يقعان في شرق البلاد، بعلك وعنجر. ومع ذلك فقد لفتُ انتباه السلطات البنائيتية إلى وجود مخيم عسكري سوري متمركز بالقرب من معالم تعود إلى العصر الأموي في عنجر، ومن الممكن أن يمثّل تهديدا لحرمة هذا الموقع.

60 قريبا من هذا الموقع كانت تجري أشغال بناء ما سمي جامعة بلمند التي ترأسها الصحفي والسياسي غسان تويني الذي يرافق بعثتنا.

وفي بعلبك، أمكن للبعثة الوقوفُ على حالة المعالم التي تعدّ مفخرة البلاد. إنَّها، بمعجزة من المعجزات، ظلَّت محفوظة: فلئن بدت على المباني الفخمة لمعابد جوبيتير وباخوس وفينوس، بعضُ علامات التدهور فإنَّها لم تكن نتيجة للحرب الأهلية بسنواتها الطويلة.

وهكذا أثَّرت تسرِّبات الماء في قبة الرواق الخفيِّ (كريتوبورتيكوس) لمعبد جوبيتير، وبمرور الزمن قد يؤدي ذلك إلى إحداث انهيارات. وكذلك كان شأن معبد باخوس الذي بدت على تجاويف زخارف رواقه علامات تَلَفٍ نتيجة تفتت الحجارة، فأمَّحت جزئيًّا تلك الرسوم المنقوشة عليه والتي ترمز إلى المدن التي كانت ساهمت في بناء المعبد.

وقبل مغادرة لبنان، طُلب من البعثة التحوُّل إلى مدينة صيدا التي أصابها القصف الإسرائيلي إصابات عميقة، ولا سيما في منطقة الميناء، حيث تمَّ تدمير حَمَام يعود إلى فترة حكم الأمير فخر الدين (القرن السادس عشر) تدميرا كاملا. ولحقت الجزء القديم من المدينة والقريب من ساحل البحر تحويرات كثيرة ولم تبق إلا بعض المعالم [81] العموميَّة مثل خان الفرنج الذي دعت البعثةُ إلى ترميمه.

يفضل المساهمة الهامة لمؤسسة الحريري المصرة على صون الطابع التاريخي للمدينة رغما عن الوضعية الأمنية المتقلِّبة، تمَّ ترميم مَعلَمين هما الجامع العُمري الكبير وحَمَام الورد⁶¹.

61 تجدر الإشارة إلى أن ترميم الجامع العُمري اعتبر ذا نوعية عالية، وتحصلت مؤسسة الحريري سنة 1989 على جائزة آغا خان للعمارة الإسلامية ترميمًا لعملية الترميم التي أشرف عليها المهندس المعماري المصري صالح لمعي المعروف في عالم حفظ المعالم الإسلاميَّة للعصر الوسيط.

وفي ختام هذه المأمورية الهامة في لبنان والتي مكّنت من إجراء محادثات مع كثير من الشخصيات السياسيّة⁶²، استقبلني رئيس الوزراء عمّرم كرامي الذي عبّر عن تقديره لتفاعل اليونسكو السريع والملموس غداة اتفاق الطائف للوفاق الوطني اللبناني.

وقد تولّت "لوريون لوجور" و"النهار" الجريدتان الرئيّسيّتان في لبنان، التوسّع في تناول أصداء هذه البعثة التي تمّ الأخذ بجزء كبير من توصياتها. [82] ويُعدّ تدخّلها من أجل حماية الآثار التي كشف عنها قصف وسط مدينة بيروت، ودعمها لإعادة تأهيل المتحف الوطني الذي فتح أبوابه للجمهور في أكتوبر 1999، أحد أعمالها الناجحة بلا منازع.

وفي تقييم متأخّر في الزمن يمكن أن نعتبر الحصيلة إيجابية سواء تعلّق الأمر بالأعمال الملموسة التي كان يجب إعطاؤها الأولويّة في الإنجاز، مثل المتحف الوطني أو الحفريات الثريّة في وسط مدينة بيروت، أو تعلّق بالاستراتيجية طويلة المدى لإعادة تأهيل المواقع الأثريّة الكبرى في لبنان. وهذه الحصيلة تعكس صحّة المقاربة التي اعتمدها اليونسكو بمساعدة مجلس علميّ دُوليّ " مؤقّت " توليت تشكيله للغرض وكان يعقد في بيروت اجتماعات بشركائه من المديرية العامّة للآثار، بشكل منتظم كلّ ستة أشهر.

وهذا ما أشار إليه الأستاذ إرنست ويل مدير هذه اللجنة حين قال: "كان الأمر آنذاك يتعلّق بعملية ذات أهميّة وطنيّة، وعلى هذا النحو قدرها

62 من بينهم السيّد بطرس حرب وزير التربية، والسيّد طلال أرسلان وزير السياحة، والسيّد وليد جنبلاط وزير دون حقّية وزارية، والشيخ حليم فيّاض والي محافظة جنوب لبنان.

كلّ من الرأي العامّ اللبنانيّ وسلطات البلاد: إنّها مبادرة وطنيّة، ولكنّها ذات أبعاد دوليّة. وهذا ما يفسّر الاستعانة بلجنة مكوّنة من شخصيّات متنوّعة من بينهم مجموعة علماء فرنسيين، وقد تولى إنشاء هذه اللجنة مديرٌ قسم التراث الثقافيّ في اليونسكو⁶³.

[83] نهاية النزاع في كمبوديا

بعد حرب أهليّة طويلة دامت أكثر من عشرين سنة، وخرجت منها كمبوديا منهكة وبلغ فيها عدد الضحايا قرابة المليونين، تولّت اتفاقيات باريس في أكتوبر 1991 وضع نقطة النهاية لمأساة أصابت كلّ طبقات الشعب الكمبودي⁶⁴.

وآلت مسؤوليّة إدارة البلاد إلى الأمم المتحدة فأنشأت منذ شهر سبتمبر 1993، سلطة مؤقتة للأمم المتحدة بكمبوديا تعرف في الفرنسيّة باسم أبرونوك (APRONUC) وفي الإنجليزيّة باسم أنتاك (UNTAC).

وبالتوازي مع محادثات السلام ومع قرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة، يمكن للمرء أن يتساءل أيّ دور كان وسيكون لليونسكو؟ يمكن أن نلخص هذا الدور في إحدى فقرات النداء الذي توجه به فيديريكو مايوور المدير العامّ لمنظمة اليونسكو، يوم 30 نوفمبر 1991، وأكّد فيها على قيمة أنغكور "مدينة ملوك الخمير التي تستعدّ لتكون مرّة أخرى رمز بلادها.

63 حسب مقال بالفرنسيّة ليلي بدر، الاكتشافات الأثريّة في وسط مدينة بيروت، في Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, année 1996, volume 140, n°1, p 96

64 سنة 1993 رفض الخمير الحمر الانتخابات التي نصّ عليها هذا الاتفاق، وعادوا للسلاح ولكن لفترة قصيرة.

إن آثارها التي تشهد على ماضٍ غنيٍّ مجيد، تجسّد كلَّ القيم التي تبعث من جديد الأمل في شعب الخمير وفي هويته (...). ولهذا اقترحت اليونسكو بمعيّة الشعب الكمبودي، تنسيق عملية صون تُجرى بأعلى معايير الكفاءة. وهذه العملية التي يتولّى قيادتها الكمبوديون في إطار إدارة دُولية، مخصّصةٌ لحماية وترميم معالم أنغكور ومحيطها الحافظ لها، وستركّز على تنمية مندمجة للمنطقة كلّها".

[84] اليومَ وبعد ما يقرب من خمس وعشرين سنة من النشاط غير المنقطع والمنسق من قبل اليونسكو، يمكن أن نعتبر أنّ المسألة كانت تتعلّق، دون شكّ، بتوجّه استراتيجي حقيقيّ، ويمكن أن نحكم بعد تحقق العمليّة أنّها كانت، بوجه من الوجوه، نبوءة: فمن الآن فصاعداً، "مشروع أنغكور الاستثنائي" معترف به على المستوى الدّولي بكونه "منارة مشاريع" اليونسكو⁶⁵. وفي بداية هذا القرن الحادي والعشرين، غالباً ما يُقارن نجاح المشروع بنجاح أوّل حملة دُولية لإنقاذ أبو سمبل وفيلاي في مصر⁶⁶، وهذا ما كان كتبه إيتيان كليمان وفبريس كينيو:

"حضارة الخمير واحدة من أكثر الحضارات المدهشة التي عرفها العالم. فمجموعاتها المعماريّة موجودة ضمن أجمل التحف الفنيّة للإنسانيّة. ففي المرتبة ترد أنغكور، عاصمةً امبراطوريّة الخمير من القرن التاسع إلى القرن

65 رغم أنّها لم تنعت بكونها "حملة دُولية للصون والتثمين" لأسباب إدارية بحتة.

66 نذكر أنّه حتّى قبل ختم اتفاقيات السلام حول كمبوديا بباريس، كان الأمير نورودوم سيهانوك قدّم أثناء لقاء بالسيد فيديريكو مايوور مَهْمَرّ اليونسكو في غرّة سبتمبر 1989، مطلباً من أجل صون معالم أنغكور باسم حكومة ائتلاف كَمبُوشِيَا الديمقراطية.

الخامس عشر وهي، اليوم، محافظة على مكانة متميِّزة ضمن أوسع المرَكِّبات الأثريَّة في العالم.

هذا المنتزه الأثريُّ يغطِّي مساحة أربعمائة كيلومتر مرَبَّع ويضمُّ عدداً فريداً من المعابد التي بُنيت على شرف الآلهة الحامية. هذا التراث الثقافيُّ الذي لا يُقدَّر بثمن لم يُفَلت من تقلُّبات التاريخ التي أصابت كمبوديا، [85] ذاك البلد الصغير الواقع في شبه جزيرة الهند الصينيَّة، والذي مازال اسمه، كمبوشيَّا، يذكَّر بتضحيات شعب كامل وبمأساته.

مُتلت سنواتُ النزاع والاضطراب الثلاثين، التي بلغ فيها نظام الخمير الحمر ذروة القسوة والوحشيَّة الإيديولوجيَّة، بما حصده من ملايين الأرواح، عبءاً ثقيلاً طويل الأمد على تنمية البلاد. وارتكبت تحت هذا النظام أبشع انتهاكات حقوق الإنسان في العالم، والتي لم يُعرف لها مثيل منذ نهاية الحرب العالميَّة الثانية. وطيلة هذه الفترة من النزاع الذي لم ينقطع أو كاد، تضرَّر تراث الخمير: المعالم والمواقع الأثريَّة تشكو من قلة العناية، ومن الإهمال والتدهور والنهب، زيادة على استعمالها لغايات عسكرية. والأمر على ما هو عليه: "الحرب عدوٌّ لأحسن ما يقدر الإنسان على صنعه"⁶⁷.

وبعد سنتين، وتبعاً للنداء الذي أطلقه الأمير نورودوم سيهانوك⁶⁸، فَتحت منظِّمة اليونسكو مكتب "بنوم بنه"، وبمناسبة تدشينه تحوَّل المدير العامُّ

67 إيتيان كليمان وفابريس كينيو، حماية الممتلكات الثقافيَّة في كمبوديا مدَّة نزاعات مسلحة، من خلال تطبيق اتفاقيَّة لاهاي لسنة 1954.

68 بصفته رئيس المجلس الأعلى في كمبوديا، من أجل أن تنسَّق اليونسكو عمليات المساعدة الدوليَّة لفائدة أنغكور والموروث الثقافيُّ الكمبوديِّ عامَّة.

نفسه⁶⁹ على عين المكان. [86] وقد مثلت هذه المبادرة غير المسبوقة، إشارة إلى تعهد المنظمة بعملية إعادة التأهيل وإعادة البناء التي التزم المجتمع الدولي بدعمها في الفترة التي تلت التسوية الشاملة للنزاع الكمبودي.⁷⁰

أنغكور تبعث من جديد

أديتُ المأموريتين الأوليين في كمبوديا صحبة أول مدير لمكتب اليونسكو في بنوم بنه، إحداهما في شهر مارس وثنانيتها في أوت/أغسطس من سنة 1992. وكان الهدف هو التشاور مع وزير الثقافة⁷¹ حول مراحل العمليات التي ستجزم ميدانياً والوسائل الموضوعية على ذمة ذلك. وكان يفترض أن تمكن هذه المأمورية من صياغة تقرير عن حال حفظ أنغكور التي أهملت جزئياً مدة النزاع وتعرضت لكثير من السرقات لقطعها الفنيّة.

تنقلنا، على متن طائرة عموديّة تحمل شعار منظمة الأمم المتحدة، من "بنوم بنه" إلى "سيامب ريب" [87] التي لم تكن آنذاك إلا مقر دائرة⁷² قريية

69 كان مصحوباً بمستشاره الخاص السيد جيرار بولاً المدير العام المساعد سابقاً ومدير ديوان اليونسكو سابقاً، وبالسيد هنري لوباز الكاتب الكونغولي والمدير المساعد المكلف بالثقافة ومستشاره العلمي في الملف الكمبودي السيد كلود جاك العالم المختص في النقوش وفي تاريخ الخمير ومن المكافحين الجادين للتجار غير الشرعيّ بالتحف الفنيّة المتأثية من كمبوديا.

70 ضمن هذه الدينامية أنشئت وحدة خاصة تعنى بملف التراث الثقافي الكمبودي تولت مسؤوليتها السيدة مينجا يانغ. ومن أولى عملياتها تحضير ملف إدراج موقع أنغكور في قائمة التراث العالميّ بتعاون وثيق مع السلطة الوقتية للأمم المتحدة في كمبوديا "أبرونوك" والمجلس الوطني الأعلى الكمبودي والمدرسة الفرنسية بالشرق الأقصى، المؤسسة العلميّة الوحيدة آنذاك التي لها معرفة تقنيّة وتاريخية معمّقة بمنزته أنغكور الأثريّ ومحيطه.

71 السيد فان موليّفان، الذي كان أيضاً مستشاراً للأمير نورودوم سيهانوك.

72 كان يسير على هذه الدائرة موظف مجريّ في السلطة الوقتية للأمم المتحدة في كمبوديا "أبرونوك"، السيد جوناس جيلن الذي كان يتمتّع بتكوين في التاريخ وعلم الآثار.

من موقع أنغكور. وقد تمركزت هناك فرق من قوّات الأمم المتحدة بسبب وجود مجموعات مسلّحة يقودها الخمير الحمر قريبا من المكان.

كان مدير سيامب ريب جاهزا لخدمتنا بشكل متواصل، ووضع على ذمتنا سيارة لمنظمة الأمم المتحدة ضمن القافلة العسكرية التي رافقتنا وتولت حمايتنا من رصاص الخمير الحمر. وللإطلاع جوًّا على الموقع حظينا حتى بحماية قوات المارينز الأمريكيّة.

وهذا ما دوّنه، في ذلك الوقت، أحد المسافرين⁷³، في صفحته الخاصّة على شبكة الأنترنت (Blog) واصفا الوضعيّة: "تقريبا مجمل الأراضي الكمبوديّة كانت تؤمّنها القوات الأمميّة، أو على الأقلّ، هذا ما تقوله الرواية الرسميّة التي كانت شائعة شيوعا واسعا خارج حدود البلاد. أمّا الواقع اليوميّ فكان يناقض هذه الأقوال التي تحمل بصمة تفاؤل، مفرط فيه، بقرب تنظيم انتخابات ديموقراطيّة. فبعض جيوب الخمير الحمر مازالت نشيطة. وفي تلك الفترة، لم تكن المناوشات نادرة. وخارج المدن، من الحيطة، أن يلتقط المرء، يوما بيوم، الأخبارَ من سگان القرى أو الفلاحين من أجل معرفة حالة الوضعيّة في الجهات التي تمت زيارتها".

كان من الواضح أنّ هذه الظروف لم تكن تسمح بالظفر بفندق في سيامب ريب. والمؤسسة الوحيدة التي مازالت محافظة على بعض من هيئتها رغم نهبها بالكامل هي فندق فرنسا الذي كان من بين مرتاديه في الفترة الاستعماريّة أندري مالرو.

[88] اختار، إذن، فريق اليونسكو الذي كنتُ من ضمنه، العيش، طيلة مدة المأمورية، مع السكان المحليين وكراء بعض الغرف في بيت تقليديّ في سيامب ريب تمّ تحويله مدة سنوات إلى فرع مكتب اليونسكو في بنوم بنه. والزيارات التي قمنا بها لموقع المعابد الكبرى في منطقة أنغكور، كانت دائماً بإشراف وحماية قوّات حفظ السلام نظرا للأخطار التي تشكّلها آلاف الألغام الأرضيّة المزروعة في كلّ مكان تقريبا.

وعلى هذا الأساس، فإنّ الوصول إلى المعبد الوردّي بـ "بانثاي سراي"، الذي اكتسب شهرة من حادثة مضحكة هي سرقة أندري مالرو لتماثيل سنة 1923، لم يصبح ممكنا إلاّ بعد أن تولّى الفيلق الأجنبي من الجيش الفرنسي القيام بعملية استكشاف احتياطية حدّدت المناطق الملعّمة وفتحت لنا مسالك عبر الغطاء النباتي الذي اكتسح الموقع.

لقد ساعدت بعثات اليونسكو المدعومة من برنامج الأمم المتحدة للتنمية مدة سنتي 1992 و1993، وبعثاتٌ عديدة المؤسسات المتعاونة⁷⁴، على تحضير مشاريع تهدف إلى مقاومة تهريب التحف الفنيّة وعلى ضبط مخطّط توجيهي يحمل اسم "زامب"⁷⁵ ويعنى بتحديد محيط موقع أنغكور وبيادارته. وستمكّن هذه الوثائق فيما بعد من وضع مقترحات من أجل تسجيل موقع أنغكور في قائمة التراث العالميّ.

74 مؤسسات مختصة من فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية واليابان، والمجلس الدولي للآثار والمواقع (إيكوموس) والمجلس الدولي للمتاحف (إيكوم).

إلى حدود أواسط التسعينات، كانت منطقة [89] أنغكور مرتعا لنهائي التحف الفنيّة الذين تمّ التبليغ عن أعمالهم عديد المرّات. وهذا ما أكّده كريستوف بوتيني⁷⁶ حين قال إنّ "90% من المعابد التي زرتها في تلك الحقبة كانت قد تعرّضت للنهب حديثاً" وأشار الصحفيان تيري فاليز وكريستوف لوفيني⁷⁷ [إلى ما حدث من تطوّر فقلا] "ولكن بضغط من اليونسكو ومن الدول المانحة التي تتكفّل كلّ سنة بنصف ميزانيّة دولة كمبوديا وبكّل أشغال ترميم المعابد، أنشئت شرطة خاصّة بالتراث ومُنشأة لحماية الموقع وتهيئته. ومجموع هذه الإجراءات لم تكن كافية لوضع حدّ للنهب، لو لم تصبح، في الآن نفسه، السياحة المصدر الجديد للثروة".

وورد في وثيقة لـ "أنسرا"⁷⁸ أي سلطة حماية وتهيئة منطقة أنغكور ما يلي: "منذ بداية التسعينات، أضيفت فصول إلى المجلّة الجنائيّة تجرّم هدم الممتلكات الثقافيّة وسرقتها وتهريبها (...) وتمّت، سنة 1993، المصادقة على النصوص القانونية والتأسيسيّة المتعلّقة بالتراث (...) وفي شهر جانفي/يناير 1996، صدر القانون المتعلّق بحماية التراث الثقافيّ وهو يرمي إلى حمايته من كلّ عمل تخريبي: نقل غير شرعي للملكيّة، حفريات وتصدير وتوريد غير قانونيّ (...) والرهان الذي لا بدّ أن تواجهه حكومة الخمير هو القيام بجرد للتراث الفنيّ المتبقيّ بعد الحرب، وستعتمد مقارنُهُ الجرد بوتائق ما قبل

76 مهندس معماري وعالم آثار من المدرسة الفرنسيّة بالشرق الأقصى.

77 جريدة "لوفيغارو" 3 جانفي/يناير 2005.

الحرب، قاعدةً لتعيين القطع المسروقة وستُمكن من [90] استرجاعها لثثني للصوص عن السرقات، أو لوضع حدٍّ لمزيد منها".

وتتمثّل آخر مرحلة كبرى من مراحل مسك السلطات الكمبودية بمقاليد حماية موقع أنغكور، في تسجيله على قائمة التراث العالمي في الدورة الخامسة عشرة للمجلس المنعقدة في شهر ديسمبر بمدينة سنّتا في. ومؤخراً، بمناسبة تكريم فيديريكو مايوور في عيد ميلاده الثمانين، ذُكرتُ بشبه الأزمة التي حصلت في مناقشة ملف إدراج موقع أنغكور، وبالذور الجوهري الذي كان للسيّد مايوور.

احتراماً للإجراءات، كان من المفروض أن يُعرض ملف ترشيح موقع أنغكور على أنظار المجلس الدولي للمعالم والمواقع إيكوموس لتقييمه. وعين المجلس أحد ألمع ما لديه من خبراء التقييم، عالم الآثار هنري كلير الذي لئن اعترف بالقيمة الكونية الفريدة لموقع أنغكور، فقد اعتبر أنه لا يستجيب لأيّ شرط من الشروط المطلوبة لتسجيله [في القائمة].

وفي الكتاب⁷⁹ الذي نشرته كريستينا كامرون⁸⁰ ومشتيلد روسلار⁸¹، ذُكرت عملية إدراج موقع أنغكور الحرجة، في ما يزيد عن الصفحتين ونُقلت فيهما الأقوال الحادة للسيّد مايوور مدير عام المنظمة الذي صرّح في سنة 2009:

79 "Many Voices, One Vision : The Early Years of the World Heritage Convention" (Ashgate Edition 2013).

80 رئيسة لجنة التراث العالمي سابقاً.

81 كانت آنذاك المديرية المساعدة لمركز التراث العالمي.

"لي ما يكفي من العناصر التي تجعلني أقول لكم إمّا أن يُعلن المجلس عن إدراج "أنغكور فات" أو أنغكور عموما ضمن التراث العالميّ وإمّا سأتولى أنا شخصياً [91] الإعلان عن كونه تراثاً مهدّداً بالخطر وهذا أمر مخوّل لي القيام به...⁸²"

فديريكو مايوور كان فعلا، على استعداد للقيام بعملية مرور بالقوّة وفرض التسجيل، ولو حدث ذلك لكان سابقة مخالفة للإجراءات ليس لها نظير. ولكن في نفس الوقت، كان لا بدّ من الاعتراف بأنّ وضعيّة الموقع، الذي كانت له به معرفة ميدانيّة، كانت تقتضي قرارا استثنائياً وإجراءات استعجاليّة.

وتعهدتُ لأعضاء المجلس، إن هم وصلوا إلى اتفاق يقضي بتسجيل موقع أنغكور، بأن يلتزم قسم التراث الثقافيّ بتدارك الثغرات⁸³ المشار إليها. وحصل الاتفاق وتمّ تسجيل أنغكور على قائمتي التراث العالمي والتراث العالمي المهدّد بالخطر.

وبعد سنة⁸⁴ أنشئت كتابة مجلس دولي للتنسيق من أجل حماية موقع أنغكور وتنميته⁸⁵. [92] وفي سنة 2013، احتفل هذا المجلس بذكرى عشرينيته

82 عشت أزمة غير معهودة كنت، خلالها، صحة المستشار الخاصّ جيرار بولّا، في جيّنة وذهاب بين غرفة المدير العام وقاعة اجتماع أعضاء هيئة التراث العالميّ ورئيسها السابق عز الدين باش شاوش. ويفضل ما له من كياسة وبحكم مسؤوليته الجديدة مقرّرا لدورة "سانتا في" فقد ساعد على اتخاذ قرار "تسجيل" الموقع لا "تأجيل" ذلك كما نصت عليه توصيات المجلس الدولي للمعالم والمواقع إيكوموس. وكان قد انضمّ إلى الاتفاق المقترح رئيس الهيئة روبر ميلن أيضا.

83 لا سيما غياب التشريعات، والبنية التحتيّة الإداريّة والفنيّة، والميزانيّة، والمخطّط الإداري.

84 بمناسبة انعقاد المؤتمر المشترك بين الحكومات من أجل صون أنغكور وتنميتها في طوكيو في شهر أكتوبر 1993.

85 CIC أسندت رئاستها الشرفيّة لكمبوديا وفرنسا واليابان.

في سيام ريب وفي رصيده عمل جعل من هذا الموقع أحد نجاحات التعاون الدولي في ميدان التراث الثقافي وهو لا يقل قيمة عن أول حملة صون للمعالم النُويّة في مصر والسودان.

محاولة طمس معالم هويّة⁸⁶ مدينة مُستار

في 09 نوفمبر من سنة 1993، انهار الجسر القديم المبني على نهر نرتفا بمدينة مُستار، نتيجة قصف مدفعي من دبابة تابعة لمجلس الدفاع الكرواتي رابضة على مسافة تبعد عن الجسر بضع مئات الأمتار. ها أن ما كان يسمّى ستاري موست قد اندثر. كان ذلك أثناء النزاع الذي قطع أوصال يوغسلافيا سابقا ما بين 1991 و1995 ولم يكن إلا عملا إجراميًا من أعمال أخرى.

وقد ذُكرت سيلفي رامال في مذكراتها⁸⁷ بأنّ "هذا التدمير هو فعلا خاصيّة للطريقة التي تُتخذ فيها قطع التراث الثقافي والديني هدفا من أهداف التطهير العرقي"، على حدّ عبارة مارتن كووارد⁸⁸. ومثلما حصل بُعيد قصف مدينة دوبروفنيك [93] التاريخية، كان لقصف ميناء مُستار القديم أثر عميق في الرأي العامّ، لا باعتباره نيلا من إحدى تحف المعمار العثمانيّ في القرن السادس عشر فحسب، بل لكونه أيضا تعبيرا عن إرادة في وضع نقطة نهاية

86 "طمس معالم هوية" ترجمة للفظ (urbicide) الذي استحدثه واستعمله المهندسون المعماريون في سرايفو أثناء حصار المدينة في 1993-1994.

87 Sylvie Ramel, *Reconstruire pour promouvoir la paix ? Le cas du " Vieux Pont " de Mostar*, Institut Européen de Genève, juin 2005, p.8

88 Martin Coward, *The old bridge (Stari Most) in Mostar*, Research Center for Islamic History, Art and Culture, Istanbul, 1995, p.7.

للعلاقات الوطيدة التي تجمع، بفضل هذا الجسر، بين مختلف المجموعات العرقية، الكرواتية والبوسنية والصربية، التي كانت تقيم في مدينة مُستار.

ما إن تمّ الإعلان عن هذا التدمير حتى أدلى فيديريكو مايوور بتصريح شدّد فيه على أنّه "بعد الخسائر غير المقبولة في الأرواح البشرية ها أنّ التراث الثقافيّ يتعرّض هو أيضا للتدمير. مَعْلَم هامّ آخر من التراث الثقافيّ للبوُسنة والهرسك اندثر. وبصفتي مديرا عامًا، لا يمكنني السكوت عن هذا التدمير المتعمّد لجسر "ستاري موست" في مُستار... فبتدميره، يسعى مقترفو هذه الفعلة المخزية إلى محو تاريخ بلد وشعب".

مدينة مُستار المعروفة فعلا بمعمارها وهندستها ذات الخصائص العثمانية، نمت وتطوّرت بداية من القرن الخامس عشر بفضل موقعها الجغرافيّ على طول وادي نيرتفا. وذكر المهندس المعماري أمير باسيس أنّ وثيقة يرجع تاريخها إلى 1440 تحيل على حصن بالقرب من جسر على نهر نيرتفا⁸⁹.

هذا الحصن استولى عليه العثمانيون طيلة الربع الثالث من القرن الخامس عشر. وبداية من سنة 1475، ظهر على ضفّة النهر أوّل حي للمسلمين فيه مسجد وحمّام. [94] وكان يوجد جسر خشبيّ معلّق قبل بناء الجسر الحجريّ الذي صمّمه المهندس المعماريّ معمار حجر الدين تلميذ المهندس الشهير سنان الذي يعدّ مرجعا في العمارة العثمانية.

89 Amir Pacic, *The old bridge (Stari Most) in Mostar*, Research Center for Islamic History, Art and Culture, Istanbul, 1995, p.7.

كان الجسر مقوِّسًا على شكل ظهر الحمار، وفتحته [السُّفليّة المقوِّسة] عرضها سبعة وعشرون مترا وله من الطول ثلاثون مترا ومن العرض أربعة أمتار فقط ممّا جعله جسرا للمترجّلين. غير أنّ درجة صلابته العالية جعلته يصمد أمام الدبّابات النازيّة التي عبرته أثناء الحرب العالميّة الثانية.

إلى هذا الجسر تعود تسمية المدينة ("مُس" تعني جسر) وهو ما مكّنها من التوسّع على جانبيه، ومن ازدهار التجارة فيها، إذ أقبل الحرفيون والتجار، وأقاموا فيها منذ القرن السابع عشر. ويُدكر في أرشيف المدينة أنّ مستار كانت تعدّ أكثر من ألف بيت ومن عشرة آلاف من السكّان.

عندما وقعت البوسنة والهرسك تحت سلطة الإمبراطوريّة النمساويّة-المجرّيّة في أواخر القرن التاسع عشر، شهدت مدينة مستار عهدا جديدا من الازدهار الاقتصادي والعمرايّي. وهذه المدينة فريدة من حيث مجمل مساكنها ومعالمها المجتمعة في تناسق عمرايّي منفتح على ضفّتي نهر نيرتفا. وكانت مشهورة بطيب العيش فيها ممّا جعل منها مدينة سياحية للراحة والاستجمام وقضاء العطل بالنسبة إلى كلّ اليوغسلافيين وذلك إلى حدود اندلاع الحرب سنة 1992.

وفي سنة 1993، وبتقدّم قوّات الجيش الصربيّ، انتهت المدينة مقسومة إلى مدينتين، فكانت ردّه فعل الاتحاد الأوروبيّ ومنظمة حلف شمال الأطلسي وتوقيع اتفاق [95] في شهر مارس سنة 1994، بواشنطن، مكّنا من إرسال أكثر من ثمان وثلاثين ألف جنديّ تحت راية الأمم المتحدة إلى البوسنة

والهرسك، لفك الحصار عن المدن وإجبار الصربيين على إخلاء الأراضي التي كانوا يحتلونها.

البعثات الأولى إلى سرايفو

اختارت اليونسكو نفس الفترة أيضا لترسل بعثات إلى البوسنة والهرسك. فبعد أربعة أشهر فقط من انهيار جسر مستار، وبينما كانت البوسنة والهرسك في أوج الحرب، أطلقت اليونسكو نداء أول من أجل إعادة بنائه وأرسلت بعثة تتولى اقتراح الإجراءات الاستعجالية الأولى.

وبصفتي مدير قسم التراث الثقافي، كنت ضمن البعثة الأولى التي تولى إدارتها لويس رملو. وكانت هذه أول بعثة مشتركة بين اليونسكو والمجلس الأوروبي في إطار عملية تخدم مصلحة التراث المهتد بالخطر زمن نزاع [مسلح].

فانطلاقا من نهاية شهر مارس 1994، تحوّلت بعثتنا، على التوالي، إلى سرايفو حيث تولى مصاحبتها وحمايتها الجنود الفرنسيون من قوّات الأمم المتحدة للحماية (فوربرونو)⁹⁰ ثم [96] إلى مستار تحت حماية الجنود الإسبان من نفس تلك القوّات. وتمّ استقبالنا في نفس الوقت من قبل ممثليّ اتحاد البوسنة والهرسك في مقر رئاسة الاتحاد بسرايفو، ومن قبل ممثليّ الاتحاد الأوروبي المكلفين بإدارة مستار، وقدموا لنا عرضا عن حجم التدمير الذي لحق المباني العموميّة والمباني الخاصّة على حد سواء.

90 (FORPRONU) قوّات الأمم المتحدة للحماية التي أقرّ إحداثها بصورة مؤقتة من أجل توفير شروط السلام والأمن الضروريين لمفاوضات تسوية شاملة لحروب يوغسلافيا.

كانت مدينة مستار في حالة كارثية أكثر من سرايفو، فالمباني منهارة جزئياً، والكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية متضررة ضرا عميقا، ومآذن المساجد أضحت أنصاف مآذن، وبيوت الصلاة محطمة، وواجهات العمارات مثقوبة بطلقات الرصاص والطرقات والأرصفة محفورة بفعل انفجار الألغام. وزيادة على كل هذا، كانت تخيم، على كل مكان، مسحة كآبة لمدينة أشباح. لم تكن توجد، بين مستار الشرقية ومستار الغربية، إلا نقطة عبور واحدة وهي تحت رقابة فرقة من قوات حفظ السلام، ولم تكن هذه النقطة في موقع الجسر القديم المهدم الذي حلّ محله معبر ضيق. ولا حياة لمن تنادي في المدينة القديمة التي كانت أشبه بديكور فيلم رعب. فقد هرب السكّان ووجد أغلبهم ملجأ لهم خارج المركز التاريخي الذي كان هدفا للقصف. لا فندق يشتغل ولا مطعم، كنا حقيقة أمام مدينة ميتة ليس فيها غير الجنود الذين يقومون بدورياتهم.

ولكن رغم ذلك، كانت توجد إدارة مدنية وبعض الموظفين من بينهم رئيس بلدية الجزء الغربي للمدينة السيّد سافت أروسيفيتش الذي ظل يؤمن حضورا في بلدية اختزلت في غرفتين ولا يقبل عليها إلا عدد قليل من الأشخاص [97] بحثا عن نجدة تقيهم من النوم تحت الأمطار.

على إثر هذه المأمورية، التي تلتها مأموريتان أخريان توليت قيادتهما في نوفمبر 1994 ثم في جوان/يونيو 1995 مع المدير الجديد لمكتب اليونسكو بسرايفو، كولين كايزر، تمّ تقديم التوصيات.

كان الأمر يتعلّق، خاصّة، بضمان تعزيز البنايات المهدّدة بالانهيار في مستار، وإصلاح مستعجل لسقف متحف سرايفو الوطني الذي اخترقته القذائف. وسجّل المجلس التنفيذي في شهر أكتوبر من سنة 1995 حضور اليونسكو في البوسنة والهرسك و"دعا المدير العامّ إلى تنسيق الجهود من أجل إعادة بناء فعليّة لمباني مدينة مستار ولا سيما الجسر القديم"⁹¹.

لئن كفت سماء سرايفو، في جوان/يونيو 1995، عن أن تمطر قذائف، فإنّ ضحايا القناصين الذين يطلقون النار على المازّة، مازالوا كثيرًا، خاصّة في الشارع المشهور آنذاك باسم شارع القناص قبالة فندق هوليداي إين. وهذا الفندق الوحيد الذي كان في وضع اشتغال، تقيم فيه بعثات اليونسكو والاتحاد الأوروبيّ، وكان المهشم من نوافذه مغطّى بقطعة من البلاستيك.

وبما أنّ متحف سرايفو موجود قبالة الفندق الذي نقيم فيه، جازفت عن تهوّر، أنا وزميلي خوزي ماريا بالستار من المجلس الأوروبي، بالذهاب إلى المتحف الوطني سيرا على الأقدام إذ لم يكن من المطلوب غير عبور الشارع!

[98] ما لم يكن في الحسبان هو الخطر الذي يتصدّنا... أشار إلينا حرّاس المتحف بحركات تطلب منّا الركض تجنبًا للوقوع فريسة للقناصين الذين قتلوا قبل أسبوع، في هذا الشارع، مدير المتحف الوطنيّ. هذه لمحة عمّا يقاسيه مواطنو سرايفو الذين أبهروا العالم بشجاعتهم ومقاومتهم لحصار لم يفتّ في عزيمتهم، ولم ينل من معنوياتهم.

91 وثيقة الجلسة العامة لليونسكو (الدورة 28) حول وضعيّة التراث المعماري والمؤسّسات التربويّة والثقافية في البوسنة

والهرسك ص 2.

وفي النهاية، بعد أربع سنوات من النزاع الدامي في البوسنة والهرسك، مكن اتفاق دايتون الذي وُقِعَ في شهر أكتوبر سنة 1995 بقاعدة عسكرية ثم أُكِّد مفعوله في 14 ديسمبر 1995 بباريس، من وضع آليات استرجاع السلم في البلاد. وفي إطار هذا الاتفاق عُوِّضت قوَّات الحماية التابعة للأمم المتحدة بقوات الحلف الأطلسي (إيفور)، وأسندت مهمة تنسيق الجانب المدني من اتفاق السلام إلى أحد كبار المندوبين، السيد كارل بيلد.

وواصلت الأمم المتحدة من جهتها، القيام بعمليات في البوسنة والهرسك ولا سيَّما منظَّمة اليونسكو باعتبارها إحدى الوكالات المختصة في النظام وهي مذكورة بالتخصيص في الملحق 8 من اتفاق دايتون المتصل بحماية المعالم ذات القيمة الوطنيَّة.

إعادة بناء الجسر القديم

أتاحت هذه الوضعيَّة لمنظَّمة اليونسكو القيام بمهمَّتها في أحسن الظروف، وتلقينا من المدير العامَّ توجيهات واضحة جدًّا تدعو إلى مساندة [99] عمليَّة المصالحة، بدءا بإنشاء "لجنة حماية المعالم الوطنيَّة" ثم بالمشاركة الفعلية في تنسيق أحد أهمِّ مشاريع إعادة البناء وإعادة التأهيل للتراث الثقافي والمقصود بذلك إعادة بناء جسر مُستار القديم.⁹²

92 اللجنة التي أنشئت بناء على الملحق 8 من اتفاق دايتون كان من المفروض أن تتضمن خمسة أعضاء اثنان منهم يعينهما المدير العام. اقترحت علمين بارزين مختصين في مجال التراث الثقافي هما الأستاذ ليون تيرشوبير، نائب رئيس جامعة باريس 1 السربون، والأستاذ عز الدين باش شاوش المدير العام السابق للمعهد القومي للآثار والفنون (تونس)، الذي انتدبته اليونسكو بصفته مكلفا مهمة في قطاع الثقافة. أما الأعضاء الثلاثة الباقين الذين عينتهم السلطات البوسنيَّة فهم: السيد فخر الدين ريزفانيغوفيتش والسيد ميروسلاف بلاميتا ممثلين لفيديراليَّة البوسنة والهرسك، والسيد سيمو بردار ممثلا لجمهورية صربيا.

وفي 31 مارس 1996، حضر المدير العامّ أول اجتماع لهذه اللجنة التي تولى أمانتها زميلي لورون ليفي ستراوس المدير المساعد لقسم التراث الثقافي. وعملت هذه اللجنة، طيلة ثلاث سنوات تقريبا، على تسجيل كلّ معالم الفيدرالية ومواقعها وتدوينها في وثيقة الجرد الوطنيّ وكان ذلك ضمن رؤية تعطي الأولوية للتوافق والتخصيص إذ أنّ التراث الثقافيّ قد يكون له دور حاسم في عملية المصالحة. وفي الجملة تمّ تسجيل 546 ممتلكا على مدى ثلاث عشرة دورة عقدتها اللجنة.

أثناء المأموريات المختلفة التي تمّ تنظيمها، بين سنتي 1995 و1998، بالتعاون مع مكتب اليونسكو في سرايفو وفرعه في مستار، أمكن لي الالتقاء، في مناسبات كثيرة، بممثلي البلديتين، بلدية مستار الغربية [100] وبلدية مستار الشرقية، إذ أنّ المدينة ظلّت، بعد النزاع، مقسومة مدة سنوات وإلى حدود انتخابات 2002 التي تؤرّخ لتوحيد البلديتين⁹³.

وفي مقرّ منظمّة اليونسكو، طلبتُ آراء أعضاء المجلس العالمي للمعالم والمواقع، (إيكوموس) والمهندسين المعماريين للمواقع التاريخية، في شأن النموذج الذي يمكن أن يُعتمد في إعادة البناء والتأهيل، حتى يُشار به على السلطات المحليّة. أما المهندس الإيطالي أندريا برونو الذي طلبت منه استشارة تقنيّة، وهو المشهور بما أنجزه من أشغال ترميم في إيطاليا وفي

93 بمساعدة زميلي المهندس سينيسا سيسوم المسؤول عن وحدة الاتصال لليونسكو بمستار التي كانت تتولى ترجمة محادثاتنا، وكنت أؤكد على أنّ مسألة إعادة بناء جسر مستار هي حجر الزاوية مقارنة بالطلبات المختلفة الأخرى، ولا سيما المتعلقة بإعادة بناء كنائس ومساجد.

أفغانستان وقبرص وإسبانيا أيضا، فقد اقترح حلاً طريفا يعتمد طريقة بناء في قمة الحداثة بمادّة شفافة من نوع "البليكسيغلاس" تتخذ حجم الجسر وشكله.

هذا التوجّه كان مناقضا تماما لأغلبية الآراء التي تقترح بالأحرى، صيغة تقول "كما كان حيثما ما كان"، مثلما جرت بذلك السنّة الكلاسيكيّة في إعادة بناء المعالم المدمّرة. وهذا ما اختارته السلطات البلديّة وخبراء البوسنة والهرسك وأيدته اليونسكو.

كانت اليونسكو قد مؤّلت بعض الدراسات التحضيرية، ولكنّ الأمر اقتضى انتظار سنة 1999 والتزام البنك العالمي بتمويل مشروع إعادة بناء الجسر⁹⁴، حتى تنطلق الأشغال فعليًا.

[101] وانطلاقا من سنة 1998، كلّفني المدير العامّ فيديريكو مايوور باقتراح تركيبة لجنة دوليّة من الخبراء لإعادة بناء جسر مستار القديم وإعادة تأهيل برجى تارا وهيليبيجا اللذين يُطلّان عليه. وبالاتفاق مع سلطات البوسنة والهرسك تمّ، فعلا، في إطار هذا المشروع الاستثنائيّ، تكليف اليونسكو بتأمين عمليّة التنسيق العلمي والتقنيّ، ولا سيّما بالسهر على النزاهة الثقافيّة والأصالة المعماريّة.

94 إضافة إلى دول مانحة مثل كرواتيا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وتركيا، ومساعدة تقنية من فرنسا والاتحاد الأوروبي، ومساهمة من مؤسسة آغا خان للثقافة وصندوق معالم العالم وبنك المجلس الأوروبي للتنمية.

وعلى عين المكان في مستار، تمّ تعيين وحدة تنسيق لها مدير ومدير مساعد⁹⁵: "صرح مدير الوحدة أنّ عمليّة تطهير المَعْلَم وكثير من بناءات المدينة القديمة تمّت. وبقي اختيار المؤسسة التي ستعيد بناء قوس الجسر القديم. وقبل نهاية سنة 2003 سيؤمّن الجسر التواصل بين قسيمي المدينة (...). سيكون الجسر مماثلاً للجسر الذي بناه معمار حجر الدين، والتكنولوجيا المعتمدة ستكون حديثة إلا أنّ الموادّ ستكون هي نفسها (...). سيبنى الجسر الجديد بنفس حجارة المَعْلَم القديم (...). وممثّلو كلّ الشعوب في البوسنة والهرسك يساهمون في الأشغال. ونهاية إعادة البناء ستكون رمز انبعاث العلاقات بين هذه الشعوب (...). لو كان الجميع في هذا البلد ينسجون على منوالنا لكانت مشاكلنا أقلّ عدداً"⁹⁶.

[102] كان المسؤولان عن وحدة التنسيق يقدّمان، في كلّ اجتماع للجنة الدولية، تقريراً عن نسبة تقدّم الأشغال، ويناقشان مختلف المشاكل التي تعترضهم تدريجياً مع تقدّم الأشغال.

وقد تابعت، مع زملائي في قسم التراث الثقافيّ وفي مكتب اليونسكو بسرايفو، الاجتماعات الثمانية للجنة الدولية التي كانت تنعقد بمستار بين 2001 و2004، وسهرنا مع مدير اللجنة الأستاذ برّسووير على تطبيق ما صدر من توصيات، على أرض الواقع. وعلى هذا الأساس اقتضى منا الأمر التنقّل عدّة

95 السيد روسمير سيزيتش والسيد تيهومير روزيتش وكل منهما مهندس معماري أصيل مستار.

96 Mirza Cubro, "Reconstitution du pont de Mostar", article traduit par Jasna Tatar, dans *Pont de Mostar ; vers une paix dans les Balkans*, site www.paixbalkans.org/mostar.htm

مرّات إلى مُستار، مصحوبين أحيانا بالأستاذ برّسووير عندما تكون المسائل التقنية التي وجّهتها إلينا وحدة التنسيق المحليّة في حاجة إلى ردّ عاجل.⁹⁷

أشغال ذات رمزيّة عالية

ثلاثة أعضاء من اللجنة الدوليّة اختارتهم المجموعات العرقية، البوسنيّة والكرواتيّة والصربيّة التي كانت تعيش في المنطقة وبالتالي كان في الإمكان [103] الاتصال بهم على عين المكان في أيّ وقت. ولهذا الاختيار قيمة رمزيّة أيضا لأنّه يتيح تشريك ثلاثة مكوّنات من مجتمع البوسنة والهرسك، في هذه الأشغال التي تخصّ إعادة بناء معلّم ذي قيمة رمزيّة عالية.

وأبرزت استنتاجات اللجنة الدوليّة للخبراء في آخر دورة لها بتاريخ 08 أفريل/أبريل 2004، بوضوح أنّه "تبعاً للمجهودات والنتائج المتحصّل عليها، هوّيّة مُستار المعروفة بجسرها القديم تمّ ترميمها (...). ونحن نأمل بكل حزم أن يكون المعلم الذي أُعيد بناؤه رمز المصالحة وبداية التنمية المستدامة لمُستار ومنطقتها (...). ونوصي مجلس التراث العالمي بأن يعتبر إدراج مدينة مستار التاريخيّة (ستاري غراد) الواقعة حول الجسر القديم (ستاري موست)، في قائمة التراث العالمي، نظرا لما للمدينة القديمة وللجسر القديم المُعاد بناؤه من قيمة وتبعاً لما تمّ اتّخاذُه من ضمانات وإجراءات لا حفظا للمعلم فقط بل حفظا لمجمل الموقع التاريخي".

97 تضمّ الهيئة: ليون برّسووير، رئيس (فرنسا)، منير بوشناقي (اليونسكو)، عز الدين باش شاوش (تونس)، لوران ليفي ستراوس (اليونسكو)، سيفات إردر (تركيا)، زلاتكو لانغوف (البوسنة والهرسك)، ميلان غويكوفيتش (مُتوفّي، صربيا مونتينغرو)، فرهات مولايغوفيتش (البوسنة والهرسك)، ماكيال كيال (هولندا)، جيرلو نيسيبيوغلو (تركيا)، جورجيو مائي (إيطاليا)، إيدي دي ويت (بلجيكا)، غابي دولف-بونكمبر (ألمانيا)، ميخيلو مورافلوف (البوسنة والهرسك).

"في 23 جويلية/يوليو 2004، وبعبارات تحيش بالعواطف، احتفل عديد المسؤولين من المجتمع الدوليّ بتدشين جسر مستار القديم الجديد. كان مدير البنك العالمي، شانغمان زهانغ، قد اعتبر ضرورة إعادة بناء ستاري موسـت "فرصة خارقة للعادة من أجل إقامة المصالحة بين شعوب البوسنة والهرسك". أمّا الممثل السامي بادي آشداون فذكّر هو أيضا بأنّ هدم الجسر لئن كان لحظة تمثّل "غلبة الشرّ على الحضارة" فإنّ لحظة إعادة فتحه تمثّل "فوز إرادة تثبيت رمز الحضارة هذا من جديد"⁹⁸.

وأما المدير العامّ لليونسكو، [104] كواشيرو ماتسورا، الذي كان حاضرا في احتفال 23 جويلية/يوليو 2004، فأكد، من ناحيته، بشدّة، على ما تمثّله هذه العمليّة التي قادتها المجموعة الدوليّة لفائدة التراث الثقافي لمدينة مُستار، فقال: "إعادة بناء الجسر القديم اقتضت تعبئة واسعة، ويحضر اليوم عدد منكم هنا لتمثيل دول ومنظّمات ساهمت مساهمة كبيرة في رفع هذا التحديّ. فحضوركم في حدّ ذاته علامة على التزامكم المشترك بإقامة سلم حقيقيّة دائمة. منذ البدء، كان لإعادة بناء الجسر القديم مغزى رمزيّ رفيع، لأنّها تمثّل، في نفس الوقت، خطوة أولى من أجل النهوض من جديد، والتزاما من أجل المستقبل. ومن الواضح جدّا، أنّ هدم الجسر قد كان عملا رمزيّا يرمي إلى إزالة الأصول الثقافيّة المشتركة لهذا المجتمع. وفي الواقع، هذا الجسر رمز بارز لقدرة مجموعات عرقيّة مختلفة على العيش سويا طيلة قرون.

وحينئذ تكتسب إعادة بناء الجسر القديم بعدا أيقونيًا وتجسّد، قبل كلّ شيء، توقا إلى السلام وأملا في مستقبل أفضل. وهذا الجسر هو أيضا شعار المجهودات الثابتة لنظام الأمم المتحدة الرامية إلى إعادة السلم وتجديد الحوار والتواصل والتشجيع على إنشاء شراكات مثمرة. فبالنسبة إلى منظّمة اليونسكو، على وجه التخصيص، تجسّد إعادة بناء جسر مُستار القديم، زيادة على ذلك، الدور الأساسي الذي يمكن أن ينهض به التراث الثقافيّ باعتباره أداة تصالح وتسامح.

هذا التراث الذي كان بالأمس، مصدر مرارة عميقة، يمكن أن يُلهم أحاسيس أخرى وأن يساهم في المحافظة [105] على علاقات سلميّة بين مجموعات عرقيّة مختلفة. إنّي أرى في إعادة بناء جسر مُستار القديم وفي الآليات التي أطلقتها، دليلا على أنّ المسائل المتصلة بالتراث الثقافيّ تفتح آفاق التعاون والتقاسم".

التسجيل في قائمة التراث العالميّ

بقطع النظر عن هذه التظاهرة التي كانت أحد نجاحات فترة ما بعد الحرب في البوسنة والهرسك وفي مُستار على وجه التخصيص، أمكنني أن أرى على وجوه أهالي مُستار، الشباب والكهول، فرحة لا توصف. ورغم حلول الظلام، ظلّ الجسر عامرا بالناس، وتواصل الاحتفال إلى ساعة متأخرة من الليل.

وبعد ذلك، عدت إلى مستار عدّة مرّات في سنتي 2004 و2005، للعمل مع رئيس بلدية المدينة ولجنة حماية المعالم التاريخية في مستار⁹⁹، ولاستكمال ملف تسجيل "حي الجسر القديم لمدينة مستار القديمة" [ضمن التراث الثقافي العالمي].

ولا بدّ أن أذكر بأنّ الموقع لم تطرحه البوسنة والهرسك على هيئة التراث العالمي إلاّ سنة 1999. وكانت قد أدّت بعثته من المجلس الدولي للمعالم والمواقع زيارة للموقع سنة 2000، وقدمت توصية بدعم اقتراح تسجيل استثنائيّ من باب "المساهمة الإيجابية في حماية وإدارة هذا الموقع ذي التراث الثقافي المتعدّد والاستثنائيّ". ولكنّ اقتراح التسجيل تمّ تأجيله ثلاث مرّات، في 1999 و2000 و2003، بسبب مطالب إرشادات [106] تكميلية تخصّ المعايير، والحدود، وإدارة هذا الموقع.

أثناء دورة هيئة التراث العالمي المنعقدة في دوربن في 2005، طُرح الملف من جديد، ولكن بتقليص حدود المنطقة الواقعة حول الجسر القديم والمقترحة للتسجيل وخاصة بما عرفه الموقع من فخامة بعد نجاح عملية إعادة بناء الجسر.

وفي مدّة تزيد على الساعة، عرض أعضاء الهيئة وجهتي نظر، الأولى إيجابية تساند التسجيل على أساس المعيارين الرابع والسادس المقترحين من

99 مَعْبَة مهندستها المعمارية السيّدة سينادا ديميروفيتش، وكذلك المعهد الفيدرالي المسؤول عن حماية المعالم التاريخية ومديرته السيّدة عمرة هادزيمو حمدوفيتش.

المجلس الدولي للمعالم والمواقع¹⁰⁰، و في المقابل تعارض الثانية إدراج الموقع لكونه لم يعد يستجيب لمعيار الأصالة في تقديرها.

ليس من المألوف في دورات الهيئة أن يتدخل ممثل عن المكتب في النقاش. ولكن بدا لي، بصفتي مساعد المدير العامّ مكلفاً بالثقافة ولكوني تابعت كلّ مراحل المشروع في مستار، من المفيد أن أقدم تفاصيل تخصّ دور اليونسكو والطابع التقني والعلميّ البحث للهيئة التي أنشأها المدير العامّ وأسند رئاستها لمن كان هو ذاته خبير تقييم سابقاً في المجلس الدولي للمعالم والمواقع.

وفي نهاية الأمر دعا رئيس الهيئة¹⁰¹ إلى المصادقة [107] على قرار توافقيّ يقضي بتسجيل الموقع على أساس المعيار السادس، مع الاعتراف بما بذلته المجموعة الدولية من جهود من أجل إعادة البناء على أساس مقاربة علمية معمّقة ترمي إلى احترام الأصالة التاريخية بالقدر المستطاع.

وعمّ القاعة شعوراً جيّاش عندما تدخلت السيدة زليانا زوفكو، سفيرة البوسنة والهرسك لدى فرنسا واليونسكو، لتشكر كلّ الذين ساعدوا بلادها ومدينتها مستار على استرجاع وحدتها. وفي 15 جوبلية/يوليو 2005، بمدينة دوربن، أُدرج "حي الجسر القديم لمدينة مستار القديمة" في القائمة. وفي شهر جوبلية/يوليو 2015 تم إحياء الذكرى العاشرة لهذا الإدراج.

100 المعيار الرابع: أن تكون مثلاً بارزاً على نوعية من البناء، أو المعمار، أو مثال تقني، أو مخطط يوضح مرحلة هامة في تاريخ البشرية. والمعيار السادس: أن تكون مرتبطة بشكل مباشر، أو ملموس بالأحداث، أو التقاليد المعيشية، أو الأفكار، أو المعتقدات، أو الأعمال الفنية والأدبية ذات الأهمية العالمية الاستثنائية. (ترى اللجنة أن هذا المعيار يُفضل أن يكون استخدامه بالتزامن مع معايير أخرى).

101 السيّد تيميا واكاش.

وصرّحت السيّدة إيرينا بوكوفا، المديرّة العامّة لمنظمة اليونسكو بأنّ "مستار رمز قوويّ لما يمكن إنجازُه عندما يظلّ الناس متّحدين. إنّه يجسّد ما للثقافة من قدرة على بناء الجسور بين المجموعات البشريّة المختلفة. إنّي أدعم دعماً تامّاً سلطات البوسنة والهرسك وسلطات المجموعات العرقيّة الذين عقدوا العزم على أن يجعلوا تنوّعهم مصدر قوّة، قوّة من أجل السلم". وعلى غرار الردّ المقدمّ لوضع ما بعد النزاع في كمبوديا، كان للعمليات المنجزة في البوسنة والهرسك بعد النزاع، وقع إيجابيّ جدّاً على المجموعات العرقيّة المحليّة، رغم الصعوبات المتصلة بتشعب مثل تلك العمليات.

وقد كنت شاهداً على ذلك [الوقع الإيجابي]، أثناء تصوير حلقة من البرنامج [الوثائقيّ الفرنسي] "جذور وأجنحة" بمدينة مستار، في شهر جانفي/يناير، بمناسبة مرور أربعين سنة على اتفريقيّة اليونسكو لسنة 1972، وقد تمكّن البرنامج من تصوير الاحتفال الدينيّ لرأس السنة الأرثوذكسية في فرع كاتدرائيّة سانت ترينيتي [108] التي هي قيد الترميم، وتصوير قدّاس في الكاتدرائيّة الكاثوليكيّة "ماري مار دي ليغليز"، وخطبة الجمعة في مسجد كارادوزبيغوفا.

و ذكر كلّ واحد من الشخصيّات الدينيّة للمجموعات الثلاث، في الخطاب الموجّه إلى الحاضرين من ملّته، أهميّة إعادة بناء جسر مستار تحت رعاية اليونسكو، وأهميّة ترميم الكنائس والمساجد التي دُمّرت أثناء الحرب، لكون ذلك مدخلاً لعلاقة ودّ جديدة، ولانسجام بين ثقافات متنوّعة يعطي المدينة ثراءها وفرادتها.

القسم الثالث

[109]

[111] حين يصبح التراث هدفا مقصودا في النزاعات

استنجدت أفغانستان، بوصفها بلادا تواجه الحرب منذ سنة 1979، بمنظمة اليونسكو قصد حماية تراثها الثقافي الثري ومتحفها الوطني في كابول. وبفضل الموقع الاستراتيجي على مفترق الطرق المؤدية إلى الصين والهند وآسيا الوسطى والشرق الأوسط تعدّ أفغانستان، في نظر جميع المؤرخين، نقطة التقاء وتبادل منذ آلاف السنين، وتعكس ذلك، على وجه الخصوص، العلاقات التي جمعت بين سكّانها وبلاد فارس الأخمينية واليونان بلاد الاسكندر الأكبر، والتيارات الدينية الكبرى التي مثلتها البوذية والهندوسية والإسلام.

تقوم معاملها ومواقعها والقطع الفنية التي استخرجت خلال الحفريات الأثرية شاهدا على هذا الملتقى الثقافي الكبير الذي يتواصل عرض بعض من تحفه الفنية ذات القيمة الاستثنائية في متاحف عالمية مختلفة ولاسيّما متحف غيماي بباريس.

تدمير التراث الأفغاني من قبِل حركة طالبان

من بين المهامّ الأولى التي أوكلَ إليّ [112] تنظيمها فور التحاقني سنة 1982 بقسم التراث الثقافي، بناء على طلب من السلطات الأفغانية، مهمّة متابعة عمل المهندس المعماري أندريا برونو الذي كان قد فرغ آنذاك من

مشروع بناء مقرّ السفارة الإيطالية في كابول، والذي سيصبح واحدا من أفضل المتخصصين في التراث الثقافي الأفغاني خلال الخمسين سنة الأخيرة.

كان التقرير الذي رفعه المهندس أندريا برونو إلى اليونسكو مطلع سنة 1984، يتضمن فعلا تحذيرا استباقيًا. وكان متحف كابول الذي شُيّد على بعد ثمانية كيلومترات من وسط المدينة في ضاحية دارولامان وغير بعيد عن القصر الملكي، يُعدّ أهمّ متحف في آسيا الوسطى من حيث قيمة المجموعات المحفوظة فيه.

ولكن ما كان ينقصه هو فضاء تُحفظ فيه مجموعاته هذه في حالة حدوث أضرار جانبية، ولذلك وضع أندريا برونو تصميمًا لفضاء تحت الأرض كان من المتوقع أن يكون بمثابة "المخبأ المصفّح" تؤمّن داخله أثمان القطع. ولكن، لسوء الحظّ، لم يسمح المنعرج الذي شهدته الأحداث واستمرار الحرب بإنجاز هذا المخطّط الذي كان من المحتمل أن يكون مفيدا للغاية، كما سنبين ذلك لاحقًا، ومع ذلك لم يكن متحف كابول الإنجاز الوحيد في رصيد خبرة هذا المهندس المعماري.

كان الأمر يتعلّق أيضا بمئذنة جام التي لم تكن مهدّدة بالحرب، بل بانجراف الضفاف التي تجاور قاعدتها، هذا فضلا عن انعدام أعمال صيانتها وتعهّدها. فـ"على ارتفاع ألف وتسعمائة متر فوق مستوى البحر، وبعيدا عن أيّ مدينة رئيسية تنتصب مئذنة جام في واد شديد الانحدار على نقطة التقاء نهريّ هري-رود وجام. وهي مغطّاة بالكامل بزخرفة هندسيّة ناتئة يزيّنها [113] نقش كوفي الخطّ من القرמיד الفيروزي اللون. وقد شُيّدت المئذنة سنة

1194 على يد السلطان الغوري الكبير غياث الدين. ومن المرجح أن يكون موقعها دالاً على موقع مدينة فركوز التي يُعتقد أنها كانت العاصمة الصيفية لسلالة الحوريين¹⁰².

لم يكن بوسع منظمة اليونسكو أن تتدخل بشكل مباشر¹⁰³ لأنّ نظام طالبان غير معترف به لدى منظمة الأمم المتحدة، ومع ذلك سُمح لي رفقة زميلي كريستيان منهارت بمتابعة مشروع حماية المئذنة التي أدرجت أيضاً، في قائمة التراث العالمي منذ نهاية حكم نظام طالبان سنة 2002.

ومع ذلك استمرّت رحلات أندريا برونو إلى كابول أو هرات وجام، وتواصلت تقاريره التي يرفعها إلى قسم التراث الثقافي باليونسكو. وقد استظهر بوثيقة مدهشة أطلعني عليها عند عودته من إحدى الزيارات التي قام بها إلى جام، وهي تحمل توقيع حركة طالبان ببصمة الإبهام، وتقضي بالسّماح له بالجولان إن جاز أن نسّمّي الأمر كذلك.

لعلنا كنّا سنكتفي بالتهكّم من هذا السلوك الفريد لو لم تكن عناصر طالبان تمارس في نفس الوقت، عمليات ابتزاز للسكّان لا توصف، وتقوم بتدمير ممنهج للتراث الثقافي الذي كانوا يعتبرونه متعارضاً مع تأويلهم للإسلام. وخلال فترة حكمهم للبلاد الذي استمر لبضع سنوات، لحقت بالتراث [114] الأفغاني خسائر لا تعوّض، إذ تمّ نهب المتاحف وتخريب المواقع الأثرية عن طريق حفريات عشوائية وحشية.

102 نص مستمد من وثيقة اليونسكو- مركز التراث العالمي. (whc.unesco.org/fr/list/211)

103 خلال الفترة التي عرفت باسم "المرحلة الرابعة من حرب أفغانستان" والتي انطلقت في سبتمبر 1996 عندما استولت عناصر طالبان على العاصمة كابول وأرست ما سمّته "الإمارة الإسلامية بأفغانستان"، وانتهت في أكتوبر 2001.

مئات المواقع الأثرية تتعرض إلى النهب في كل أرجاء البلاد

حسب أقوال مدير المتحف الوطني بكابول، تعرّضت أكثر من سبعين ألف قطعة أثرية للنهب أو لمجرّد الإتلاف باسم الدين. وقد تمكّنت من معاينة هذا الأمر خلال المهمة الأولى التي تمّ تنظيمها في كابل خلال شهر ماي/مايو 2002، وذلك أثناء زيارة دهاليز وزارة الثقافة حيث نُقلت مخزونات المتحف في صناديق بهدف حماية القطع من الاتّجار غير المشروع. إنّ كل التماثيل والتماثيل النصفية التي تعود إلى التقاليد البوذية والتي لم تتعرض إلى السرقة تعرّضت للتهشيم بالفؤوس. وسنبيّن لاحقا أن عناصر طالبان كانوا يمثّلون، في هذا المجال، على نحو ما، المنظرين للمجموعات الإرهابية التابعة لداعش أي لتنظيم الدولة الإسلامية في العراق وبلاد الشّام التي ستظهر بعد حوالي عشرة أعوام من ذلك التاريخ.

وقد أشار روني تيجغلر في مقال له إلى أنّ "الحكومة تقدّر وجود ألفين أو ربّما ثلاثة آلاف موقع أثري في أفغانستان، يضاف إليها مائة موقع جديد كل سنة حسب ما تذهب إليه "البعثة الأثرية الفرنسية في أفغانستان"¹⁰⁴. ولقد تعرّض نصف المواقع إلى السرقة، وتمّ تهريب عدد كبير من القطع الأثرية النفيسة إلى الخارج بطريقة غير شرعية... ويبدو أنّ كامل المنطقة الشمالية من البلاد قد تعرّضت بعدد إلى النّهب حتى أنّ البعض يقدر أنّ حوالي 80 % من ماضي أفغانستان التاريخي الغني جرّد من ثقافته المادّية"¹⁰⁵.

104 البعثة الأثرية الفرنسية إلى أفغانستان (FADA).

105 روني تيجغلر، "دور المؤسسات الوطنية والدولية في مكافحة الاتّجار غير المشروع بالتحف الثقافية"، "سيروارت (15

نوفمبر 2012): <https://ceroart.revues.org/2891>

[115] وفي هذا الصدد كانت إحدى أكثر التجارب المُحِبطة التي عشتها في اليونسكو أثناء الصراع في أفغانستان، تتمثل في تدمير تمثالي بوذا في باميان خلال شهر مارس 2001. ويقع وادي باميان في قلب جبال الهندو-كوش على بعد حوالي مائتين وخمسين كيلومترا شمال غرب كابول.

خلال القرون الأولى من العصر المسيحي، كان وادي باميان يُستخدم من قِبَل قوافل كثيرة تسلك طريق الحرير المشهورة وعن طريقها استطاع الرهبان البوذيون أن ينشئوا فيه مركزا بوذيًا هامًا قال عنه الحاج فا حسين القادم من الصين سنة 404 إنَّ فيه "تجمُّعا عظيما من الرهبان وفدا بأعداد كبيرة حتَّى أنَّهم يبدون كأنَّهم أسراب".

"وكان من أعظم أعاجيب باميان هذان التمثالان الضخمان لبوذا المنحوتان في الصخر الرملي الذي يتكوَّن منه جرف مُشرف على المدينة من جهة الشمال. وكان ارتفاع أقدم التمثالين وأكبرهما يبلغ ثمانية وثلاثين مترا بينما يبلغ ارتفاع الثاني خمسين مترا. وبين هذين التمثالين وما حولهما متاهة منقورة في الصخر بإتقان وتضمُّ خلوات الكهَّان ومواقع التَّعبُد. وكانت السَّقوف والجدران مصقولة بالطِّين المخلوط بالتِّين وتكسوها لوحات تجسِّد مشاهد وعظيمة، ومن المحتمل أن يعود تاريخ تمثالي بوذا إلى القرنين الثالث أو الرابع، إلا أنَّ معظم اللوحات أُنجِزَتْ خلال القرن السابع"¹⁰⁶.

106 اليونسكو، الرسالة الجديدة، أكتوبر 2002، ص 48.

[116] التصدي لهدم تمثالي بوذا في باميان

تفصلنا، حوالي خمس عشرة سنة، عن كارثة هدم تمثالي بوذا في باميان التي قررها زعيم نظام طالبان الملاً عمر في نهاية شهر فيفري/فبراير 2001. وقد حدث هذا رغم أنه سبق له مطلع سنة 1998 أن أصدر الأمر بالمحافظة على التراث التاريخي، وبسحب المتفجرات التي سبق زرعها داخل الفجوتين اللتين ينتصب داخلهما التمثالان وذلك بعد تدخل المدير العام لمنظمة اليونسكو.

تمّ إعلام اليونسكو بالقرار الجديد الذي اتّخذه الملاً عمر والقاضي بهدم تمثالي بوذا في وادي باميان، وقد جرى ذلك عن طريق مكاملة هاتفية أجراها يوم 27 فيفري/فبراير 2001 سفير اليونان في باكستان الذي كان آنذاك في مهمة في قندهار بأفغانستان زمن حكم طالبان. كان المدير العام كويشيرو ماتسورا يؤدّي زيارة رسمية إلى الجزائر، وكنت أرافقه عندما نهتني زميلتي السيدة لندال بروت مديرة قسم التراث الثقافي. فقد أعلمتني بفحوى رسالة السفير اليوناني وبأمر الملاً عمر. فأبلغت الأمر إلى المدير العام على الفور. وكنت مندهشا للغاية، ولكنّي مازلت واثقا من أننا نستطيع ردّ الفعل وإيقاف تنفيذ هذا القرار الذي نعتبره عبثًا.

عندما أمر زعيم طالبان بموجب مرسوم 26 فيفري/فبراير 2001 بتدمير تمثالي بوذا بباميان، أطلق السيد ماتسورا عددا كبيرا من المبادرات للضغط على النظام وإفشال هذا المرسوم. وقد طلب منّي، ونحن في طائرة العودة من الجزائر إلى باريس، متابعة هذه المسألة وتقديم خطة ردّ.

لقد سبق، منذ سنة 1998، أن أُطلقت تهديدات [من هذا القبيل]، [117] ودعت اليونسكو على لسان مديرها العام السابق فيديريكو مايوور إلى احترام هذا التراث الألفي: إذ عمد قائد من طالبان إلى الاعتداء على رأس بوذا الصغير ووضع ذخائر قابلة للتفجير في قاعدتي الفجوتين اللتين تضمّان تمثالي بوذا.

آنذاك، غير الملاً عمر موقفه تماماً، وأصدر في جويلية/يوليو 1999 مرسوماً ينصّص على وجوب الحفاظ على تمثالي بوذا. وقد ذهب صحافي في الغارديان إلى أنّ الملاً ذكر "أنّه لم يعد هناك بوذيون في أفغانستان، واعتبر أنّ التمثالين يمكن أن يكونا نموذجاً على مصدر محتمل يدرّ مداخيل مالية على البلاد بفضل الزوّار من كلّ بقاع العالم"¹⁰⁷.

إثر العودة من زيارتنا الرّسمية إلى الجزائر، وصف كويشيرو ماتسورا قرار تدمير التمثالين في أفغانستان بأنّه "كارثة ثقافية حقيقية"، وحثّ الأفغان على منع تدمير هذا التراث الثمين بالنسبة إلى الجميع. وقد جاء في تصريحه قوله خاصّة "إنّ التدمير الأعمى للتماثيل لن يغيّر التاريخ، بل سيقتصر على حرمان أفغانستان الغد من إحدى ثرواتها. وأنا أحتّ جميع من يعينهم الأمر، وفي مقدّمتهم الأفغان أنفسهم، على بذل قصارى جهودهم لحماية هذا التراث الثّقافي الفريد. إن فقدان التماثيل الأفغانية ولا سيّما تمثالي بوذا في باميان سيشكلّ خسارة للبشريّة جمعاء".

107 لوك هاردنغ، ذي غاردين، السبت 3 مارس 2001.

وتابع قائلاً "إن مرتكبي هذه الفعلة التي لا يمكن تلافي نتائجها، سيتحمّلون مسؤولية رهيبية أمام الشعب الأفغاني وكذلك أمام التاريخ". وختاماً، خلص إلى القول "ما يمثل هذه التصرفات يمكن أن يأملوا في اكتساب مصداقية لدى [118] الرأي العامّ ولدى المجموعة الدوليّة".

من جهته، وجّه كوفي عنان الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة، "نداء عاجلاً" لطالبان "لكي يبذلوا كلّ ما في وسعهم للحفاظ على المعالم الفريدة التي لا تعوّض من الموروث الأفغاني الثمين سواء ما كان منه إسلامياً أو عائداً إلى ما قبل الإسلام"، كما ذكّر بأنّه سبق للجمعية العامّة أن دعت كافة الأطراف الأفغانية إلى حماية الآثار والمعالم الثقافية والتاريخية التي تمثّل جزءاً من موروث الإنسانية المشترك".

آنذاك، نشرت وكالة الأنباء الأفغانية الإسلاميّة مقابلة مع المملأ عمر برّر خلالها أمره بالتدمير مؤكّداً على أنّ الأمر "ليس سوى كسر حجارة. إنّ الشريعة الإسلاميّة هي الوحيدة التي أقبلها"، مضيفاً أنّ "الحفاظ على هذه التماثيل مخالف للإسلام، في حين أنّ تحطيمها ممّا أمر به الإسلام وإنّ بعض الناس يؤمنون بهذه التماثيل ويصلّون لها" ثم أضاف مؤكّداً أنّ نظامه "لا يسمح بهذه المعتقدات".

وخلافاً لبعض الانتقادات التي صدرت من هذه الجهة أو تلك، حصل بالفعل ردّ فعل قويّ من اليونسكو مباشرة في اليوم الذي تلا قرار المملأ عمر، من خلال مناشدة "الأفغان" لا "السلطات الأفغانية" التي لم تكن تحظى باعتراف منظمّة الأمم المتحدة واليونسكو.

إنشاء خلية أزمة

نظّم المدير العامّ، فور عودته من الجزائر، اجتماعاً أوّل يوم غرة مارس 2001 ضمّ جميع السفراء والمندوبين الدائمين لدى اليونسكو [119]، وعُقد الاجتماع في مناخ من التوتر يعود سببه إلى أنّ طالبان قد اختاروا بدقّة موعدَ نشر قرارهم أي قبل عشرة أيام من الاحتفال بعيد الأضحى، وهو أحد أهمّ عيدين دينيين في الإسلام.

كانت الفترة فترة عطلة في أغلب البلدان الإسلامية، وبصفة أخصّ في المملكة العربية السّعوديّة، حيث يُعتبر هذا الاحتفال من الشّعائر البارزة في موسم الحجّ السنوي إلى مكّة. ثم إنّ هذا التزامن بين القرار والتقويم الديني سيجعلنا في الأمانة العامة لليونسكو أمام بعض الصعوبات ذات العلاقة بيسر الاتّصال بعدد من المسؤولين في العالم الإسلامي.

إثر ذلك كوّن السيد ماتسورا خلية أزمة ملحقة بديوانه¹⁰⁸، وعيّنت منسّقا للتحرّكات التي يجب إجراؤها ردّاً على أمر تدمير تمثاليّ باميان.

بادرت، منذ يوم 1 مارس، إلى الاتصال من جهة بالسفير الجزائري الأخضر الإبراهيمي الذي كان آنذاك يشغل خطة المستشار الخاصّ لدى الأمين العامّ للأمم المتّحدة، ومن جهة أخرى بسفير فرنسي سابق بباكستان له دراية جيّدة بالقضايا المتعلّقة بأفغانستان. فرفض الإبراهيمي العرض، ولكنّ السفير بيار

108 السيدة فرانسواز ريفيار مديرة الديوان، السيد أحمد السيد المدير العام المساعد المكلف بالعلاقات الخارجية، السيد فرانشسكو بندران، مدير مركز التراث العالمي، وكاتب هذه السطور عندما كنت مكلفاً بوظيفة المدير العام المساعد للثقافة.

لافرانس وافق على الفور على عرض المدير العام ليكون مبعوثه الخاص إلى أفغانستان.

وفي أقل من أربع وعشرين ساعة، وبفضل دعم وزارة الخارجية الفرنسية ووزارة الداخلية [120] في باكستان تمكّن السيد بيار لافرانس من الوصول إلى قندهار حيث يوجد معظم أعضاء حكومة طالبان ومن ضمنهم المُلّا عمر.

وبمناسبة افتتاح الندوة الدولية للتراث العالمي في آسيا الوسطى يوم الجمعة 2 مارس 2001 بمقرّ منظمة اليونسكو صرّح كويشيرو ماتسورا قائلاً "لقد اخترتُ شخصية معروفة وتحظى بالاحترام في المنطقة وعليمة بقضايا الشرق الأوسط وآسيا الوسطى". كما استعرض المدير العام أمام المشاركين في هذه الندوة المبادرات التي تمّ بعدُ اتّخاذها بهدف "قلب هذا التحرك السائر في اتّجاه العبث والذي شرعتُ فيه سلطاتُ كابول".

ضمن أمانة قطاع الثقافة باليونسكو كوّنتُ فريق عمل¹⁰⁹ ساعدني في الاتصالات التي أجريناها مع مختلف الوفود الدائمة ومع أهم المؤسسات غير الحكومية المتخصّصة في حماية التراث الثقافي (إيكوموس وإيكوم) وكذلك مع جمعية حماية التراث الثقافي الأفغاني.

وهنا لا بدّ أن أوكدُ أن المسألة كانت سباقا حقيقيا مع الزمن لمحاولة التحرك بأكبر قدر ممكن من النجاعة قبل التاريخ المحتوم المحدّد لتدمير تمثالي بوذا العملاقين في باميان.

109 ضمّ السيدة باولا ليونشيني برتولي مديرة المكتب التنفيذي، والسيد كريستيان منهارت، المختصّ في البرمجة.

وفي لقاء مع وسائل الإعلام يوم 6 مارس 2001، أشرتُ إلى أنشطة حماية التراث الأفغاني التي نفذتها أو دعمتها اليونسكو خلال السنوات الماضية وأشرت أيضا إلى إنشاء صندوق مساعدة خاص بالمعلم في أفغانستان.

[121] وألححت على أن قرار طالبان قد أدين بالإجماع في كل أرجاء العالم سواء من قبل البلدان ذات الكثافة السكانية البوذية أو من البلدان الإسلامية، وأن، هذه الدول الثانية تعتبر أنه لا توجد أيّ حجة دينية جدية يمكن أن تتخذ أساسا لهذه الحركة المعادية للتماثيل.

وتحت إشراف المدير العام، انطلقت على الفور سلسلة من الإجراءات الهادفة إلى جلب انتباه الشخصيات السياسية والدينية التي يُقدّر أن يكون لها تأثير على طالبان، وبناء على هذا، أصدرت مجموعة المندوبين الدائمين العرب لدى اليونسكو، منذ انطلاق هذه الأزمة، بيانا صحفيا يدعو إلى "تعبئة دولية حول إجراءات ملموسة من أجل وضع حدّ لهذا العمل غير المسبوق الذي يُسيء إلى كنوز من التراث العالمي لا تقدر بثمن".

ويجب أن نذكر في هذا الصدد، أنّ بيار لافرانس اتّصل بي هاتفيا منذ يوم 3 مارس ليخبرني أنّه على الرغم من اجتماعه بوزير الثقافة ووزير الشؤون الدينية في حكومة طالبان تمّ التمسك بقرار تدمير تمثالي بوذا لأنّه متعلّق تمام التعلّق بتأويل مبدأ ديني، وبالتالي ليس المحاور المناسب في هذه الأزمة الخطرة.

وقد أكدت له طالبان أن قرارهم لا رجوع فيه، إذ قال له وكيل أحمد متوكل وزير الشؤون الخارجية الأفغاني "هل سبق لك أن رأيت إمارة أفغانستان الإسلامية تتراجع عن أي قرار من قراراتها؟". ورغم ذلك، واصل السيد لافرانس مهمته بصفته مبعوثا خاصا للمدير العام لليونسكو، فتنقل إلى المملكة العربية السعودية باعتبارها دولة يمكن أن يكون لها [122] بعض التأثير على عناصر طالبان، ثم عاد إلى باريس ليقدم تقريرا عن مهمته.

تعبئة دعم البلدان الإسلامية

آنذاك، أصبح الأمر بالنسبة إلينا في اليونسكو سباقا حقيقيا ضد الساعة. وبفضل دعم سفراء الدول العربية والإسلامية لدى اليونسكو، ولا سيما إيران والمغرب الأقصى وقطر وسوريا أفلحت في تحسيس سلطتين دينيتين إسلاميتين مهمتين عبرتا علانية عن وجهة نظر معارضة لموقف تنظيم طالبان الأفغاني من مسألة تدمير "الصنمين" المبني على اعتبار تمثالي بوذا في باميان صنمين لا تمثالين.

ثم إن الدور الذي قام به هؤلاء السفراء¹¹⁰ الذين عبروا عن دعمهم الكامل لليونسكو، يستحق اعترافا حقيقيا بالفضل، إذ لولا دعمهم هذا ما كان لأي إجراء حاسم أن يتم.

110 السيدة عزيزة بناني المندوب الدائم للمغرب الأقصى لدى اليونسكو، السيد أحمد جلال المندوب الدائم لإيران لدى اليونسكو، السيد علي زينال المندوب الدائم لقطر لدى اليونسكو، إلى جانب الفقيه أمين إسبر المندوب الدائم لسوريا لدى اليونسكو.

فبفضل دعمهم ونصائحهم، تمكّنتُ من الاتصال بشخصيةٍ مصريّةٍ دينيةٍ مرموقةٍ تعيش في دولة قطر وحسّستها بالموضوع، وأعني بذلك الشيخ يوسف القرضاوي. وقد توصلتُ إلى إقناعه خلال محادثة هاتفيةٍ طويلةٍ بالتحوّل إلى أفغانستان قصد محاولة إلغاء الأمر القاضي بتدمير تماثليّ بوذا الذي قرّره نظام طالبان.

ثم إن الشيخ يوسف القرضاوي [123]، الذي يحظى بتقدير كبير في العالم الإسلامي، والذي مازال يقيم في الدوحة إلى حدّ الآن، أعلن آنذاك لقناة الجزيرة أنّ "التمائيل التي أقامها القدماء قبل ظهور الإسلام إنما هي جزء من التراث التاريخي. فعندما دخل المسلمون أفغانستان في القرن الأول للهجرة كانت هذه التماثيل قائمة، ولكنهم لم يهدموها. أنا أنصح إخواننا في حركة طالبان بإعادة النظر في قرارهم لما يتضمّنه من خطر ومن تأثير سلبيّ".

أمّا صبري عبد الرؤوف، رئيس قسم الدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر بالقاهرة فقد وضح من جهته قائلاً "إنّ التماثيل التي تتخذ للعبادة يمكن تحريمها بوصفها تتعارض مع الإسلام، أمّا التماثيل التي لم تتخذ للعبادة فهي غير محرّمة".

وبوساطة من السيد مفيد شهاب، وكان آنذاك وزيراً للتعليم العالي بمصر ورئيساً للجنة الوطنية المصرية لليونسكو، الذي طلبتُ منه المساعدة على حلّ هذه الأزمة، أمكن للسيد ماتسورا إجراء محادثة هاتفيةٍ مع الرئيس المصري حسني مبارك. وقد قبل على الفور تسهيل عملية إرسال وفد من الشخصيات

الدينية المصرية إلى قندهار يوم 8 ماي/مايو 2001 بهدف التعبير لسلطات طالبان عن قلقها إزاء التأويل الخاطئ للشريعة الإسلامية كما يفهمها طالبان.

كنتُ حاضراً أثناء هذه المحادثة الهاتفية، ويمكنني أن أنقل أنه بناء على طلب المدير العام لليونسكو بتكليف شيخ الأزهر¹¹¹ بمهمة في أفغانستان، كان ردّ الرئيس حسني مبارك إيجابياً جداً [124] ولا لبس فيه [إذ قال] "عزيزي المدير العام، لا نرسل شيخ الأزهر وحده، بل سيكون معه مفتي مصر".

وهكذا، وبفضل المساعدة القيّمة التي قدّمها سفير قطر الذي استطاع أن يحصل من سلطات بلاده على طائرة خاصّة، أمكن لوفد من رجال الدين، يتكوّن من حوالي خمسة عشر شخصاً، أن يسافر إلى قندهار لمدة يوم واحد.¹¹² كان إرسال اليونسكو لهذا الوفد الهامّ المتكوّن من أربع عشرة شخصية دينية في الجملة، واحدة من فرصنا الأخيرة لإقناع الملأ عمر بإلغاء أمره بتدمير تمثالي بوذا. وعند الوصول إلى قندهار، بفضل طائرة وضعها أمير قطر على ذمّة اليونسكو،¹¹³ استطاع هذا الوفد إجراء محادثات مع وزير طالبان للشؤون الدينية الذي كان يسمّى وقتها "وزير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" ومع الوزير الأفغاني للشؤون الخارجية.

111 أعلى سلطة دينية في جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة.

112 كان الوفد برئاسة الدكتور نصر فريد وصال مفتي مصر، ويضمّ الأمين العام المساعد الملّكف بالشؤون السياسية لدى منظمة المؤتمر الإسلامي، إبراهيم باقر، الشيخ يوسف القرضاوي من الدوحة، الشيخ محمد الراوي العالم بجامعة الأزهر، الكاتب المعروف في العلوم الإسلامية فهمي الهويدي، ومختصّين آخرين في الشريعة الإسلامية.

113 حمد بن خليفة آل ثاني.

ذوال بلا رجعة لتمثالي بوذا في باميان

ولكن للأسف، لم توقّف في قندهار أي تسهيلات للبعثة لا للقاء الملاً عمر ولا لإقناع مستشاريه في "مجلس الشورى" بالتراجع عن تطبيق الأمر بالتدمير. وكما تابعنا ذلك مباشرة على القنوات التلفزيونية تمّ، في نهاية المطاف، تدمير تمثالي بوذا [125] بين يومي 9 و11 مارس، أي بُعيد عيد الأضحى الذي أُحتفل به يوم 8 مارس في المجتمع الإسلامي قاطبة.

ومع ذلك، من واجبي أن أذكر أنه بعد إخطاري بفشل وفد رجال الدين المسلمين في قندهار، كنت قد عمدتُ، في محاولة أخيرة، إلى الاتصال بالسيدة آريا عناية الله الرئيسة السابقة للمجلس التنفيذي لليونسكو ووزيرة الشؤون الاجتماعية في باكستان آنذاك، ورجوتُ منها التّدخل لدى الرئيس مشرفّ عسى أن يتدخّل لدى سلطات طالبان.

فأجابتنني، بأسف، بأنّ الرئيس غير موجود في إسلام آباد لأنّه بصدد أداء مناسك الحجّ في مكّة، ومع ذلك تمكّنتُ من تحسيس وزير داخلية باكستان السيد معين الدين حيدر بالمسألة، ثم رافقته إلى قندهار يوم 9 مارس، وكان هو الوحيد الذي تمكّن من مقابلة الملاً عمر الذي كان يرفض مقابلة النساء، وقد وضح له الملاً عمر بأنّه لا يستطيع أن يخالف أمر الله.

يُحكى، فعلا، أنّ الملاً عمر رأى في المنام، أنّ الله لامه على كونه يحكم إمارة إسلامية ويذرّ الأصنام قائمة في وادي باميان. ويروى أنّه جمع مجلس الشورى ليقصّ عليه رؤياه، وبناء على ذلك فسّر هؤلاء الرّؤيا بأنها إشارة إلهية عليه أن يُطيعها...

كان الملاً عمر يرى أن إصداره الأمر بتدمير تمثالي بوذا في باميان يعود إلى أن "هذه التماثيل مخالفة لأحكام الإسلام"، وأنّ تحطيمها من أوامر الإسلام. وقالت إذاعة الشريعة، وهي الإذاعة الرسميّة للنظام، نقلا عن الملاً عمر "إنّ قرار هدم التمثالين [126] مؤسس على أوامر الله سبحانه وتعالى".

أمّا ما حدث بعد ذلك فهو للأسف معلوم لأنّ قناة الجزيرة صورته بين 9 و11 مارس، وتبيّن بوضوح أن الأمر متعلّق بتفجير تمّ الإعداد له بعناية من طرف مختصّين في التفجير بهدف سحق التمثالين العملاقين.

لقد تمّ بذل كل ما أمكن من الجهد من أجل تجنّب هذه اللحظة المشؤومة، ويمكنني أن أقول من جهتي إنني ما غادرت مكنتي طيلة عشرة أيام تقريبا: وستظلّ الأيام العشرة الأولى من شهر مارس 2001 محفورة في ذاكرتي. كم كان الشعور بالإحباط لديّ، ولدى زملائي الذين ساعدوني خلال تلك المدّة، كبيرا أمام عبثيّة ما بذلناه من جهود وفشل كلّ ما قمنا به معتقدين أنّ النفوذ المعنوي لليونسكو هو الذي سينتصر في النهاية على الجهل والفكر الهدّام.

ومع ما نلاحظه، يوما بعد يوم، بفعل تنامي النزاعات والاعتداءات على التّراث خلال ما يعقب ذلك من عمليات، يظلّ عملنا داخل اليونسكو في أغلب الأحيان موضوع توتّر مردّه تناقض بين ضرورة تعقّب المسؤولين من أجل إنزال عقوبة لها ما يبرّرها تمام التبرير، وضرورة أن نعمل على أن يظلّ التّراث عنصرا مساعدا على الحوار والمصالحة.

إنّ الإعلان المتعلق بالتدمير المتعمّد للتراث الثقافي والذي صادق عليه المؤتمر العامّ لليونسكو يوم 17 أكتوبر 2003 وُجد ليعزّز مدوّنة غنيّة باتّفاقيّتين وبرتوكولين تضبط الأحكام القانونية الواجب تطبيقها من أجل حماية التراث الثقافي.¹¹⁴

[127] وفضلا عن ذلك، فإنّ الخبرة التي اكتسبتها منظمّة اليونسكو في العمل الميداني في كمبوديا وجنوب شرق أوروبا ولبنان وأفغانستان والعراق وتيمور الشرقية هي خبرةٌ تبعث على الأمل في أننا سنتمكّن من مواصلة برنامج المحافظة على التراث الثقافي وتعزيزه بهدف إعادة البناء من جهة والحوار والمصالحة من جهة ثانية. أمّا الجانب المتعلّق بالعقوبات المُمكنة فلم يتمّ الخوض فيه بالقدر الكافي في النصوص المعيارية للمنظمة.

ردّ فعل العالم الإسلامي: إعلان الدوحة

للإجابة عن الأسئلة الكثيرة التي تلقّتها اليونسكو بعد تدمير تمثالي بوذا في باميان، ووضع حدّ للتأويلات الخاطئة المتعلقة بمسألة "الشريعة الإسلامية والتراث الثقافي" كنتُ قد اقترحتُ على المدير العام كويشيرو ماتسورا تنظيم ندوة للمختصّين في الشريعة الإسلامية تتناول هذا الموضوع بالذات.

بعد ثمانية أشهر من التحضير¹¹⁵، عُقد هذا المؤتمر في الدوحة في الفترة المتراوحة بين 29 و31 ديسمبر 2001، وذلك بمناسبة الاجتماع الثالث لوزراء

114 نص إعلان اليونسكو لسنة 2003.

115 كان الإعداد مهمّة زملائي ومساعدة السفراء المندوبين المفوضين التابعين للبلدان ذات العضوية في منظمة المؤتمر الإسلامي.

الثقافة في العالم الإسلامي. وقد نظّمت لقاءات مع مختصين في الفقه الإسلامي من حوالي ثلاثين بلدا ينتمون إلى مدارس وتيارات إسلامية مختلفة. وعلى هذا النحو، تمكّننا من تجميع عدّة تقارير حول مسألة [128] "الإسلام والتراث الثقافي" حرّرها خبراء في الفقه ينتمون إلى مدارس شيعيّة وسنيّة، بل حتّى من مدرسة ديوبندي الهندية وهي أحد مصادر تكوين طالبان.

جرى الإعداد لهذه الندوة التي استطاعت أن تأخذ في الاعتبار جميع هذه التقارير بالتّشارك بين ثلاث منظمات دوليّة وهي اليونسكو والإيسيسكو¹¹⁶ والألكسو¹¹⁷. وإثر ذلك، افتتحتها الأمانة العامّة للمنظّمات الثلاث: كواشرو ماتسورا، وعبد العزيز عثمان التويجري ومنجي بوسنيّة وبحضور سمو أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني. وقد نوقشت ورقتنا عمل بتعمّق، وأولاهما أعدّها الأستاذ الأنصاري من كلية الحقوق بجامعة قطر، أما الثانية فقدّمها آية الله محسن اراكي مدير المعهد العالي للدراسات الإسلامية بلندن.

ومن ضمن الشخصيات التي وجّهت إليها الدعوة، يمكن أن نشير إلى حضور معالي صبغت الله مجدّدي المتخصّص الأفغاني في الشريعة الإسلامية والرئيس السابق بالنيابة للجمهورية الإسلامية بأفغانستان إثر سقوط حكومة محمد نجيب الله سنة 1992، وهو الذي أصبح إثر ذلك سنة 2003 رئيس اللويا جرغا¹¹⁸ التي صادقت على الدستور الأفغاني الجديد، ثم رئيسا لمجلس النواب إلى سنة 2011.

116 منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة.

117 المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

118 جلسة عامّة انعقدت قصد اتخاذ القرارات الكبرى التي تهّم الشعب الأفغاني.

وفي ختام هذا المؤتمر الذي ترأسه الشيخ يوسف القرضاوي¹¹⁹ تمّت المصادقة على إعلان [129] الدوحة.

يمكن أن نذكر منه على وجه الخصوص أنّ العلماء المسلمين الذين شاركوا في الندوة قد بينوا أن موقف الإسلام من مسألة حماية التراث الثقافي البشري ينبع من احترامه للقيم الإنسانية الطبيعية واحترامه لمعتقدات الشعوب.

وقد أكّدوا على أنّ الأمر هنا يتعلّق بموقف مبدئيّ عام يعود إلى جوهر الدين الإسلامي ذاته، وأنّ أيّ تصرّف فرديّ أو جماعيّ خارج عنه لا يمثل بأيّ حال من الأحوال موقف الإسلام الذي يعبرّ عنه العلماء والخبراء في الشريعة الإسلامية.

ثم إنّ العالم الإسلاميّ المحافظ، يوسف القرضاوي، هو ذاته من تولىّ من فترة قريبة، نشر مقال في شأن رأي الإسلام في تدمير المواقع الأثرية¹²⁰ عنوانه "حكم الإسلام في المحافظة على الآثار"¹²¹.

"لقد جاء الإسلام ليبنى لا ليهدم وليضيف لا ليبيد، وليقيم حضارة ربّانية إنسانية أخلاقية عالمية تستفيد من كلّ الحضارات السابقة وتأخذ منها أفضل ما فيها، وتنزّه عن سيّئاتها ومثالبها.

119 وهو الذي تولىّ رئاسة وفد الشخصيات الدينية الذي زار قندهار في أفغانستان في بداية مارس 2001.

120 الشيخ يوسف القرضاوي، "فتاوى معاصرة"، الجزء 7، صص 615-617، وهو فصل ترجم ونشر في "مرقأ المعرفة" (Havre de savoir) يوم 12 أكتوبر 2015.

121 هذا هو العنوان الوارد في الكتاب المطبوع (المترجم)

فالحكمة ضالة المؤمن أتى وجدها فهو أحق الناس بها. وقد حثنا القرآن على السير في الأرض لتتعلّم من [130] آثار السابقين، وماذا وقع لهم، وكيف مضت عليهم سنن الله. [قال الله تعالى] "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" (سورة الحج، الآية 46).

الإسلام والتراث الثقافي

فتح المسلمون، منذ عهد النبي وصحابته، عدّة بلدان كانت بها معالم تاريخية، ولكنهم لم يعمدوا إلى هدمها ولا إلى إزالتها باستثناء الأصنام التي كانت تُعبد من دون الله مثل اللات والعزى¹²².

وامتثالا لتعاليم القرآن والسنة كان للمسلمين اهتمام كبير بالتاريخ، فقد صنّفوا عدّة موسوعات تضمّ تاريخ الأمم والدول والملوك وكذلك تاريخ الأعلام الموثوق بهم¹²³ والعلماء الذين برزوا في علم من العلوم أو فنّ من الفنون أو مجال من المجالات وبالإضافة إلى الكتب والوثائق والمراجع المكتوبة أجمعوا على أن يُدرجوا ضمن مصادرهم المواقع الأثرية والمعالم التاريخية التي [131] تقدّم معلومات عن درجة التمدّن أو البداوة عند شعب من الشعوب، وعلى تقدّمه أو تخلفه، وتعلّمه وأميّته.

122 آلهتان للخصب والنماء، كانتا في ما مضى تُعبدان في مكة وبلاد العرب.

123 من بين العلماء، علماء الحديث والفقهاء والأشراف وقادة الجيوش وأهل الأدب والولادة والشعراء، والأطباء، واللغويين وغيرهم.

ومن ثمّ، كان من الضروري الحفاظ على هذه المواقع والمعالم لتكون شواهد على الأمم السالفة وخاصة ليستفيد اللاحق ممّا أنجز السابق عبر البناء عليه أو الإضافة إليه.

وقد تبين أنّ القدرة الإلهية قد عاقبت أمما سالفة بالإبادة والتدمير بسبب ما ارتكبه من شرور وإسراف وفساد في الأرض "أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" (الروم، الآية 9).

"أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لِبَالِمِرْصَادٍ" (الفجر، الآية 6-14).

ولذلك، من المهمّ الحفاظ على التراث المعماري الذي خلّفته الأمم السابقة قصد الانتفاع به مادّيًا ومعنويًا، لاسيّما أنّ اكتشاف البعض من هذه المعالم جاء ليؤكّد ما ورد في القرآن الكريم، وهذا ما يرسّخ عقيدة المؤمنين ترسيخًا.

[132] ليس من الجائز هدم هذه المواقع والمعالم بتعلّة إثارته للفتنة بالتقديس أو غيره. والحال أنّنا، شاهدنا، في بلدان مختلفة، معالم نفيسة دون أن تكون هذه دافعا إلى الفتنة أو الضلال بالنسبة إلى الناس، ودون أن يكون لها تأثير في معتقداتهم.

وأسوة بما يشير إليه العلماء، فإنّ الإسراف في العمل بمبدأ سدّ الذرائع غير مسموح به حتّى لا نفوّت على الأمّة الكثير من المنافع.

وقد بدا لنا من المفيد أن نلجأ إلى صوت معترف به ويحظى غالباً بالاحترام، وهو صوت مصدر ديني محافظ قصد محاولة وضع حدّ لعملية التدمير المتعمّد للتراث الثقافي التي شرعت في تنفيذها مجموعات طالبان المتطرفة باسم الإسلام. إلا أنّ المؤسف أنّ منهجهم ذاك حذت حذوهم فيه كلّ من تنظيمي القاعدة وداعش منذ الأزمات التي أعقبت حرب العراق والصراعات التي تعصف بسوريا وليبيا منذ سنة 2011، ثمّ اليمن منذ يوم 25 مارس 2015.

ومع هذا مرّ إعلان الدوحة دون أن يخلف أثراً يُذكر، كما لم يكن له تأثير لا في البلدان ذات الطابع الإسلامي ولا في بقية بلدان العالم. ثمّ إنّ تفسير هذا التجاهل أو هذه اللامبالاة يكمن في نظرنا في الوضع الجديد الناجم عن تدمير البرجين التوأم في مركز التجارة العالمي بنيويورك الذي وقع يوم 11 سبتمبر 2001، أي قبل ما نحن بصدده بثلاثة أشهر.

إن حجم هذا الهجوم الذي اعتبر "أكبر هجوم قاتل منذ بداية التاريخ على الإطلاق" عاشه على الفور تقريبا مئات الملايين من مشاهدي التلفزيون عبر العالم، وسبّب صدمة نفسية عارمة، وقلّما حظيت وقائع تاريخية [133] بما حظي به هذا الحدث من التغطية الإعلامية¹²⁴.

124 مقتطف من مقال "هجمات 11 سبتمبر 2001" في موسوعة ويكيبيديا، فصل "انفعال وإدانة دوليين".

وبناء على ذلك، يسهل علينا أن نفهم أسباب نسيان إعلان الدوحة الذي ينبغي علينا أن نذكر بأنه حظي برعاية ثلاث منظمات دولية وهي اليونسكو والإيسيسكو والألكسو...

ما العمل للمحافظة على التراث الأفغاني؟

ومع ذلك يظل السؤال مطروحا: "ما العمل لإنقاذ التراث الثقافي في أفغانستان؟" بعد سقوط نظام طالبان عقب "الحرب على الإرهاب" التي أعلنتها الرئيس بوش والتي أدت إلى تشكيل حكومة مؤقتة برئاسة حميد كرزاي وفقا لاتفاقيات بون المؤرخة في ديسمبر 2001.

وهكذا أخذت أفغانستان، هذه الدولة ذات التاريخ التي يمتد على قرون، تخرج في مطلع سنة 2002 من فترة طويلة من الاضطرابات، وكان على اليونسكو أن تتحرك بسرعة للبدء في تقييم حالة الدمار والأضرار التي لحقت التراث الثقافي والتي لم تقتصر، يا للأسف، على تفجير تمثالي بوذا الكائنين في وادي باميان، ومن ثم اقتراح خطة عمل لإعادة تأهيله.

وقد جعلت الحكومة الأفغانية الجديدة من هذا التأهيل واحدا من أولوياتها، وطلب وزير الخارجية عبد الله عبد الله الدعم من المجتمع الدولي. وبهدف إعداد جرد للوضع القائم وتقديم العون لوزير الثقافة المعين حديثا السيد سعيد مخدوم راهين اقترحت تنظيم ندوة دولية على مستوى الخبراء لا تلتئم [134] في باريس، بل في كابول ذاتها من 27 إلى 29 ماي/مايو 2002.

لم تكن الظروف القائمة آنذاك تسمح بالانتقال إلى كابول بسهولة. ولتحقيق ذلك تمكّنت اليونسكو من الاستفادة، في هذا الباب، من الدعم غير المشروط الذي قدّمه السيد الإبراهيمي المبعوث الخاص للأمين العام للأمم المتحدة إلى كابول. وهكذا أمكن نقل الخبراء القادمين من عشرة بلدان ومن ثلاث عشرة منظمة حكومية وغير حكومية على متن طائرة تابعة لمنظمة الأمم المتحدة من مطار إسلام آباد إلى مطار كابول تحت الحماية الكاملة لقوات حفظ السلام التابعة لمنظمة الأمم المتحدة¹²⁵.

افتتح المؤتمر الرئيس حامد كرزاي وكان ذلك بحضور الأمير ميواي نجل ملك أفغانستان السابق صاحب الجلالة محمد ظاهر شاه. وبعد كلمة وزير الثقافة الذي قدّم عرضاً مطوّلاً حول الوضع المأساوي للتراث الثقافي في بلاده، أخذتُ الكلمة، نيابة عن السيد ماتسورا، فأبلغت المشاركين بما قامت به اليونسكو لصالح أفغانستان¹²⁶.

125 كان المشاركون في الندوة يمثلون المؤسسات العلمية للبلدان التالية: أفغانستان، ألمانيا، فرنسا، بريطانيا العظمى، اليونان، الهند، إيطاليا، اليابان، باكستان، الولايات المتحدة. أما بالنسبة إلى المنظمات الحكومية: اليونسكو، لجنة التراث العالمي، وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة. وأما المنظمات غير الحكومية فهي: مجمع آغا للثقافة، الوكالة الفرنسية للتعاون الفني والتنمية، مؤسسة بيبليوتكا أفغانكا، مركز الدراسات والبحوث التوثيقية حول أفغانستان، منظمة مساعدة المزارعين الأفغان، مؤسسة هيرياما، المجلس العالمي للمعالم والمواقع الأثرية، المؤسسة العالمية للأمل، مؤسسة حماية الموروث الثقافي الأفغاني، الصندوق العالمي للمعالم.

126 تلا ذلك تدخل الأستاذ إيكيو هيرياما سفير اليونسكو للثقافة، والسيد هندريك لبيوس رئيس لجنة التراث العالمي سنة 2002، السيد ميشال بتزات رئيس المجلس العالمي للمعالم والمواقع الأثرية، والسيد ستيفانو بيانكا ممثل مجمع آغا خان للثقافة، وكذلك السيدة آفا روزا نيابة عن السيدة نانسي دوبراي الشخصية الأمريكية المهتمة بتطوير علم الآثار في أفغانستان منذ سنوات 1950.

[135] خلال الأيام الثلاثة التي استغرقتها أعمال الندوة، نُظمت زياراتٌ إلى أقبية وزارة الثقافة حيث تعرضت الصناديق التي تضم مجموعات من التماثيل إلى التخريب على يد طالبان، كما زرنا المتحف الوطني بكاپول الذي لم يبق منه سوى الهيكل.

وكان موضوع الاتّجار غير الشرعي في القطع الفنية المأخوذة من المتحف الوطني، والحفريات السريّة عبر أرجاء البلاد موضوعَ مقترحات ملموسة صاغها على وجه الخصوص مُدير متحف غيماي.

بالإضافة إلى ذلك، تمّ التطرق إلى مسألة إنشاء "متحفين في المنفى" الغاية منهما، "حفظ كلّ ما يمكن حفظه من التراث الأفغاني المنقول، أحدهما في متحف طوكيو تحت مسؤولية الأستاذ أيكويو هيراياما، والثاني في بوبندورف بسويسرا تحت إشراف السيد بول بشرار دياتشي، وقد أطلق عليه اسم "بليوتكا أفغانিকা"¹²⁷.

[136] إعادة بناء تمثالي بوذا في باميان؟

على هامش الندوة، تمّ أداء زيارة مؤثّرة إلى مقر إقامة الملك محمد ظاهر شاه الذي تعرّف، وعيناه مغرورقتان بالدموع، على بعض علماء الآثار

127 إن هذا المتحف الذي أنشأته مؤسسة "بيليويتكا أفغانكا"، وهي مؤسسة سويسرية بعثت سنة 1975 لتسيير مركز للتوثيق حول أفغانستان، تحضّل على حوالي 1400 قطعة ثقافية أفغانية من طرف مانحين خواصّ وتولّى جردها بالكامل عن طريق مختصّين. وفي سبتمبر 2006 وافقت منظمة اليونسكو على طلب تقدّمت به الحكومة الأفغانية قصد استعادة هذه القطع لصالح المتحف الوطني الأفغاني بكاپول الذي أعيد ترميمه. وقد تولّيت التفاوض بشأن هذا الاتفاق في أبريل/أبريل 1999 بدعم من المندوب الدائم السويسري لدى اليونسكو، وهذا ما سمح بالحصول على مساعدة مالية من الحكومة الفدرالية السويسرية ومن حكومة مقاطعة بال.

الذين سبق لهم أن أجروا حفريات في التراب الأفغاني وخاصة منهم الأستاذ بول برنار عضو الأكاديمية الذي سبق له أن عمل في بلاده خلال سنوات 1965-1973 قبل أن تغرق البلاد في الصراعات التي اصطلت بناها مدة أربعين عاما تقريبا.

من جهة أخرى، أقام الرئيس كرزاي حفل استقبال في حدائق مقر إقامة، دعا إليه المائة والسبعة المشاركين في هذا المؤتمر العالمي الذي غطت أشغاله وسائل الإعلام تغطية واسعة، والذي عُقد لأول مرة في العاصمة الأفغانية.

ومن خلال هذا الحفل، ودَّ أن يشكر اليونسكو ومديرها العام على نجاحهما في جمع أفضل الخبراء الأفغان والدوليين في مجال التراث الثقافي الأفغاني، وفي اغتنامهما في نفس الوقت فرصة حضور ممثلي الدول ليحصلوا على وعد بالتمويل قدره سبعة ملايين دولار. وتركز النقاش خلال مائدة العشاء هذه حول السؤال الحارق المتعلق بإمكانية إعادة بناء تمثالي بوذا في باميان. آنذاك سألني الرئيس كرزاي عمَّا إذا كانت اليونسكو تؤيد طلب إعادة البناء أو تعارضه، علما أنه طلب استطلاع أن يحصل على ضمانات تمويل من شركاء أجنب.

فأجبتُ، بطريقة دبلوماسية، أن الأمر يتعلق طبعا بمسألة داخلية تهم الحكومة الأفغانية والشعب الأفغاني، أمَّا على المستوى التقني المحض فإنَّ هذا البناء لن تتوفَّر فيه صفة الأصالة [137] ولا صفة النزاهة، وهما شرطان أساسيان لابدَّ منهما إذا كان يُراد للموقع أن يُدرج ضمن قائمة التراث العالمي،

وتبعا لذلك فإنّ إعادة البناء هذه، من وجهة نظر اليونسكو، لن تكون لها أيّة قيمة تاريخيّة.

ومن حسن الحظّ أن دعّمني في حجاجي هذا الأستاذ هيراياما (من اليابان) والأستاذ أندريا برونو (من إيطاليا) الذي اشتغل على التراث الثقافي الأفغاني لأكثر من أربعين عاما. لكن السؤال ظل يعاود الظهور منذ تلك الآونة بانتظام، لاسيّما خلال اجتماعات لجنة التنسيق الدوليّة للمحافظة على التراث الثقافي الأفغاني التي تُعقد مرّة واحدة في السّنة.

إلا أنه ينبغي أن نلاحظ بأسف أنّه لم ينعقد بعد ذلك أيّ اجتماع في كابُول يضاھي مستوى هذه الندوة العالمية الأولى في كابول، بل واصل الخبراء العمل في باريس وروما وميونخ على أساس التوجّهات الاستراتيجية المنبثقة عن هذا اللقاء الأول والأعمال التي أنجزت على الميدان. ورغم كل شيء، أدّى ذلك إلى نتائج مفاجئة، بالنظر إلى الظرف السياسي الذي ظلّ دوما متّسما بانعدام أمن مستتر سواء في كابُول أو في بقية مناطق البلاد.¹²⁸

128 يمكننا أن نجد في مقال كريستيان مانهارت المنشور على صفحات "المجلة العالمية للصليب الأحمر" لمحة عن الأنشطة التي تلت انعقاد ندوة عهدة اليونسكو وأنشطته الأخيرة من أجل إعادة تأهيل التراث الثقافي الأفغاني، جوان/يونيو 2004، صص 401-411.

القسم الرابع ^[139]

[141] يوميات تخريب همجيّ واسع النطاق

مع بداية حرب الخليج الأولى (1990 - 1991) التي ألحقت أضراراً بالخصوص بدولة الكويت إثر اجتياحها من الجيش العراقيّ، وعمليات القصف الجويّ التي قامت بها قوى التحالف الدولي بداية من 17 جانفي/يناير 1991، دخلت العراق في دوامة حرب ستدمّر، لفترة طويلة جداً، قدراتها العسكريّة وبنيتها الأساسيّة المدنيّة، وكذلك تراثها الثقافيّ.

ومن بين الأضرار الكثيرة الجانيّة، الناجمة عن الحصار الذي ضُرب على العراق¹²⁹ في شهر أوت/أغسطس 1990، وعن عمليات القصف الجويّ التي استهدفت العاصمة، تعطلّ نظام التكييف المركزيّ للمتحف الوطنيّ تعطلًا تامًا.

[142] وللأسف شهدنا كذلك، بداية عمليات سرقة موسّعة للقطع التاريخيّة الموجودة في المتاحف والمواقع الأثريّة، وبالخصوص في المنطقة الجنوبيّة من دولة العراق. وفي شهر أكتوبر 1991، ثمّ في شهر جوان/يونيو 1995، استقبلت في هذا الصدد بمقرّ اليونسكو، مدير المعهد الوطني للدراسات الثقافية بدولة العراق¹³⁰ الذي نبّهني إلى الوضع، ثمّ قدّم لي وثيقة في خمسة مجلّدات تتضمّن لائحة بالقطع المنهوبة منذ اندلاع الحرب، ثمّ بعد الحصار الذي ضُرب على البلاد.

129 بناء على القرار 986 لمجلس الأمن التابع لمنظمة الأمم المتّحدة.

130 الأستاذ هيديو فوجي من جامعة كوكوشيكان اليابانيّة.

كان الأمر يتعلّق بجردٍ لأكثر من أربعة آلاف قطعة ثقافية مسروقة قمنا بتعميم نشره فوراً على أهمّ المتاحف والمنظّمات وشركات البيع عن طريق المزاد العلنيّ والتي بإمكانها أن تساعد في العثور عليها واستعادتها¹³¹.

وقد أصدرت اليونسكو، دون أن تتمكن من إرسال مبعوث على عين المكان، بيانا لغاية حدّ سوق التُّحف الفنّية في أنحاء العالم على اليقظة. فضلا عن هذا نشرت بلاغا في سرقة ممتلكات ثقافية مُرقّقا بصور لهذه المسروقات وبوصف لها، متى كان ذلك متاحا.

وتجاوبا مع هذه التّداءات، تمّ استرجاع مجموعة من هذه القطع، ولكن عددها كان ضئيلا. فعلى سبيل الذكر أرجعت دولة قطر، بتاريخ 28 جوان/ يونيو 1998 مجموعة من التُّحف بعدد خمس وأربعين قطعة مسروقة من متحف العراق. ويجدر التذكير هنا، أنّه، باستثناء البعثات ذات الطّابع الإنسانيّ، لم يُرخص لأيّة بعثة من الأمم المتّحدة أو اليونسكو.

وفي نهاية المطاف، تسنّى لي الحصول على رخصة سفر في شهر سبتمبر 1998، في رحلة برّية امتدّت حوالي ألف كيلومتر [143] انطلاقا من عمّان إلى غاية بغداد، لأنّ طريق البرّ كان الوسيلة الوحيدة للتنقل على إثر الحصار وإقامة منطقة الحظر الجويّ التي تمنع الدّخول إلى العراق جوّا.

131 الأنتربول، المجلس الدولي للمتاحف (ICOM)، المؤسسة الدّولية للبحث في الفنون (Ifar)، ومتحف متروبوليتان للفنون في نيويورك، ومؤسّسات البيع بالمزاد العلنيّ: سوثيرز (Sotheby's) وكريستيز (Christie's).

حرب الخليج الأولى: متحف بغداد ينخره النمل الأبيض

وبمناسبة هذه البعثة المخصصة لموضوع التراث العراقي، أعلمني رئيس الهيئة العامة للآثار والتراث¹³² أنّ النمل الأبيض قد اجتاح المتحف الوطني فإضافة إلى الغياب الكليّ لوسائل حفظ الممتلكات الثقافية وترميمها في المتاحف والمواقع الأثرية.

ونستطيع أن نشاهد، على طول جدران المتحف، الآثار التي خلفتها الأعداد التي لا حصر لها من النمل الأبيض الذي لم يكتف بمهاجمة القطع الخشبية. وكما سلف لنا أن قلنا، فإنّ السبب في هذا الوضع يعود إلى عمليات القصف الجويّ في سنة 1991 إبّان حرب الخليج الثانية التي كانت تقوم بها قوات التحالف الدوليّ بقيادة الجيش الأمريكيّ.

ولئن كانت الطلعات الجوية الليلية تستهدف في المقام الأول المنشآت العسكرية ومراكز الاتصالات، فإنّها دمّرت كلياً نظام التكييف المركزيّ للمتحف، بفعل الآثار الجانبية الناجمة عن قصف مركز اتصالات قريب منه. كانت درجة الحرارة في شهر سبتمبر من سنة 1998 مرتفعة جداً. والوضع على هذه الحال منذ سبع سنوات. فباستثناء المساعدة الإنسانية، لم يكن يسمح بوجود أية بعثة، حتّى وإن كانت من بعثات اليونسكو، [144] التي ليس لها من مهمة غير السهر على صون التراث الثقافيّ العالميّ.

132 الأستاذ مؤيد سعيد الدامرجيّ

وجدتُ المسؤولين على المتحف الوطني العراقي في حالة من الضيق والمعاناة في مبنى تبلغ فيه درجة الحرارة بسهولة ستًا وثلاثين درجة، مع نسبة رطوبة عالية، وهو وضع استمرّ منذ سنة 1991. ولقد التقطتُ، وأنا مصاب بالدّهول، صوراً لمجموعات النمل الأبيض التي اجتاحت أكبر متحف في البلاد. ويذكر أنّ هذا المتحف أنشئ سنة 1922، ويحظى بسمعة عالمية مرموقة بما أننا نجد فيه مجموعات من القطع التي تعود إلى حضارة بلاد الرافدين.

ولأنّه يُمنع بتاتا على العراق أن تستورد أية مادّة كيميائيّة، إذ يُخشى، وفقا للخبراء الاستراتيجيين الأمريكيين، أن تساعد نظام صدام حسين، في إنتاج أسلحة الدمار الشامل، فقد تعدّ القيام بأي شيء للقضاء على هذا النمل الأبيض. وقد اعتبرت هذه الوضعية بمثابة الخطر الجانبي المترتب على الحرب. وبطبيعة الحال، لم يُعلم أحد الصحافّة العالميّة بحقيقة ما يجري.

كان الحظر الذي فرضته الأمم المتّحدة لا يسمح بإرسال أيّة تجهيزات أو أية مادّة كيميائيّة إلى العراق التي كان يُشتبه في أنّ سلطاتها تنتج أسلحة الدمار الشامل. ولكن بفضل تعاون سفارة إيطاليا لدى اليونسكو، تمّ التوصل إلى حلّ جزئيّ يتمثّل في توفير خمسين لترا من مادة تقضي على النمل الأبيض (Fipronil) وتزويد المتحف بها، ولكن للأسف سيقع نهبه سنة 2003 وهذه كارثة أكبر من الأضرار الناجمة عن اجتياح النمل الأبيض.

وفي مركز المحافظة على المخطوطات في بغداد، تدمّر مديره من عجزه عن متابعة ترميم الرقوق والمخطوطات القديمة بسبب عدم توفّر المحلول المُذيب

والغراء و"الورق الياباني"، وهي جميعها موادّ يمنع [145] استيرادها منذ سنوات طويلة. وقد مكّنت هبةٌ تقدّم بها المعهد البريطاني للآثار من شراء أدوات تُستعمل في الصّون، وعدد من المعدّات الموجهة لمخبر الصيانة في المتحف.

وعلى وجه الإجمال، خلال الفترة الممتدّة بين سنتي 1998 و2000، أمكن تجميع مساهمات بلغت مائة وخمسة وعشرين ألف دولار رصدت لهيئة الآثار، وبالخصوص للمتحف الوطني ممّا مكّن من إصلاح نظام التّكليف المركزيّ في هذا المتحف¹³³. وللأسف، فإنّ المبادرات التي تقوم بها اليونسكو، ظلّت محدودة جدًّا، واستمرّ هذا الوضع إلى غاية اندلاع حرب الخليج الثالثة في شهر مارس 2003، ونهب المتحف الوطنيّ في أيّام معدودات.

الآثار النّاجمة عن الاجتياح العراقيّ للكويت

عقب الحريق الإجرامي الذي شبّ في متحف مدينة الكويت، نُقلت إلى بغداد 25000 قطعة أثرية وإثنوغرافية.

واستنادا إلى دراسات حديثة، فقد أدّت الحرب العراقية الإيرانية (1980 - 1988) إلى سقوط مئات الآلاف من القتلى، وخُلّفت على المستوى الاقتصادي وضعًا كارثيًا في البلدين، بقطع النظر عمّا كان لها من انعكاسات سلبية على التّراث الثقافيّ والمخزون البيئيّ، عاينته بعثة اليونسكو. وما كادت تنقضي سنتان على انتهاء هذه الحرب، حتّى التفت الرئيس العراقيّ صدام حسين إلى

133 بفضل الأعمال الخيرية التي تقوم بها مؤسسة (EDF) وأمينها العام مارك ألبوي أمكن إعادة تشغيل نظام التّكليف المركزيّ على إثر تدخّل فنيّ قام به مهندسان فرنسيّان.

الكويت التي يبدو أنها رفضت فسخ الديون المتخلّدة بدمّة العراق وأضرّت بمصالح [146] جارتها في الأسواق البترولية. إضافة إلى هذا، كان نزاع حدوديّ قديم لا يزال قائماً بين البلدين.

"وفي يوم 25 جويلية/يوليو 1990، طلبت سفيرة الولايات المتّحدة الأمريكية السيّدة أبريل غلاسبي من الحكومة العراقية أن تفسّر الأسباب التي دعت الجيش العراقيّ إلى الانتشار المكثّف على الحدود الكويتيّة"¹³⁴.

"واندلج النزاع يوم 2 أوت/أغسطس على السّاعة الثّانية فجراً، وكانت وحدات الجيش الجمهوري العراقي والقوى الخاصّة من أوّل الفيالق العسكريّة التي وطئت أرض الكويت".

ما إن انتهى العدوان العراقيّ الذي دام سبعة أشهر وأدانته المجموعة الدوليّة برمتها، حتى سارع المدير العام للمنظمة اليونسكو، السيّد فيديريكو مايوور إلى إيفاد ممثله الخاصّ، وزير التربية السنغاليّ السيّد إبا در تيام.

وقد وردت في التقرير الذي قدّمه إلى المجلس التنفيذيّ لمنظمة اليونسكو بتاريخ 20 مارس 1992، المعطيات الآتية بخصوص متحف الكويت الوطنيّ:

"بحسب شهادات المسؤولين على المتحف، واستناداً إلى الوثائق تمّ العثور عليها على عين المكان، دخل فريق من الجيش العراقي يقوده رئيس الهيئة العامّة للآثار والتراث في بغداد إلى المتحف عبر باب فرعيّ منذ الأيّام

134 ويكيبيديا: https://fr.wikipedia.org/wiki/invasion_du_Koweit تمّت إدانة احتلال الكويت بالإجماع من طرف القوى العظمى عالمياً. وحتى الدّول الي تُعتبّر من الحلفاء القريبين من العراق مثل فرنسا والهند، فقد دعت إلى سحب عاجل لجميع القوات العسكريّة العراقيّة من الكويت.

الأولى للاحتلال بعد أن حاولوا اقتحامه بخلع الباب الرئيسي المحمي [147] بشبكات معدنية. وقد تمّ وضع نظام الحماية خارج الخدمة. وخلال الأيام اللاحقة، أُفرغ متحف الكويت الوطني والمتحف الإسلامي بصفة منهجية من مجموعات القطع الأثرية الموجودة فيهما، ومن مجمل واجهات العرض البلورية تقريبا. ولقد أُديرَت العملية انطلاقا من بيت البدر، حيث وُجِدَت ملقاة على الأرض، دعامة واجهة عرض بلورية مفككة. وزيادة على هذا، نُهب الأرشيف ووثائق الجرد ومفاتيح الخزائن الفولاذية. ويبدو أنّ هذه الأشياء نُقلت إثر ذلك، إلى بغداد ووُضعت في مكان آمن بمعية مجموعات المتحف الوطني العراقي. ومن محاسن الصدف، أنّه إبان الاجتياح، كانت توجد 108 قطعة من مجموعة آل الصباح في متحف هرميتاج بلينينغراد، وستّ قطع هامة جدًا في فيرجينيا في معارض متنقلة.

وقد أفادت دولة الكويت، من جهتها، منظمة اليونسكو- وأكّدت هذا- بأنه وقع نهب عدد كبير من القطع الأثرية من أراضيها. وبمقتضى القرار 686 (1991) الصادر عن مجلس الأمن بتاريخ 2 مارس 1991، فإنّ منظمة الأمم المتحدة ستشرف على استرجاع الكويت لجميع الممتلكات التي أخذتها العراق. وفي بغداد، تسلّم الممثلون الكويتيون في الفترة الفاصلة بين 14 سبتمبر و20 أكتوبر 1991 وبرقابة من برنامج منظمة الأمم المتحدة لإعادة الممتلكات (UNROP)- مجموعة تضمّ 25482 قطعة نُهبَت من متحف "دار الآثار الإسلامية"، ومن متحف الكويت الوطني، فضلا عن قطع أثرية متأتية من جزيرة فيلكا.

واستنادا إلى هذه الشكوى، وإلى تقرير الممثل الخاص للمدير العام لمنظمة اليونسكو، أطلق قسم التراث الثقافي التابع لليونسكو، والذي كنتُ مسؤولاً عنه، برنامجاً يهدف من ناحية إلى إعادة تأهيل متحف الكويت الوطني، [148] والقيام بعملية جرد وترميم لمجموعة القطع والتحف الإسلامية المحفوظة في دار الآثار الإسلامية والتي تمتلكها سمو الشيخة حصة الصباح.

وفي هذا الصدد، اشتغلت مع ثلاثة من زملائي وهم السيدة: أنا بوليني، والسيد باري لان -وهما مهندسان معماريان- والسيد باتريك بولينزي الخبير المختص في علم المتاحف وبالتعاون الوثيق مع قسم الآثار ومتاحف الكويت. وانتقلنا مرارا إلى الكويت، في الفترة الفاصلة بين سنتي 1992 و1996، وخلالها تم تنفيذ عدد من المشاريع بدعم من برنامج الأمم المتحدة الإنمائي بغية إعادة تأهيل المستشفى الأمريكي القديم الذي يحتوي في المستقبل مجموعة الفن الإسلامي.

حرب الخليج الثانية: خراب شامل في متحف بغداد

عندما أعلمتُ كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة منظمة اليونسكو بالحرب الوشيكة التي ستندلع في العراق، بادرتُ في شهر جانفي/يناير 2003، بصفتي مديراً عاماً مساعد لشؤون الثقافة، وبموافقة من المدير العام، إلى توجيه رسالة إلى مراقب الولايات المتحدة الأمريكية، السيد بريان أغلار وكذلك إلى سفير المملكة المتحدة، السيد: دافيد ستانتون.

وقد ذكّرتهما بما تنصّ عليه اتفاقية لاهاي في شأن حماية الممتلكات الثقافية في حالة نزاع مسلّح لسنة 1954، وبالبروتوكولين الملحقين بها (الأول لعام 1954 والثاني لعام 1999). لكن لم تكن- وإلى حدود تلك الفترة- كلّ من الولايات المتّحدة [149] والمملكة المتّحدة قد وقّعتا هذه الاتفاقية...¹³⁵.

وكان الأمر بالنسبة إلى اليونسكو، تذكيرا بأنّ العراق، هي جزء من الهلال الخصيب، وأنّ هذا البلد قد عُرف بكونه واحدا من أكثر بلدان الشرق الأوسط ثراءً من حيث ممتلكاته التراثية الثقافية، وأنّ أيّ عمل مسلّح يستهدفه ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار هذا الثراء التراثيّ الفريد من نوعه.

وقد أوضحت هذه الرّسالة كذلك، أنّ بغداد تمتلك أيضا عددا كبيرا من المتاحف، ومن بينها المتحف الوطني ببغداد، وأنّ قسم التّراث التّابع لليونسكو كان قد أصّحح، إبّان بعثة أولى سنتي 1998 و1999، نظام التّكليف المركزيّ المعطّب طوال حرب الخليج سنة 1991.

وممّا يجدر إبرازه، أنّ هذه الرّسالة، قد وقع الردّ عليها بـ"المطالبة بمزيد من الإيضاحات" بشأن التراث الثقافيّ العراقيّ. وردّا على هذا الطّلب، أرسلتُ، حينئذٍ، لائحةً تضمّنت المواقع الأثريّة الأكثر أهميّة في العراق، مثل بابل ونيوى، والحضر، وآشور، وسامراء، وطيسفون، والوركاء، وواسط، والأخضر، وكربلاء، والنّجف، وبطيبة الحال ذكّرنا بقيمة المتحف العراقيّ.

135 ولم يوقّع هذان البلدان الاتفاقية إلا في فترة لاحقة. فالولايات المتّحدة الأمريكيّة وقّعت سنة 2007. ولم توقّع المملكة المتّحدة إلا سنة 2015.

وإثر هذا، لم يقع أي تبادل للرسائل سابق لهجوم قوى التحالف في شهر مارس 2003. وخلال شهري جانفي/يناير وفيفري/فبراير 2003، كنتُ على اتصال بعدد كبير من الزملاء الأجانب العاملين في العراق، ولا سيما البروفيسور ماك غير جيبسون من جامعة شيكاغو، من أجل الحصول على عدد أكبر من المعلومات بشأن التراث الثقافي العراقي.

[150] وطوال هذه الحرب الثالثة في العراق، شُرِع في تقييم تأثيراتها على التراث الثقافي في شهر أفريل/أبريل 2003، وبفضل التغطية الإعلامية للحرب التي تجري بصفة شبه مباشرة، كُنّا مع مئات الملايين من المشاهدين شهودا عاجزين على الدمار الذي لحق المؤسّسات الثقافية العراقية فضلا عن نهبها، ونذكر بالخصوص سرقة مجموعات القطع الأثريّة من المتحف العراقي¹³⁶.

وأستشهدُ هنا بالمقال الذي كتبه الصحفي "كريستوف أباد" والمعنون بـ: "تحقيقٌ في النهب الغريب لمتحف بغداد"¹³⁷. وقد كان مطابقا تماما للواقع الذي تسنّى لي معاينته على عين المكان خلال بعثة الأمم المتّحدة في 15 ماي/مايو 2003. فمّا جاء فيه قوله:

"يوم الاثنين 7 أفريل/أبريل، احتدمت المعارك في الجانب الغربي من بغداد، حيث يوجد المبنى. وكانت الدبّابات الأمريكية تزحف نحو دجلة والقصر الرئاسي، في مناطق أقرب إلى الجنوب (...) وكانت مدفعاّت عراقية متمركزة في حديقة المتحف، بحكم أنّ مقرّ الجيش الجمهوري يوجد على

136 لم يكن مسموحا بمتابعة تطوّر النزاع في العراق، إلا للقناتين التلفزيونيتين: CNN وBBC.

137 نُشر في 23 أفريل/أبريل 2003 في الصحيفة اليومية الفرنسية: ليبراسيون (Libération).

بعد مئات من الأمتار فقط. وفي زاوية من الشّارع كنتَ ترى دبّابة أمريكِيّة تقصف كلّ من يتحرّك. واخترقت قذيفة واجهة القوس التذكارِيّ الذي يزيّن مدخل المتحف. وفي 9 أفريل/أبريل سقطت بغداد".

"وطيلة خمسة أيّام (...) ظلّ دوني جورج¹³⁸، في بيته (...) ولم يغادره إلّا مرّة واحدة يوم الجمعة 11 أفريل/أبريل ليُنّجه إلى فندق فلسطين، حتّى يطلب من الجيش الأمريكيّ حماية المتحف من اللّصوص. ولم يصل الجنود الأمريكيون إلّا [151] يوم 14 (...)، ومن المرجّح أنّ عمليات النّهب الكبيرة قد وقعت خلال يومي الخميس 10 والجمعة 11 أفريل/أبريل".

وفي يوم الأحد، قدم السيّد جورج وغيره من المسؤولين عن المتحف لمعاينة الأضرار. وعندما يتحدّث عمّا حصل، فإنّه ينتفض من شدّة الدّهول والغضب: "لا أفهم ما حصل. لقد حدّرت الأمريكيّين، لقد استغرق مجيؤهم لحماية المتحف أربعة أيّام، والحال أنّهم، منذ اليوم الأوّل، تمركزوا أمام وزارة النّفط. وكان يكفي وجود دبّابة وزهاء عشرة جنود لتجنّب الكارثة".

وأضاف السيّد جابر خليل إبراهيم، مدير هيئة الآثار والمتاحف العراقيّة "أنا عاجز تماما عن وصف سلوك الأمريكيّين. كانوا موجودين في الحيّ، وظلّوا مكتوفي الأيدي".

وقال المقدّم إيريك شوارتز (...) هو اليوم مكلف بتأمين المتحف الّذي يحرسه زهاء عشرة من جنوده ومدرّعتان خفيفتان: "وصلتُ إلى هذه المنطقة

138 مدير البحث في الآثار بالمتحف.

يوم 7 أبريل/أبريل، كان القصف من كل الجهات (...). اقتضى إبطال مفعول التهديدات، وتأمين منطقتي التي تقع على بُعد خمسمائة متر من المتحف بضعة أيام. احتاجت كل هذه العملية لثلاثة أيام، وعمليات النهب وقعت في هذه الفترة. وعندما طلبوا منّي تأمين المتحف، كنت على عين المكان بعد خمس وأربعين دقيقة من إرسال هذا الطلب".

"ومع هذا، لا يمكن للجيش الأمريكي أن يدعي أنه فوجئ، فبعد حرب الخليج 1991، فُقدت أربع آلاف قطعة أثرية في جنوب العراق على إثر عمليات النهب التي عقبها الانتفاضة الشيعية".

وعلى غرار العديد من المشاهدين، كنتُ أتابع، يوماً بعد يوم، تقدّم القوّات الأمريكية في اتجاه العاصمة [152] بغداد، في نطاق العملية التي سُميت بـ"الحرية للعراق". ويا للدّهول الذي أصابني وأنا أشاهد مباشرة، يوم الأربعاء 9 أبريل/أبريل 2003، سرقة القطع الأثرية من مختلف أروقة المتحف العراقي. ومازلتُ أحتفظ في ذاكرتي بصورة أحد هؤلاء اللصوص وهو يخرج في هدوء لا مثيل له، حاملاً تحت إبطه بابا من الخشب المنقوش كان قد اقتلعه من قاعدته في الرّواق الذي كانت معروضة فيه التّحف الفنيّة من العصر الإسلاميّ.

كيف يمكن صون التراث العراقي؟

ومن الغد توجّهتُ إلى مكتب المدير العامّ الذي كان قد أطلق نداء، إبّان الدورة 166 من المجلس التّنفيذيّ لليونسكو، من أجل حماية المكتبات والأرشيف في العراق باعتبارها "من المكوّنات الأساسيّة للموروث الثقافيّ في العراق".

وكان من المفروض أن تنهي هذه الدورة أشغالها يوم 16 أفريل/أبريل، ولكنني اقترحتُ تنظيم اجتماع دوليٍّ عاجلٍ يضمُّ الخبراء الذين عملوا في مجال البحوث الأثرية في العراق، بغية تقييم حجم الأضرار وصياغة توصياتٍ لعملية الصون.

وعندما طلب مني السيد ماتسورا تحديد موعد لهذا الاجتماع، اقترحتُ عليه أن يفتحه يوم 17 أفريل/أبريل، مباشرة بعد نهاية أشغال المجلس التنفيذي. وتساءل المدير العام، وقد وافق على مقترحي، عمّا إذا كان هذا الموعد القريب جدًّا (أقلّ من أسبوع)، كافياً لدعوة الخبراء القادمين من عشرين دولة إلى مقرّ اليونسكو.

[153] كنتُ مصرّاً على أن يشارك خبراء عراقيّون في هذه الاجتماع، ولكن آنذاك كان من المستحيل تمكين أيّ موظّف في هيئة الآثار من مغادرة البلاد في هذه الفترة من شهر أفريل/أبريل، والحال أنّ بغداد لم تسقط بصفة نهائية بين أيدي القوّات الأمريكيّة.

فأجريتُ اتّصالات مع زملاء عراقيّين متخصصين في الآثار وكان أغلبهم يدرّسون في الجامعات الأمريكيّة أو في منطقة الخليج. وعلى هذا النحو، نجحنا في تشريك ستّة زملاء عراقيّين في هذا اللقاء¹³⁹.

139 الخبراء العراقيّون: وليد ياسين إسماعيل: مستشار الآثار في هيئة الآثار والسياحة العين. عبد الستار ج موسى: قسم الثقافة والإعلام مدير التراث الشارقة. زينب البحراي فان مياروب، أستاذة مشاركة في قسم التاريخ والفن وعلم الآثار في جامعة كولومبيا بالولايات المتّحدة الأمريكيّة، غانيم وحيدة: من جامعة كمبريدج بالمملكة المتّحدة. وليماء الغيلاني وار: أخصائية في الأختام والمقيمة في لندن.

وعملنا أنا وزملائي من قطاع الآثار ليلَ نهارَ، وتوفَّقنا إلى تنظيم هذا الاجتماع الدَّوليِّ الأوَّل على إثر ما وصفه الرِّئيس الفرنسيّ جاك شيراك بـ"الكارثة الثقافيَّة".

وسأقدِّم في ما يلي، التَّقريِرَ الموجزَ لهذا الاجتماع الَّذي كان يرمي إلى تحقيق ثلاثة أهداف: التَّنسيق بين أعضاء الشَّبْكة العلميَّة الدَّوليَّة للخبراء، صياغة توصيات استراتيجيَّة للتَّدخُل في فترة ما بعد النزاع وترميم التِّراث العراقيّ، ووضع خطة عمل عاجلة من أجل صونه.

وقد تقدِّم ثلاثون خبيراً دولياً¹⁴⁰ بتوصيَّات [154] خلال ثلاث جلسات عمل ترأَّسها ثلاثة أساتذة هم: السَّيِّد: نايل ماك غير جيبسون [155] (معهد الدِّراسات الشَّرقيَّة، شيكاغو)¹⁴¹، والسَّيِّد: "نايل ماك غريغور (مدير المتحف البريطانيّ)، والسَّيِّدة: سلمى الرِّاضي (جامعة نيويورك).

140 الخبراء الدَّوليُّون هم: بارتيل هرودة (ألمانيا): مدير البعثات الألمانيَّة في إيسن وآشور. هلغا ترنكو الذَّير (النمسا): مديرة البعثة النمساويَّة في برسبيا. ليون دي مايار (بلجيكا): مدير البعثة الأثريَّة البلجيكيَّة في العراق، رئيس فخريّ لجامعة غاند. إينغولف تونز (الدنمارك): مدير معهد كارستن نايوهر لدراسات الشَّرقيِّ الأوسط. سيمو بابولا (فلندا): مدير مشروع أرشيف آشور: معهد الدراسات الآسيويَّة والإفريقيَّة. بياتريس أندريه سالفاني (فرنسا): محافظة رئيسة لقسم التَّحف الأثريَّة الشَّرقيَّة في متحف اللُّوفر. غيزابي بروياتي (إيطاليا): المدير العامُّ لعلم الآثار في وزارة الثقافة. روبيتو باراباتي (إيطاليا): مدير المركز الإيطاليّ العراقيّ لترميم الآثار. كان ماستيوموتو (اليابان): مدير البعثة الأثريَّة كوكوشيكان في كيش. دياتريك.ج.و. (هولندا): من جامعة لايدن، كلية الآثار. بيوتر بيبالينسكي (بولونيا): مدير البعثات الأثريَّة البولونيَّة في تل رجم وفي موقع سدِّ الإسكي بالموصل. جواو أواتاس (المملكة المتَّحدة) من المدرسة البريطانيَّة للآثار في العراق وفي المهتمَّات البريطانيَّة في تل الرَّماح ومُروود. ألستر نورفيدج (المملكة المتَّحدة) من معهد الفن والآثار في جامعة باريس 1. جون كورتيس (المملكة المتَّحدة)، محافظ قسم الآثار الشَّرقيَّة في المتحف البريطانيّ. عبد العزيز الدولتالي (تونس): مستشار في التَّراث لدى الألكسو وممثلُ المركز الدوليّ لدراسة صون الممتلكات الثقافيَّة وترميمها (ICCROM) فيسال دونباز (تركيا): مدير في المتحف الأثريّ في إسطنبول. كريستينا مينغازي، من المجلس الدَّوليّ للمتاحف (ICOM)، ميكائيل بيتزات، رئيس المجلس الدَّوليّ للآثار والمواقع (ICOMOS)، روس شيمون، رئيس الاتِّحاد الدَّوليّ لجمعيات المكتبيِّين (IFLA)، والجنَّة الدوليَّة للدَّرع الأزرق (ICBS). عبد الله عبد الكريم الرِّيس، رئيس الفرع الإقليميّ العربيّ للمجلس الدَّوليّ للآرشفيف.

141 مدير البعثات الأثريَّة الأمريكيَّة في نييور وتلّ رزوق ورئيس الجمعية الأمريكيَّة للبحث في بغداد.

والإعلان الذي تمت المصادقة عليه، إثر هذا الاجتماع، مثل منطلقاً لسلسلة من اللقاءات، من بينها اللقاء الذي جرى يوم 29 أبريل/أبريل 2003 في المتحف البريطاني بلندن، بتنظيم من اليونسكو ووزارة الثقافة الإنكليزية، وقد دُعيت للحضور بصفة رئيس بالشراكة¹⁴².

ولأوّل مرّة، منذ بداية النزاع، أمكن لمسؤول رسمي من هيئة الآثار ومن المتحف العراقيّ حضور هذا الاجتماع في لندن. وكان الأمر متعلّقاً بالسيد دوني جورج مدير البحث في الآثار، الذي استطاع أن يقدّم شهادة على ما جرى في المتحف العراقيّ خلال [156] أيّام التّهب من 8 إلى غاية 10 أبريل/أبريل 2003:

"بالنسبة إلى دوني جورج، كان هؤلاء اللصوص على درجة عالية من التّنظيم، وكانوا يعملون لحساب مهربيّ الآثار الذين تفسّخوا في البلاد منذ عقد من الزّمن وعاثوا فيها فساداً. إنّهم استغلّوا انتشار الفقر التّاجم عن الحظر، فقدّموا الرّشاوى لشخصيّات متنفّذة في النّظام، وسلبوا المواقع الأثريّة في البلاد (...).

142 كان المشاركون في الاجتماع قد أصابهم صدمة شديدة بسبب الأضرار الفادحة وعمليات النهب التي لحقت بالتراث الثقافي العراقيّ تبعاً للنزاع الأخير. وقد طالبوا من قوّات التحالف احترام مبادئ اتفاقية المحافظة على الممتلكات الثقافيّة في حالة النزاع المسلّح (اتفاقية لاهاي). وصاغوا التّوصيات الآتية الموجهة إلى جميع مسؤوليّ النّظام المدنيّ في العراق: 1. وجوب فرض الحراسة الفوريّة لكافة المتاحف والمكتبات والأرشيف والآثار والمواقع في العراق فضلاً عن تأمينها من قبل القوّات الموجودة على عين المكان. 2. منع كلّ تصدير للقطع القديمة أو العتيقة والأعمال الفنيّة والكتب والأرشيف التابعة للعراق. 3. منع الاتجار الدّوليّ بممتلكات التراث العراقيّ. 4. إطلاق نداء للاستعادة الطّوعيّة الفوريّة للممتلكات العراقيّة المسروقة أو التي وقع تصديرها من العراق بصورة غير شرعية. 5. تقوم بعثة تنسّق أعمالها اليونسكو بتقييم مدى الأضرار والخسائر الثقافيّة في العراق. 6. بذل جهود على المستوى الدّوليّ لتيسير عمل المؤسسات الثقافيّة في العراق.

ومن المرجح جدًا ألا تظهر القطع الفريدة المنهوبة من متحف بغداد في السوق الرّسميّة لأنّها غير قابلة للبيع بحكم ذبوع صيتها. ولعلّها ستنضمّ إلى مجموعات خاصّة. وإلى هذه اللّحظة، القطع التي أمكن استعادتها كانت عن طريق الجوامع وبعض العراقيين البسطاء الذين أعلنوا عن ندمهم عمّا اقترفوه. ويتعلّق الأمر بقطع صغيرة، من الفخار أو من عاج مدينة نمرود¹⁴³.

بغداد فريسة النهب الشامل

لقد أحسّ العالم بأسره بحجم الإهانة، ولكنّ عمليّات النهب تواصلت بعيدا عن عدسات الكاميرا. وقد نقل ذلك فليب فلاندارن فقال:

"في الأيام الأولى من شهر أبريل، وفي الوقت الذي تزامن مع دخول القوّات الأمريكيّة، كانت بغداد فريسة نهب شامل. وفي يوم 9 أفريل/أبريل، أمر المقدّم بريان ماك كوي قائد الفيلق الرّابع لقوّات المارينز، رجاله بتدمير التّمثال المرّوع لصدّام حسين المنتصب بجانب فندق فلسطين. وفي الوقت نفسه، فتح الجيش الأمريكيّ باب القصر الرّئاسيّ في وجه جموع النّاس الذين نهبوا كلّ ما فيه قبل اقتحام المباني الرّسميّة، والبنوك، [157] والمحلّات التّجاريّة الخاصّة، ولم يحلّ الجيش دون هذا النهب الشامل (...)

143 استشهد به كريستوف أياد في مقال: تحقيق في النهب الغريب لمتحف بغداد، جريدة: لبيراسيون/ 26 أفريل/أبريل 2003.

وفي يوم 10 أفريل/أبريل نُهبَت المكتبة الوطنيّة بما فيها من مخطوطات تعود إلى الحقبة العثمانية والبويهيّة والعبّاسيّة، فضلا عن مكتبة الجامعة. ولاقت أكاديميّة العلوم ومؤسسة الأوقاف نفس المصير...¹⁴⁴.

كنا نرى هذا ونحن في حالة ذهول، ولم يكن المتحف العراقي هو الوحيد الذي عانى من عمليّات النهب المنظمة التي، للأسف، سمحت بها القوّات المحتلّة. ولهذا السّبب بدا لي¹⁴⁵ من الواجب التّحرّك وبسرعة لتنفيذ التّوصيات المنبثقة عن اجتماعي باريس ولندن.

وبدعم من زملائي في مكتب المدير العام¹⁴⁶، شرعت في إعداد بعثة لخبراء يتعيّن عليهم الدّهاب إلى بغداد في أقرب وقت ممكن.

ومنذ الوهلة الأولى، بدت هذه المهمّة مستحيّلة، فالعائق الأكبر كان يتمثّل، كما هو معلوم، في الحصول على ترخيص من السّلطات الأمريكيّة التي تدير، من الآن فصاعداً، شؤون العراق. وقد أجرى المدير العام اتّصالاً مع المندوبة الأمريكيّة، السيّدة بوني ماغنيس غاردينار، وأحاطها علماً بأنّه ينوي إرسال بعثة إلى العراق في أقرب الآجال، بالتّوافق مع مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانيّة (ORHA). وبداية من 22 أفريل/أبريل، أرسلت اليونسكو لهذا المكتب التّفاصيل الصّوريّة لتنظيم هذه البعثة.

144 Philippe Flandrin, *Trésors volés, Œuvres d'Art-Les dessous du Trafic*, Édition du Rocher, Paris 2011, p.184-185. فيليب فلاندرين

145 على غرار زملائي من خلية الأزمة التي شكّلها المدير العام.

146 وبالخصوص السيّدة فرانسواز ريفيار: رئيسة المكتب، والسيّدة لمياء سلام المديني، مديرة المكاتب خارج المقر العام.

[158] إلا أنه لم تصلنا أي موافقة من وزارة الخارجية الأمريكية التي كنت في اتصال معها عبر ملاحظها الدائم لدى اليونسكو السيد بريان أغلير. وفي بداية شهر ماي/مايو، وفي الوقت الذي كانت فيه وسائل الإعلام لا تركز إلا على المخاطر المترتبة على سقوط نظام صدام حسين، لم أتلّق أي تأكيد للموافقة بشأن البعثة التي يُعتمَر القيام إرسالها¹⁴⁷.

ولقد اتّصل بي سفيران مندوبان دائمان لدى اليونسكو، السيد هنريش وراڤ -رئيس المجلس التنفيذي حينئذ- والسيد جان غاغينو، لإعلامي باندهاشهما من غياب أسماء لخبراء من ألمانيا وفرنسا، مذكّرني بالخصوص بالتقاليد العريقة لبلديهما في مجال البحث في الآثار في العراق.

وقد فسرتُ للسفيرين اللذين تجمعني بهما علاقات وثيقة، أي لو كنت اقتربتُ خبراء من فرنسا أو ألمانيا، لما تلقيت أبدا الموافقة الأمريكية التي لا غنى عنها للذهاب إلى العراق. فهذان البلدان كانا غير موافقين على التّدخل الأمريكي. وفي هذا السياق نذكر أنّ الرئيس شيراك، بالخصوص، قد أكّد يوم الإثنين، 10 مارس 2003 "عزمه على أن يقوم بكل ما ينبغي القيام به لمنع اندلاع حرب ضدّ العراق، ولو أدّى الأمر إلى استعمال حقّ النّقض المَحوّل لفرنسا".

147 وتكوّنت من الخبراء الذين أبرموا عقدا بالدولار الرّمزيّ تعبيرا عن تضامنهم مع التّراث العراقيّ، وهم: نبال ماك غريغور: مدير المتحف البريطانيّ، وجان روسيل من معهد ماسوشيات للفنون، والمهندس روبرتو بارابيتي، مدير المركز الإيطالي للعراقيّ للمحافظة على الآثار التاريخيّة، وكين ماتسيموتو من جامعة كوكشيكان بطوكيو: رئيس البعثة الأثريّة اليابانيّة في كيش بالعراق.

[159] وأوضحتُ لهما، أنه قد توجد بعثات أخرى وسيقع إدراج خبراء بلديهما فيها. ومع ذلك، ظلّ العنصر المجهول، هو الطريقة التي تستطيع أن تنتقل بها هذه البعثة إلى العراق، فهذا البلد لا تؤمّن السفر إليه أية شركة من شركات الطّيران. وجميع المنافذ الموصلة إليه، كانت تخضع إلى رقابة الجيش الأمريكيّ.

وأخيراً، وفي بداية شهر ماي/مايو، تحصّلتُ على مقترحين. أما الأوّل فقد تقدّم به الزّميل نبال ماك غرغور الذي تحدّث عن البعثة مع الوزير الأوّل البريطاني. فقبل السيّد توني بليز وضع خمسة مقاعد على ذمّة البعثة في طائرة عسكريّة بريطانيّة ستقلع من قاعدة عسكريّة على مقربة من لندن في اتجاه بغداد. وأمّا المقترح الثّاني، فصدر عن سفير إيطاليا لدى اليونسكو، السيّد فرانشيسكو كاروزو الذي تلقى بدوره من وزارة الدفاع الإيطاليّة موافقة بتخصيص خمسة مقاعد على متن طائرة عسكريّة إيطاليّة ستقلع من مدينة بيزا في اتجاه بغداد.

وعلى إثر اتّصال من اليونسكو، رفض الأمين العامّ للأمم المتّحدة رفضاً باتاً أن تنتقل أيّة بعثة من اليونسكو على متن طائرة عسكريّة، فضلاً عن أنّ الأمر يندرج في سياق نزاع عسكريّ لم يحظَ بموافقة الأمم المتّحدة.

وقد أعلمني السيّد ماك غوير جيبسون الذي كنت معه على اتّصال دائم بالهاتف، وكان يستحثُّ الأمور من جهته للتحوّل إلى العراق، في وقت متزامن مع بعثة اليونسكو، أنّ وزارة الخارجيّة الأمريكيّة لن تمنحنا أيّ ترخيص، وأنّه

يتعيّن علينا الاتّصال بالبيت الأبيض، فهو السّلطة الوحيدة المؤهّلة لتيسير مثل هذه العملية.

ولكي نصل إلى هذا المستوى من القرار، مكّني السيّد ماك غوير جيبسون من رقم هاتف السيّد مارتن سوليفان مستشار الشؤون الثقافيّة لدى الرّئيس [160] جورج بوش. وعلى هذا النّحو، استطعتُ الحصول على إذن بموجبه تمّ تحديد تاريخ 15 ماي/مايو 2003 لانطلاق البعثة في مهمّتها، بعد سلسلة من الأوامر والأوامر المناقضة لها.

البعثة الأولى إلى بغداد

تحصّلنا، في نهاية المطاف، على موافقة الولايات المتحدة الأمريكيّة، ولكنّنا لم نعلم إلى حدّ ذلك الوقت كيف يمكننا الوصول إلى العاصمة العراقيّة. ومن بين الإمكانيات التي طرحها المسؤول الأمميّ عن البعثات الإنسانيّة التنقل أوّلاً إلى الكويت عبر سفرة منتظمة ثمّ إلى بغداد عبر سفرة أمميّة.

وفي آخر لحظة، وبينما كنّا نتأهّب لركوب الطائرة في أوّل رحلة من باريس إلى لندن، ثمّ من لندن إلى الكويت العاصمة، تلقيت معلومة من مكتب المدير العامّ تشير إلى وجود رحلة بالطائرة الأمميّة انطلاقاً من عمّان من الغد بفضل تدخل شخصيٍّ من السيّد ماتسورا لدى الأمين العامّ للأمم المتحدة السيّد كوفي عنان.

وقد تمكّنا، خلال فترة انتظارنا العبور من عمّان، أن نلتقي بالأستاذ طوني ويلكنسون من جامعة شيكاغو الذي عاد لتوّه من بغداد عبر البرّ بمساعدة

منظمة "ناشينول جيوجرافيك". ووصف لنا وضعيّة أهمّ المواقع التي تمكّن من زيارتها في شمال العراق. وقد بيّن لنا أنّ الوضع مختلف، بين موقع وآخر، فمن المواقع ما لم يُصبه أيّ ضرر، ومنها ما كان، للأسف، يشهد حفريّات سرّيّة.

أمّا الأستاذ ماك غير غبسون الذي اتصل بي عبر الهاتف من بغداد، فقد تمكّن من الوصول إلى جنوب العراق ووصف الوضع بكونه كارثيّاً، [161] ولا سيّما في بابل ونيبور (نفر). وختاماً بعثت إليّ عالمة الآثار النمساويّة السيّد هيلغا ترانكفادار، مراسلة في شأن الوضع في زقورة بورسيبا حيث كانت تشرف على بعثة نمساويّة في علم الآثار.

وعلى هذا النّحو، كانت بعثة اليونسكو قد انطلقت وفي حوزتها مجموعة من المعطيات التي سيكون من الممكن مناقشتها على عين المكان مع المسؤولين عن التراث العراقي. وألحق بالبعثة عضو من الأمن التابع لليونسكو تولى مصاحبته في رحلتي الذهاب والإياب وأثناء المأموريات من 15 إلى 20 ماي/ مايو 2003 إذ أنّ السلطات الأمريكيّة في بغداد تنصّلت من كلّ مسؤولية تخصّ سلامتنا!

لم نكن في السفارة الأمميّة من عمّان إلى بغداد، سوى ستة أفراد تابعين لليونسكو¹⁴⁸. وكانت السلطات الأمريكيّة تفرض أن تتولى طائرة مروحيّة القيام بهذا النوع من الرحلات المقنّنة تقنيا صارما. وأخيرا، تمكّنت البعثة من

148 كانت ضمن هذه الرحلة، المديرية العامّة لليونيسيف السيّد كارول بلّامي مصحوبة بمساعدتها.

الوصول إلى بغداد صباح يوم 17 ماي/مايو. وبعد إجراءات التثبّت المعمول بها من قِبَل الجيش الأمريكيّ الذي كان يؤمّن مراقبة مطار بغداد، تمّت مرافقة البعثة إلى غاية مكتب الأمم المتحدة بعربتين لليونسكو ووضعتنا على ذمتها في إطار برنامج " النّفط مقابل الغذاء".

وبمجرّد وصولنا، خضعنا لتكوين موجز في مجال السلامة قبل أن نتمكّن من مقابلة منسّق الأمم المتحدة للسلامة والمساعدة الإنسانيّة زيادة على مسؤول أمريكيّ رفيع المستوى. كان الأمر يتعلّق بالسفير الإيطاليّ بيرو كوردون¹⁴⁹ الذي [162] عُيّن منسّقاً مدنيّاً لإدارة التراث العراقيّ لدى بول بريمر الذي عينه الرئيس الأمريكيّ جورج بوش رئيساً للإدارة المدنية في العراق. في البداية، جرى الاجتماع في جوّ متوتّر لأنّ السلطات الأمريكيّة لم تستوعب الصبغة الاستعجاليّة لهذه المأموريّة في بلد كان يعيش في انعدام كبير للأمن. ومع ذلك، وبعد نقاش دام أكثر من ساعة، تمّ الإقرار بأنّ مبادرة اليونسكو بإرسال خبراء معترف بجودة كفاءتهم، تكتسي أهميّة باعتبار أنّ المنظمة هي "الحامي المعترف به في صون التراث".

وقد دعانا هذا الموقف الإيجابي إلى عدم اتباع التعليمات التي قدّمت لنا سابقاً والتي تطلب منا العودة إلى مدينة الكويت كلّ ليلة، إذ لا توجد في بغداد، في تلك الفترة، أي مؤسسة فندقية مضمونة وتشتغل بشكل عاديّ. فأقمنا في خيام تابعة للمفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين،

149 كان السفير بيرو كوردون مصحوباً بالعقيد كاسال والأميرين ستروب وإيركسن من الجيش الأمريكي وكذلك ممثّل وزارة الثقافة البريطانية السيّد فرجوس مورير.

ضُربت في حَرَمِ المقرِّ الرئسيِّ للأمم المتحدة. وقد مكنا ذلك من ربح وقت ثمين أتاح لنا فرصة عقد جلسات عمل مطوّلة مع المسؤولين العراقيين، والقيام بزيارات معمّقة للمؤسّسات الثقافيّة المتضرّرة.

عودة إلى المتحف الوطنيّ

تمّت أوّل زيارة للمتحف العراقيّ صحبة السفير بيرو كردون ومساعديه من ضباط الجيش الأمريكيّ. وأنداك، كانت توجد أمام [163] المتحف دبابة في وضعيّة تأهّب، وما يزيد عن اثني عشر جنديًا أمريكيًا متمركزين عند مدخل المبنى، ولكن للأسف فات أوان ردع المعتدين.

استقبل البعثّة المدير العامّ لهيئة الآثار العراقيّة السيّد جابر خليل ومساعداه دوني جورج ومديرة المتحف السيّدة متوّي. وكشف العرض الذي قدّموه، الدرجة المهولة التي بلغتها الكارثة الثقافيّة، من ذلك: نهب المتحف العراقي ومؤسّسات ثقافيّة أخرى مثل المكتبة الوطنية التي تعرّضت لحريق إجراميّ، ونهب بيت الحكمة، وتخريب القصر العباسيّ، وإفراغ المركز الإقليمي لحفظ الممتلكات الثقافيّة من كتبه، وسلب محتويات متحف الفنون الجميلة ومتحف الفنون الشعبيّة، فالوضع شبيهه بتسونامي حلّ بالمدينة.

وأشار دوني جورج أنّه قام صحبة السفير الأمريكيّ جون ليمبارت، بمأموريّة سريعة في شمال العراق، بواسطة طائرة مروحيّة، للاطمئنان على وضعيّة الموقعين الأثريين: نينوى وآشور. وكان المسؤولون عن هذين الموقعين في حالة إحباط بسبب غياب وسائل الاتصال الذي شلّ مديريّة البحوث الأثريّة، وعزلها تماما عن الدوائر الأثريّة والمتاحف التي تشرف عليها.

وهما أن زملاءنا العراقيين لم يتقاضوا أي راتب شهريّ منذ بدء الاجتياح، بادرتُ بتقديم المبلغ المالي الذي كان من المفروض دفعه للفندق الذي لم نُقِم فيه في نهاية المطاف. ومكّن هذا المبلغ، وقتيًّا، [164] من إغاثة مجمل موظفي المتحف وهيئة الآثار الموجودين في بغداد.

هذه المبادرة التي تناقلت خبرها الصحافة اللبنانية، دفعت، على الفور، السفير بيرو كوردون إلى إعلام بول بريمر حاكم العراق بضرورة التّكفّل برواتب الموظفين العراقيين، إذ أنّ الأمر لم يُقرأ له حساب في الإجراءات العاجلة.

مكّنت الزيارة المعمّقة للمتحف الوطنيّ من تقدير حجم الأضرار الجسيمة. لم يُفُلت من أعمال التخريب ولو مكتب واحد من مكاتب الإدارة، فكلّ الأبواب خُلعت، والخزانات فُتحت بالقوّة ودُمّرت. وكانت وسائل الإعلام قد أعلنت عن عدد مهول من القطع المسروقة بلغ سبعين ألف قطعة، بناء على تصريح متسرّع بعض الشيء، من موظفة في المتحف تُدعى السيّدة نيهال...

والخزنتان اللتان كانتا تحتويان أموال رواتب شهر أفريل/أبريل خُلعتا، وبُعِثت جميع الوثائق الإداريّة والأرشفية على الأرض. أمّا قاعات العرض في المتحف فتم الإضرار بها، رغم إخلائها من جُلّ محتوياتها قبل بدء الحرب. وأمّا القطع الأثريّة الثقيلة فقد حُطّمت كلّها على عين المكان.

عدد كبير من واجهات العرض تمّ تكسيورها، وبطبيعة الحال اختفت محتوياتها: هي قطع صغيرة، مثل القناع والمزهريّة المصنوعين من مرمر مدينة الوركاء (أوروك) واللذين كانا من قطع المتحف الرئيسيّة. وهذا ما

دفع زميلنا جون روسل إلى القول في الندوة الصحفية: "ما حصل يُضاهي بسرقة لوحة الموناليزا من متحف اللوفر!".

كان أعضاء البعثة الخمسة متأثرين أشدّ التأثر بسبب الحالة المزرية التي وصل إليها موظفو المتحف، وبالخصوص عندما دخلنا ما كان في السابق مَخبراً، وأضحى خراباً كما لو أنّ إرادة ما قرّرت [165] ألاّ تُبقي شيئاً في وضع اشتغال. وعلى الرغم من ذلك، ومن أجل الحصول على تقييم أكثر دقّة في شأن القطع المسروقة، تمّت زيارة المتحف مرّة ثانية، وتولت قيادتها المديرة التي رآها المشاهدون تبكي عندما عادت إلى متحفها في منتصف شهر أفريل/أبريل. وقد قرأنا في كتاب فيليب فلاندران أنّ السيّدة متولي "عاشت نهب المجموعات التي كانت مسؤولة عنها كعملية اغتصاب آلمتها في عمق ذاتها"¹⁵⁰.

لقد سُرق أهمّ جزء من القطع انطلاقاً من مخازن المتحف رغم تحصينها بالجدران. وتبعاً لهذا، فإنّ أغلب الرفوف كانت أمامنا فارغة تماماً. والخبراء الوحيدون الذين دخلوا إلى هذه المخازن يوم 22 أفريل/أبريل 2003 قبل بعثتنا، ينتمون إلى فريق من ثلاثة عشر عضواً في مركز القيادة الذي يديره عقيد من المارينز.

ولا بدّ أن نشير عَرَضاً، إلى أنّ تدخلات العقيد بوغدنوس في شأن اليونسكو ظلّت على درجة من الحدّة إلى أن التقيت به في نيويورك في شهر أوت/أغسطس سنة 2006، وقد عرض فيليب فلاندران هذا الأمر على هذا النحو:

150 Philippe Flandrin, *Trésors volés, Œuvres d'Art-Les dessous du Trafic*, Édition du Rocher, Paris 2011, p.199.

"في 30 أفريل/أبريل صرّح بوغدنوس (...) أنّ أمناء المتحف قدّموا له لائحة تتضمّن تسعا وعشرين تحفة فنيّة، اختفت أربع منها، وسيتمّ العثور عليها لاحقا. وختم العقيد قائلا: "خمس وعشرون قطعة رقم يختلف كثيرا عن مائة وسبعين ألف قطعة" (...).

وعلى هذا النحو ظهرت لائحة بوغدنوس، التي لا تقلّ غرابة عن لائحة السيّدة نبال. وفي الحقيقة عند الاطّلاع عليها يعسر على المرء أن يميل إلى تصديق من يقول إنّ أيّام النهب الحادّ الثلاثة لم تشهد اختفاء مائة وسبعين ألف قطعة، بل تسعا وعشرين! (...)

[166] "كانت الأمور ستُعتَبَر على أحسن حال لو لم تصل إلى المتحف في آخر الشهر بعثة خبراء من اليونسكو كانت حصيلة تقييمها أقلّ ما يقال فيها إنّها مختلفة، لأنّ مديرها ارتأى أن يحشر أنفه في المخازن."

فعلا كانت بعثتنا قد سجّلت اختلافها مع تقرير العقيد بوغدنوس. ولئن كان من المتعدّر تقديم رقم نهائيّ بعد زيارة دامت يومين، فقد قدرنا أنّ الأمر يتعلّق بعمليات نهب تجاوزت بكثير عدد عشرة آلاف قطعة، ولكن كان لا بدّ من انتظار عملية الجرد النهائيّة للتصريح بذلك. وتمّ الجرد، وأثبت أنّ الأمر يتعلّق بخمس عشرة قطعة اختفت من المتحف في غضون يومين.

مدينة مدمّرة تدميرا كاملا

لمّا كنّا على علم بأنّ مؤسسات ثقافية أخرى كانت هي أيضا ضحية للنهب والإتلاف، فإنّنا واصلنا زيارتنا، فتنقلنا إلى مسجد الكاظميّة حيث

يوجد قبر الإمام أبي حنيفة صاحب المذهب الذي يتبعه مئات الملايين من المسلمين. ولقد كان الحيّ الواقع حول هذا المسجد مسرحاً لمعارك عنيفة جدًّا مازالت آثارها ظاهرة للعيان.

أمّا المسجد في حدّ ذاته فقد طالته الطلقات، وأمّا المقبرة القروسطيّة المجاورة له، فقد ألحق بها القصف أضراراً. وحسب الشيخ الذي رافقنا، دخلت قوَّات الجيش الأمريكيّ المسجد وخلعت باب مدفن الإمام أبي حنيفة ظلًّا منها أنّ الرئيس صدّام مختبئ فيه.

[167] وبعد ذلك، تحوّلت البعثة إلى المكتبة الوطنيّة ومركز الأرشيف. لقد تمّ نهب البنائيتين وحرقهما من الطابق الأرضي إلى الطابق الثالث. وبالمناسبة فقد عثرنا هناك على قاذفة نيران من المؤكّد أنّ من خلّفها هم مشعلو النيران...

المكتبة الوطنية التي يعود تاريخ إنشائها إلى سنة 1920، تضمّ، حسب مديرها، أكثر من مليوني كتاب وضع نصفها في مأمن. وشهدت أقسام الفهرسة والميكروفيلم والتسفير والدوريات إتلافاً مُمنهجاً لتجهيزاتها. وفي بعض القاعات كنّا نسير تقريبا فوق طبقة رماد من عشرين سنتمترا. وحتىّ أسس البناية فقد تضررت بسبب حريق اندلع ودام يومين، ولم تتدخّل أيّ جهة خارجيّة لإطفائه.

أمّا بيت الحكمة، المؤسسة الثقافيّة التي أنشئت في العصر العبّاسي وكانت مقرّ أول برلمان عراقيّ، فقد أُفرِغت بنايته من جميع تجهيزاتها

وأحرقت قاعة البرلمان القديمة بالكامل. بيت الحكمة هذا، مَعْلَم ساعدت منظمة اليونسكو على ترميمه سنة 1999! إنّه يقع بجانب القصر وهو من بين بنايات العاصمة القلائل التي يعود جزء منها إلى القرن التاسع، وقد أصابه تخريب لا سيما في غرف الحمام التقليدي حيث هُشِّمت منحوتتان رخاميتان، وتُركتا على عين المكان.

وفي نهاية المطاف تنقلنا إلى المنطقة التي تضمّ مسجد الكاظمية (العتبة الكاظمية) حيث يوجد ضريح الإمام موسى الكاظم الذي يُجَلِّه المسلمون عامّة والشيعية على وجه التخصيص. ولحسن الحظّ لا وجود لأيّ ضرر يذكر في هذا المسجد المشهور بقبابه النحاسية المغلّفة بورق الذهب.

أثناء هذه الزيارة الأولى إلى بغداد [168] أكّد لنا السيّد فرانسيس ديبوا، ممثل برنامج الأمم المتحدة للتنمية¹⁵¹، والمقيم في العراق أنّه على ذمّة اليونسكو ويمكن التعويل عليه. وأمکن لنا أيضا أن نلتقي، ولو لمُدّة قصيرة، بالسيّد سرجيو فييرا دي ميلو الذي عُيِّن مؤخرا ممثلا رفيعا لأمين عام منظمة الأمم المتحدة في العراق¹⁵².

وقد تمّ عرض حصيلة هذه الأيام الأربعة التي قضيناها في بغداد، أثناء اجتماع ختاميّ مع السفير بيرو كوردون، عُقد في مقرّات الأمم المتحدة. وقَدّمنا خلاله، توصياتٍ وقتيةٍ وطلبنا عمليات تدخّل عاجلة لا بدّ من القيام

PNUD 151

152 حضرت اللقاء معه مساعدته السيّد نادية يونس. وقُتِل الاثنان مع عشرين من زملائهما، بعد بضعة أسابيع، في هجوم على المقرّ الرئيسيّ للأمم المتحدة نفذته تنظيم القاعدة بقيادة أبي مصعب الزرقاوي يوم 19 أوت/أغسطس 2003.

بها، مثل نقل موظفات المتحف اللوآي كنّ خائفات من الذهاب إلى موقع عملهنّ بسبب عمليات اختطاف النساء في الشارع وفي وضح النهار.¹⁵³

ومن جهة أخرى، عبّر زملاؤنا في برنامج الأمم المتحدة للتنمية عن رغبتهم في أن تُقدّم، على جناح السرعة، مساعدة تتيح تكوين موظفي المتاحف الموجودين في مؤسسات لا تشتغل البتة. فاستجاب مدير عام اليونسكو، فوراً، لهذا المطلب وقرر صرف مبلغ بخمس وعشرين ألف دولار للغرض.

[169] وكان للتقرير والتوصيات¹⁵⁴ التي قدّمتها البعثة إلى منظمة اليونسكو، وقع هامّ ونتيجة بارزة وغير مسبوقة في ذاك الوقت، وتتمثّل في مصادقة مجلس الأمن في الأمم المتحدة، بالإجماع، على قرار متعلّق بحماية التراث في العراق وحظر الاتجار غير الشرعيّ بالتراث.¹⁵⁵

153 استجاب برنامج الأمم المتحدة للتنمية، لمطلبنا بأنّ يمكننا لمُدّة ستة أشهر من حافلة صغيرة لنقل الموظفين، على أمل أن تتحسنّ الأوضاع الأمنية بعد هذه المدّة. وقدّمت لنا توصيات بالتجول من الساعة 08:30 إلى الساعة 16:30 ويتجنّب بعض الأحياء التي نكون فيها نحن وسياراتنا عرضة للسرقة.

154 انظر التوصيات الأوّلية لبعثة شهر ماي/مايو 2003 إلى بغداد ضمن الملاحق.

155 القرار 1483 المصادق عليه من مجلس الأمن في دورته 4761 بتاريخ 22 ماي/مايو 2003؛ إذ يشدد على ضرورة احترام التراث الأثري والتاريخي والثقافي والديني للعراق، ومواصلة حماية مواقع الآثار والمواقع التاريخية والثقافية والدينية، والمتاحف، والمكتبات، والآثار. الفقرة VII: يقرّر أن تتخذ جميع الدول الأعضاء الخطوات المناسبة لتيسير أن تعود بسلام إلى المؤسسات العراقية تلك الممتلكات الثقافية العراقية والأشياء الأخرى ذات الأهمية الأثرية والتاريخية والثقافية وذات الأهمية العلمية النادرة وذات الأهمية الدينية، التي أخذت بصورة غير قانونية من المتحف الوطني العراقي والمكتبة الوطنية ومن مواقع أخرى في العراق منذ اتخاذ القرار 661 المؤرخ في 06 أوت/أغسطس 1990، بما في ذلك عن طريق فرض حظر على الاتجار بهذه الأشياء أو نقلها وكذلك الأشياء التي من المعقول الاشتباه في أنها أخذت بصورة غير قانونية، ويطلب إلى منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) والمنظمة الدولية للشرطة الجنائية (الإنتربول)، والمنظمات الدولية الأخرى، حسب الاقتضاء، المساعدة في تنفيذ هذه الفقرة.

تخريب عام في المواقع [الأثرية] العراقية

مثل الأمر، بالنسبة إلى مجلس الأمن في منظمة الأمم المتحدة، سابقة إذ لأول مرة تُدرج مسألة صون التراث الثقافي في نص قرار يتضمن إجراءات ذات طبيعة سياسية واقتصادية. مسنوداً بالمصادقة على [170] هذه الوثيقة، سرعان ما وافق المدير العام على مقترحي الممثل في إرسال بعثة ثانية إلى العراق مفوض لها زيارة المواقع الأثرية الرئيسية في البلاد باعتبار أن البعثة الأولى كانت مقتصرة على وجودنا في العاصمة العراقية.

وبطبيعة الحال اقتضى الأمر مرة أخرى مفاوضات مع الزملاء في الأمم المتحدة الذين عبّروا عن تخوّفهم لما علموا أنّ اليونسكو انتدبت، لبعثة ثانية إلى العراق، ثمانية خبراء من بينهم خبيرة ألمانية وخبير فرنسي، واستغربوا من مسارعتنا بالتنقل إلى منطقة مشهورة بانعدام الأمن فيها. أمّا من ناحية العلاقة بالسلطات الأمريكية فقد تمّت المحافظة على التواصل مع ملاحظ الولايات المتحدة الدائم لدى اليونسكو ومع المسؤولين في وزارة الخارجية. وبما أنّ تقرير البعثة الأولى قد اعتُبر أنّه يعرض بصورة موضوعية وضعيّة كارثية فإنّ الموافقة على إرسال بعثة [ثانية] لم يطرح مشاكل كبرى، إلاّ أنّها مشروطة بالأبداً يتمّ التعويل على السلطات الأمريكية في تأمين سلامتها. وقد أنجزت البعثة الثانية مهامّها في العراق بين 27 جوان/يونيو و7 جويلية/ يوليو 2003 بمشاركة ثمانية خبراء، أي ضعف المشاركين في البعثة السابقة. كانت منظمة الأمم المتحدة قد قدّرت أنّ الوضع الأمني من الدرجة الرابعة (تدهور كبير للوضع يقتضي الحصول على ترخيص تنقل خاص) وهو يجري

على معظم التراب العراقي، ولكن ثمة منطقتان من الدرجة الخامسة (هي توافق مرحلة إجلاء كل موظف في الأمم المتحدة ومنع أي مأمورية).¹⁵⁶

[171] ومثلما حدث في البعثة الأولى لشهر ماي/مايو، في البداية، تلقينا، في مقرّات الأمم المتحدة، التعليمات المتعلقة بالسلامة والتقينا من جديد بالسفير بيرو كوردون مصحوبا بالسيدة ساره كولينز الملحقة من المتحف البريطاني بسلطة التحالف المؤقتة (CPA). ويتم إنجاز جميع العمليات المتعلقة بصون التراث الثقافيّ تحت سلطته.

وقد تمّ تنظيم البعثة الثانية بالتعاون الوثيق مع سلطة التحالف المؤقتة وتلقّت دعماً شخصياً من السيد سيرجيو فييرا دي ميلو، ممثل الأمين العام للأمم المتحدة في العراق. وقد التقينا به آخر مرة، قبل شهر من وفاته صحبة عشرة من زملائه في هجوم إرهابيّ استهدف في شهر أوت/أغسطس 2003 مكاتب ممثلية الأمم المتحدة حيث كانت تُعقد اجتماعاتنا. أمّا من جهة الطرف الأمريكيّ فقد تمّ تكليف المدير العام السابق للوكالة الوطنية للآثار والمتاحف، السيد مؤيد سعيد الدامرجي [172] بمهمة مستشار لدى السفير بيرو كوردون. وكان بوجه من الوجوه، يقوم بدور "وزير الثقافة". وقد بادر

156 تتكوّن البعثة من: منير بوشناق مدير عامّ مساعد مكلف بالثقافة ورئيس البعثة. الفريق أ (المتاحف): الدكتور أوي شيجيو مدير قسم تقنيات الترميم، المعهد الوطني للبحث في الممتلكات الثقافية (اليابان). (الأرشيف والمكتبات): جان-ماري أرنولت متفقد عام المكتبات (فرنسا). (المعالم الأثرية): أوسام غيدان، مهندس معماري، اليونيسكو النقطة المحورية للثقافة (هولندا). الفريق ب (المواقع الأثرية): إنغولف ثيوزن عالم آثار، مدير معهد كارستن نيبوهر لدراسات الشرق الأدنى (الدنمارك)، مارغرت فان ايس عالمة آثار، مديرة علمية لقسم الشرق بمعهد الآثار الألماني (ألمانيا)، روبرتا فينكو، عالمة آثار قسم علوم الأثرولوجيا والتاريخ والآثار، جامعة تورينو (إيطاليا)، كان ماتسوموتو عالم آثار، جامعة كوكوشيكان (اليابان)، كارل-هاينز كيند ممثل الإنترنت (فرنسا).

بالتعبير عن ارتياحه لإرسال اليونسكو بعثة أخرى إلى العراق وعن استحضانه "صمودنا وشجاعتنا"، ودعانا إلى حضور الافتتاح الاستثنائي للمتحف العراقي الذي سيلتئم في 3 جويلية/يوليو 2003 وسيُعرض فيه "كنز نمرود".

ولأسباب أمنية عمل أعضاء البعثة دائماً معاً، وقد أمنت جميع التنقلات وحدة اليونسكو التي يقودها السيد محمد جليد الذي كان يشتغل في قطاع التربية في إطار برنامج "النَّفط مقابل الغذاء". وبناء على الاختصاصات التي يمثلها الخبراء، فإنَّ أهمَّ مجالات التراث الثقافي في العراق كانت مؤمنة من قبل هذا الفريق المتعدّد الاختصاصات.

أمَّا على الصعيد اللوجستيّ، فقد وُضعت على ذمّتنا أربع سيارات تحمل شعار اليونسكو وأربعة سائقين عراقيين. وكان يصاحبنا زميلان عراقيان، السيدة نيباب والسيد بسمان، اللذان كانا على درجة كبيرة من الجاهزية والجدوى، وسهرا على سلامتنا في كلّ لحظة بتجنيبنا الطرقات التي يقدران أنّها خطيرة وبالتدخّل، بالخصوص، من أجل الحصول على الوقود الذي كان يباع آنذاك في السوق السوداء.

[173] نهب بابل وأوما (تل جوخة)

وعلى هذا النحو، تمكّنت البعثة من تنفيذ كلّ البرنامج الذي صُبط مع مكتب الأمم المتحدة في بغداد وممثل سلطة التحالف المؤقتة. وبدءاً من بابل أمكننا معاينة وضعية متحف الموقع اللذين خرّبا وانطلقت فيهما أشغال الإصلاح. ولكننا فوجئنا وصدّمتنا خاصّة بضخامة القاعدة العسكرية الأمريكية

المنتصبة في قلب هذا الموقع الأثري المرموق: دبابات، وشاحنات بصهاريج، ومروحيات مقاتلة تحلّق وأزيزها قد يلحق أضراراً بالمباني القديمة.

"بابل هي بلا منازع أحد المواقع الأثرية الأكثر قيمة في العالم، والأضرار التي تتسبب فيها القاعدة العسكرية تمثل ضربة موجعة موجهة إلى التراث العراقي" هذا ما أكّد عليه جون كورتيس مدير قسم آثار الشرق الأدنى في المتحف البريطاني.¹⁵⁷

وفي هذا الموضوع كتبت زينب بحراني، عالمة الآثار العراقية وأستاذة التاريخ القديم بجامعة كولومبيا بنيويورك، من ناحيتها فقالت: "القوات العسكرية الأمريكية لم تكف بالتغاضي عن حماية المواقع التاريخية والممتلكات الثقافية فحسب، بل ساهمت هي نفسها في انتهاكه. فقد قصفت هذه القوات جامعة بغداد التي يعود تاريخ إنشائها إلى القرن الثامن، وحوّلت مدينة أور إلى قاعدة عسكرية ووصل الأمر حدّ حفر خنادق في أرضها. والدبابات الأمريكية تتنقل في دروب بابل القديمة في حركة رمزيّة معبرة عن النصر".¹⁵⁸

[174] في 2004، رحلت القوات الأمريكية من بابل وعوّضتها القوات البولونيّة. وخوفاً من ردّة الفعل الدوليّة على الأضرار التي لحقت موقع بابل، ألحق بالجيش البولوني عالماً آثار بولونيان كي يتولّى تحرير "كتاب أبيض" حول حالة الموقع والإجراءات المتخذة وحتى لا يتمّ نسبة تلك الأضرار إليهم.

157 نقلت ذلك جريدة "لوموند" في 15 أوت/أغسطس 2007: عندما تُسمّى بابل القاعدة ألفا.

158 عن الأستاذة زينب بحراني في "رسم خرائط العالم" (Mapping the World's)

لاحظت بعثتنا وجود قواعد عسكريّة أمريكيّة في أور، وبالخصوص في موقع كيش الذي أجرت فيه بعثة يابانيّة للآثار حفريات، وحيث طُلب منّا ألاّ نلتقط صُورًا، فُصودر ما لدينا من آلات تصوير وتمّ اقتياد كل المجموعة تحت الحراسة إلى مركز القيادة في منطقة الحِلّة.

وقعت هذه الحادثة يوم 30 جوان/يونيو في يوم قانظ بلغت حرارته ثمانية وأربعين درجة، ولم نتمكّن من استرجاع معدّات التصوير إلّا بعد الاستظهار بوثائقنا ورخصتنا الرسميّة التي وقّعها السفير كوردون. وتحت الخيمة سقانا العقيد ماء باردا وعبرّ لنا عن أسفه على ما حدث.

وفي طريقنا إلى أوروك (الوركاء) ومنها إلى لارسا، تمكّنا من رؤية موقع المدينة السومريّة أوّما القريبة من بلدة تل جوخة، وهو يتعرض إلى عمليات تنقيب غير شرعية من غرباء فاجأهم وصولنا من طريق ترابيّة فظنوا أنّ دوريّة عسكريّة حلّت بالمكان. فتخلّوا عن معاولهم وفؤوسهم وحتى عن بعض من قريهم. وأمكنا أن نطلع على هول ما تعنيه الحفريات غير الشرعيّة وعلى التدمير غير القابل للمعالجة الذي تحدّثه في موقع، هو لحسن الحظّ، [175] موثّق الآن أحسن توثيق بصور أقمار صناعيّة في 2003 و2011 قابلة للمقارنة.¹⁵⁹

ونبّهنا الزميلان العراقيان المصاحبان لنا، إلى أنّ اللصوص سرعان ما سيتفطّنون إلى أنّنا غير مسلّحين مثلهم، لذا يكون من الأفضل مغادرة المكان

159 تمّ الكشف عنها في جامعة شيكاغو أثناء معرض عنوانه "كارثة"، وهذه الصور شاهد على المأساة العراقيّة، جريدة لأكروا الفرنسيّة في 7 فيفري/فبراير 2011.

بسرعة. وعندما وصلنا إلى أوروك، الواقعة على بعد ثلاثمائة كيلومتر جنوب بغداد، كانت الوضعية الموجودة أمامنا، لحسن الحظ، مختلفة تمام الاختلاف. هذه المدينة ذات الأطلال الراجعة إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة والمحافظة على أحسن وجه، تجري فيها منذ سنوات كثيرة حفريات تنجزها بعثة ألمانية في الآثار. وشرحت لنا رئيسة هذه البعثة السيدة مارغيتا فان آس، والموجودة ضمن فريق الخبراء، أنها ظلت، طيلة فترة الاضطرابات، على اتصال بالحرّاس وبالقبيلة المحليّة. ولهذا السبب ظلّ الموقع على حاله. ولا يفوتني أن أذكر أنّ شيخ القبيلة استقبلنا متسلّحاً برشاشه وأكّد لنا التزام رجاله بحماية الموقع والذود عنه.

حالت عاصفة رملية دون زيارة لارسا، فتنقلنا إلى أور حيث اتخذت، من جديد، قوات الجيش الأمريكي، مقرّاً لها في نفس موقع القاعدة الجويّة العراقية ومنعنا من التقاط صور.

[176] حريق مكّبات البصرة

بعد ذلك، تمكّنت البعثة من التحوّل إلى البصرة رغما عن التعليمات التي تلقيناها والتي تمنعنا من التنقل ليلاً. ولكن مرّة أخرى، نصحنا زميلانا العراقيان بعدم قضاء الليلة بالناصرية. ومثلما أشرت إلى ذلك سابقاً، لم يكن من اليسير التزوّد بالوقود وتقريباً كلّ محطات التزويد القليلة العدد تمّ الهجوم عليها. وكان لا بدّ من وجود دبابة وقوات أمريكية لتنظيم طابور السيّارات الطويل. وبعد أن تنقلنا بين كلّ محطات الوقود في مدينة الناصرية،

عملنا بنصائح السائقين واقتنينا الوقود من السوق السوداء خارج المدينة. واقتضى ذلك منا أن نوصِّح لهم أننا لسنا أمريكيين ولا جواسيس... إذ في البداية عاملونا بازدراء قائلين: "اذهبوا إلى أصدقاؤكم الأمريكيان وسيمدونكم بالوقود!"

كانت زيارة المكتبة البلديَّة بالبصرة مُنهكة ولا سيما بالنسبة إلى زميلنا جان ماري أرنولت، المتفقد العامِّ لمكتبات فرنسا الذي صرَّح لنا بأنَّه لأوَّل مرَّة يرى حريقاً يمثِّل هذه البشاعة:

"لم أر، قبل زيارتي للعراق، تدميراً بهذا الحجم الهائل! لم يبق شيء من المكتبة البلديَّة للبصرة. أنا أتقلُّ عبر العالم منذ ثلاثين سنة، وتلك كانت أوَّل مرَّة في حياتي أرى فيها ما رأيت. حقيقة كان الأمر مؤلماً... اندثر كلُّ شيء... في البصرة كما في بغداد اعتمدت نفس الطريقة لتدمير المكتبات... لم يكن الأمر متعلِّقاً بأطفال يلعبون بأعواد ثقاب. [177] فالكتاب لا يحترق بسهولة. فكي يستحيل رمادا لا بدَّ فعلا من درجات حرارة مرتفعة..."¹⁶⁰

ومثلما هو الحال في بغداد، تمَّ بالخصوص استهداف المؤسَّسات الثقافيَّة لثالث مدينة في البلاد نهبا وتدميرا مُمنهجا. وفي الجامعة، احتُرقت المكتبة أيضا وحُمِّل كلُّ ما يمكن حمله بما في ذلك مناشب الكهرباء.

والمشهد مؤسف كذلك في متحف التاريخ الطبيعيِّ للمدينة فقد اندثرت منه إلى الأبد وثائق ثمينة تخصَّ سباح جنوب العراق. فهذا المتحف أحرق

160 جان ماري أرنولت، جريدة لوموند الفرنسيَّة في 5 أوت/أغسطس 2004.

بالكامل ودُمرت أبوابه ونوافذه كما هو الحال في متحف الفلكلور. وفي المقابل لم يدمر متحف الآثار وإمّا اتخذته عائلة مسكنا لها بالقوّة ومنعتنا من دخوله. وبعد هذه الزيارة السريعة لجنوب العراق رجعت البعثة مرّة أخرى إلى بغداد بناء على دعوة من بول بريمر الذي قرّر فتح المتحف الوطني بصفة استثنائية صبيحة يوم 3 جويلية/يوليو لعرض كنز نمرود الذي أمكن إنقاذه من الكارثة بحفظه في دهايز البنك المركزي.

وقد روى فيليب فلاندران الوضعية التي وجد عليها هذا الكنز فقال: "في شهر جوان/يونيو، في شارع الرشيد بقلب بغداد، تمّ تحت إدارة العقيد بوغذنوس، فتح دهايز البنك المركزي. وفي غرفة مُصفحة صمد سقفها وجدرانها في وجه الحريق والقصف، استخرج رجال الإطفاء الكنز الذي اكتشفه مُزاحم محمود وهو مغطى بالطين ولم يصبه أيّ أذى، زيادة على مجموعة من المجوهرات التي اكتشفها [178] في مقابر أور السير ليونارد وُولي ودون أن ننسى المجموعة الخاصّة بالعائلة الهاشميّة التي حكمت العراق من 1918 إلى 1958".¹⁶¹

وهكذا، شاركت بعثة اليونسكو في هذا الافتتاح اليتيم للمتحف الوطني والذي لم يدمر إلّا مدّة نصف يوم. وكان بحضور الحاكم بول بريمر والسفير كوردون المحاطين بإجراءات أمنيّة مذهلة. وقد تابعنا في حضرتهما تقديم كنز نمرود. ونقل فيليب فلاندران ذلك في كتابه فقال:

161 فيليب فلاندران، المرجع السابق، ص 203.

"كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحا عندما فُتحت أبواب قاعة كنز نمرود. وكان بداخلها جنود أمريكيون ورجال من الحرس الإيطاليّ ودبلوماسيون. وكان بيترو كوردون والعقيد بوغدنوس في انتظارنا مع بول بريمر... الذي تمت مصاحبته حتى بلغ تاج مخنست نينوى فأبدى أمامه علامات الدهشة بينما كانت آلات التصوير ترسل بريق أضواؤها المتتالي".

أثناء هذا العرض لكنز نمرود، عُرضت كذلك قطع أمكن استرجاعها ومن بينها مزهرية أوروك الشهيرة. وتمكّنت بعثة اليونسكو أن تتحدث طويلا مع الحاكم بول بريمر وأن تحيطه علما بالحفريات غير الشرعية التي مازالت متواصلة في البلاد حسب ما لدينا من معطيات دقيقة جدًا في شأنها ولا سيما بعد أن زرنا جنوب العراق.

والتقطت لنا صورة جماعية مع الحاكم بول بريمر وهو محاط بكلّ موظفي المتحف الوطنيّ الفخوريين بالفرصة التي أُتيحت لهم لعرض [179] مجوهرات فريدة تخالها لشدة بريقها قد صُنعت حديثًا. وهذا ما جعل الحاكم يقول على سبيل الفكاهة إنّه لا يرى مانعا أن يأخذ إحدى هذه القلائد هديةً لزوجته. وعند الظهر انتهى كلّ شيء وأغلق المتحف أبوابه من جديد وحفظت السيّدة نوال المتوكّل، مديرة المتحف، الكنز مرّة أخرى في مكان آمن.

واصلت بعثتنا طريقها نحو شمال البلاد لزيارة أربيل حيث عُقدت جلسة عمل مع المسؤولين المحليين عن التراث في المتحف الصغير الموجود في

موقع القلعة. لم يلحق النزاع أذى بهذا الموقع الذي سيُدْرَج فيما بعد في قائمة التراث العالميّ أثناء اجتماع المجلس في الدوحة سنة 2014.¹⁶² وطيلة بعثتنا التي انطلقت في شهر جويلية/يوليو 2003، كانت أربيل المدينة الوحيدة التي يتوقَّر فيها حدٌّ أدنى من الأمن، وهذا ما مكَّننا من إقامة مأدبة عشاء في أحد مطاعم المدينة المحروسة طبعاً من القوات الأمريكيّة. وهي أيضاً المدينة الوحيدة في العراق التي لم يُعلن فيها حظر الجولان.

تدمير تنظيم الدولة الإسلاميّة لتراث نينوى والموصل

كانت الطريق من أربيل إلى الموصل تبدو آمنة. وهذا ما أتاح لنا فرصة التوقّف طويلاً في موقع نينوى الذي لم يكن محروساً بصفة دائمة على ما يبدو. [180] وأمكنا أن نعاين الحالة السيئة لكلّ من نقوش قصر سينا شريب الذي يعود تاريخه إلى القرن السابع قبل الميلاد، والثورين المجنّحين اللذين يحرسان مدخل المدينة القديمة.

ويعود تدهور حالتهما بالأساس إلى أثر الانجراف واختفاء السقوف الواقية التي تمّ تثبيتها بصفة ظرفية. وقد تسبّب في هذه الأضرار غياب الصيانة من جهة، والسرقات التي طالت عدداً من أجزاء النقوش من جهة ثانية، والتدمير المتعمّد لبعض الكتل الحجرية التي عجز اللصوص عن نقلها من جهة أخرى. ولمّا كان هذا القصر قد خضع للبحث وأخذ العينات، فقد

162 موقع يوافق أربلاص في العصر القديم، الذي كان في العصر الآشوري مركزاً سياسياً ودينياً هاماً في الألفية الأولى قبل الميلاد. وتعود العمارة والمساكن الموجودة في قلعة أربيل، العاصمة الحاليّة لكرديستان العراق، إلى القرن 19 وهي على غط الهندسة العثمانيّة.

قدّرنا أنّ استرجاع الأجزاء الحجرية المنقوشة التي سُرقت، أمر ممكن انطلاقاً من الوثائق المتوقّرة.

وكان من الواضح أيضاً أنّ جدران تلّ النبي يونس لم تُرمَّم منذ أمد طويل، ولكنّ مبنى الجامع ظلّ مفتوحاً للزائرين وللمتديّنين والحجاج من مختلف الديانات، اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام على حدّ سواء. وهذا المسجد الذي يجلّه المسيحيون والمسلمون، هو ذاته الذي دَمَّرَه من يسمّون أنفسهم "مجاهدي الدولة الإسلاميّة في العراق والشام". وفي 24 جويلية/يوليو 2014، كتب القسّ جان فرانسوا ميريغو من البطريركية الكلدانيّة في بابل، فقال: "تدمير جامع النبيّ يونس في الموصل كان اعتداءً رهيباً على روح المدينة وعلى مشاعر سكانها من المسيحيين والمسلمين... نرجو أن يتمكّن اليهود والمسلمون والمسيحيون، في يوم من الأيام، ونأمل أن يكون قريباً، من العودة إليه لبيّنوا معلماً على شرف النبيّ يونس (جوناس/ إيونا) حتى [181] يدويّ من جديد في نينوى صوت رحمة الربّ لكلّ البشر".¹⁶³

على تخوم نينوى تمثّد فعلاً مدينة الموصل الحديثة. وقد دخلناها لمعاينة وضعيّة المتحف، بعد أن تجاوزنا عديد حواجز المراقبة العسكريّة الأمريكيّة. درجة التوتر في المدينة كانت على أشدها، لأنّ ابني الرئيس صدام، عُدّيّ وقُصّيّ، فرّا إليها. ثمّ إنّ آثار المعارك التي دارت فيها عند دخول الجيش الأمريكيّ إليها في أفريل/أبريل 2003، مازالت باقية للعيان. وعندما مررنا

163 من بيان صدر عن البطريركية الكلدانيّة في بابل بتاريخ 6 أوت/أغسطس 2014 بعد تدمير مسجد النبيّ يونس:

<https://jacmarseille.worldpress.com>

بجامع النوري الذي أنشئ سنة 1172، لاحظنا أنّ مئذنته مائلة ميلانا واضحا (لذلك يطلق عليها اسم المنارة الحدباء). وقد كانت في سنة 1967 محلّ دراسة من جامعة طورينو، التي أوصت بتدعيم أسسها، ولكن ذلك لم يتحقق على أرض الواقع.

ولمّا كان الأمن غيرَ مُستتب في المدينة فقد تعدّر على البعثة زيارة المدينة القديمة واكتفت بزيارة المكتبة الموجودة تحت المتحف والمكتبة الجامعيّة فقط.

ومكنتنا المديرية من زيارة المتحف الذي داهمه اللصوص جزئيًا في أفريل/ أبريل 2003. وقد سرقوا بعض القطع من الواجهات التي ظلّت مكسورة إلى الآن، وحاولوا إضرام النار فيه، ولكن لحسن الحظّ خاب مسعاهم. وإلى ذلك الوقت لم يتمّ إنجاز أيّ جرد وكانت توصياتنا آنذاك تتمثّل في "وضع هذا المتحف تحت حماية عاجلة". ولكنها للأسف [182] لم تجد آذانا صاغية، وأصبحت المدينة منذ 2014 العاصمة الدينيّة لتنظيم داعش...

وأكدّ الكاتب والمراسل المرموق إيريك بونبي أنّ "منطقة شمال العراق كانت، طيلة قرون، معبرا للقوافل ومحطة من محطات طريق الحرير القديمة. وقد شهدت ظهور ممالك صغيرة. ونحن وجدنا في متحف الموصل مجموعات أثرية آشورية من عهد نينوى ومدينة الموصل بُنيت على أنقاض نينوى.

ثمّ غزا المنطقة الفرثيون الذين تعود أصولهم إلى إيران، فأقاموا فيها مملكة دامت أربعة قرون من 250 قبل الميلاد إلى 250 ميلاديا. لذا كنّا نجد في هذا المتحف خليطا كاملا من الحضارات العربية والفرسيّة...

إنّ ما دُمّر يعود أساسا إلى الفترة الحضريّة في عاصمتها التي تقع على مسافة مائة وخمسين كيلومترا جنوب الموصل. وهي اليوم، منطقة يحتلّها تنظيم داعش. وما قام به يُعدّ عملا شنيعا¹⁶⁴.

"سخط شامل بعد تدمير الكنوز القديمة بالموصل"، هكذا عنونت جريدة "الأكروا" في عددها الصادر يوم 1 مارس 2015. وعبرت المديرّة العامّة لمنظمة اليونسكو عن أسفها لما يحدث من "تطهير ثقافي"، وطلبت على الفور دعوة مجلس أمن الأمم المتحدة إلى الانعقاد للنظر في هذه الأزمة. وفي نفس الوقت أوحّت للسيّدة فاطو بنسودا، المدّعية العامّة للمحكمة الجنائيّة الدولية بلاهاي، [183] بضرورة ألاّ تظلّ هذه الجرائم بغير عقاب.

ورمى بنا كلّ هذا الحديث في ما شهده هذا البلد في تاريخه الحديث المأساوي من تدمير أقدم عليه تنظيم داعش في شمال البلاد وتخصيصا في منطقة الموصل. و لم يكن من الممكن أن نتخيّل مثل هذا الصنيع أثناء رحلتنا في شهر جويلية/يوليو 2003. وفي هذا الصدد، كتب بييريك بوّو، المبعوث الخاص لمجلّة "لكسبراس" الفرنسيّة، قائلا "بينما كان شريط فيديو حديث يُظهر عناصر من تنظيم داعش وهم بصدد تدمير قطع فنيّة في متحف الموصل، كان المطران الدومينيكي ميخائيل نجيب يروي الطريقة التي أنقذ بها، في الصيف الماضي، مجموعات كبيرة [من التراث]، قبل أن تقع المدينة في أيدي الجهاديين...".

164 من مقابلة أجراها يانيك فيلي مع إيريك بونبي، في مجلّة: "باري-ماتش"، 1 ماي/مايو 2015.

فعندما دخل الجهاديون بلدة قرقوش في 6 أوت/أغسطس 2015 كان المطران، الذي لجأ إلى سهل نينوى، قد قرأ حساب كل شيء. حُفظت مئات المخطوطات في صناديق لتكون جاهزة للنقل. ويروي الأب ميخائيل نجيب قائلاً "وأخذ كل واحد منّا، على جناح السرعة، الأشياء التي تبدو في تقديره أكثر قيمة. أمّا أنا فأردتُ أن أنقذ المخطوطات. كان لابدّ من الفرار، ما في ذلك شكّ، ولكن كان لابدّ أيضاً من إنقاذ ذاكرتنا... فشعب بلا ثقافة هو شعب في عداد الأموات"¹⁶⁵.

إنّ عمليّة إنقاذ المخطوطات المحفوظة في الموصل التي أقدم عليها المطران نجيب تشبه تماماً عملية الإنقاذ التي قام بها "حكيم تمبكتو الشجاع، عبد القادر حيدرة" [184] بمساعدة سگان هذه المدينة المباركة في مالي، قبل استيلاء جماعات أنصار الدين عليها. وعلى حدّ عبارة بيار لابيدي، الصحفي بجريدة لوموند 21 مارس 2013، "لم تُستهدف المخطوطات باعتبارها موروثاً ثقافياً فحسب، بل بسبب مضمونها أيضاً".

من الثابت أنّ مدينة الموصل شهدت سرقة قطع [أثرية] إلا أنّ حجم السرقات كان أقلّ ممّا شهدناه في السنوات 2012-2016. وشهدت تدميراً إلاّ أنّه أقلّ هَوَلاً ممّا شهدته موقع مُرود الذي زرناه، ووجدنا أنّه سلّم نسبياً من الأضرار. وكذا هو شأن موقع آشور (قلعة شِرقاط) الذي تنقلنا إليه في

165 بييرك بوتو، مقال بعنوان "الشرق الأدنى والشرق الأوسط، أنقذتُ آلاف المخطوطات من التدمير الجنوبي لتنظيم داعش" (الأب ميخائيل نجيب) ورد في عدد مجلة "لكسبراس" الصادر في 1 مارس 2015. وهذه العمليّة شبيهة بما أقدم عليه "حكيم تمبكتو الشجاع" عبد الكريم حيدرة الذي نجح في إنقاذ قسم كبير من المخطوطات المحفوظة في مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخيّة الذي أنشأته اليونسكو في السّينيات.

زيارة طويلة، ولم نلاحظ فيه آثار عمليات تنقيب غير شرعية، على عكس ما شاهدناه في وسط العراق وجنوبها".

فعلى سبيل المثال، إنَّ التدمير الذي عايناه في موقع فمرود، عندما زرناه وبدا لنا سليماً نسبياً، كان أقلَّ هولاً ممَّا قامت به عناصر تنظيم داعش الذي محا بقايا مدينة من أهمِّ مدن بلاد ما بين النهرين، مدينة اشتهرت بنقوشها البارزة وبتماثيل الثيران والأسود المجنحة ذات الرؤوس البشرية، التي دُمِّرت بالجرفات والمطارق الميكانيكية.

وتجري نفس الملاحظات على آشور التي أطلنا فيها الزيارة، ولم تكن تظهر عليها آثار حفريات غير شرعية. ولكنَّ هذا الموقع الذي يعود إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد وكان عاصمة المملكة الآشورية في ما بين القرن 14 والقرن التاسع قبل الميلاد، كان مهتداً أكثر بالغرق في الماء بسبب مشروع بناء سدٍّ على نهر دجلة يبعد عن الموقع ثلاثين كيلومتراً.

أمَّا المعالم التي رَمَّمتها الفرق الألمانية والعراقية فتحتاج، [185] بطبيعة الحال، إلى أشغال صيانة إلا أنَّ صيانتها تبدو حسنة على وجه الإجمال. وفي ذلك اليوم الآمن، يوم 4 جويلية/يوليو 2003، كنَّا الزوَّار الوحيدين لهذا الموقع بينما كان سگان البلدة القريبة يرقبوننا في فضول ودهشة.

عناصر تنظيم داعش والتطهير الثقافي في مدينة الحضر

سرعان ما ذكّرنا سائقو السيَّارات بحقيقة الواقع، وظهر هذا من خلال ما بدا عليهم من علامات التمللمل والخوف، إذ مرّت بالقرب ممَّا سيارة تكدّس فيها ما بين ستة وسبعة من الأنفار الملتئمين. فسارعنا بالمغادرة وواصلنا طريقنا

في سرعة جنوبيّة باتجاه الحضر، الموقع العراقيّ الأوّل والوحيد المسجّل آنذاك في قائمة التراث العالمي منذ 1985. ولم يكن يوجد أيّ مؤشّر على حفريّات غير شرعيّة في هذا الموقع ومحيطه اللذين تحرسهما فرقة من الجيش الأمريكيّ وحارس كان يشتكي من انقطاع جرابته منذ شهور.

ولقد أُجريت على هذا الموقع، شأنه شأن بابل، ترميمات تعسّفيّة استعملت فيها حجارة نُقش عليها اسم الرئيس المخلوع صدام حسين. وأمّت البعثة بكلّ ما يمكن أن يُعرف عن موقع الحضر ممّا قدمته عالمة الآثار روبرتا فينكو التي كانت ما بين 1993 و1997 رئيسة بعثة إيطالية. ويتعلّق الأمر هنا بموقع أثري عراقي آخر يوجد في أعلى بلاد ما بين النهرين، ويتمتّع برمزية فائقة. وهو، حسب رأي المؤرّخ خافيير تاسيدور "مدينة أسستها قبائل عربيّة، هيّاها على ما يبدو الفرثيون فأصبحت مملكة في النصف الأوّل من القرن الثاني ميلاديّاً. وغالبا ما تعتبر دولة عازلة بين [186] الإمبراطوريّة الرومانيّة والإمبراطوريّة الفرثيّة".¹⁶⁶

ولهذه المدينة القديمة التي تعدّ أوّل عاصمة لأوّل مملكة عربيّة، شكل دائريّ يدلّ عليه وجود سورين متحاذيين متّحدّيّ المركز يبلغ سمكهما ثلاثة أمتار ومازالت حالتها حسنة على امتداد ثلاثة كيلومترات. وقد كان يحتلّ الجزء الأوسط من هذه المدينة "تيمينوس" أو حرم مقدّس يضمّ عددا من المعابد تحمل أسماء آلهة ذات أصول إغريقيّة وآشوريّة وعربيّة ومن حضارة بلاد ما بين النهرين، لتكون شاهدا على ضرب من التوافق العقائديّ.

166 Javier Teixidor, "dans Notes Nabatéennes", *Syria*, vol. 43/1, 1966, p.97.

لقد عايناً أنّ الجنود الأمريكيين الذين يحرسون الموقع، اتخذوا معبد الإله شحيرو مركزاً لإقامتهم، والحال أنّه يمثّل المعلم الدينيّ الخاصّ بالثالوث الإلهي الحضري¹⁶⁷ المكون من مارين ومارتن ويار مارين. وتبعاً لهذا، فإنّ ما أقدموا عليه يعتبر أمراً غير مقبول لأسباب واضحة متصلة بالتلوث، وتدهور حالة موقع أثريّ له قيمة كبيرة. وللأسف، تضاغت هذه الأضرار بشكل واضح، بعد مرور عشر سنوات على البعثة، عندما بسط تنظيم داعش الإرهابيّ نفوذه على المنطقة.

وفي 7 مارس 2015 استنكرت السيدة إيرينا بوكوفا "تدمير مدينة الحضر الذي يمثّل منعرجاً في استراتيجية مرعبة ترمي إلى التطهير الثقافيّ في العراق" واحتجّت على الهجوم الذي تعرّض له موقع من مواقع التراث العالميّ. وعشيّة تدمير موقع فرود الرائع ندّد الأمين العامّ للأمم المتحدة بان كي-مون، من جهته، مصرّحاً بأنّ "التدمير المتعمّد لموروثنا المشترك يمثّل جريمة حرب واعتداء على الإنسانيّة جمعاء".

[187] لمّا عدنا إلى بغداد في جويلية/يوليو 2003، لا أحد منا كان يستطيع أن يتخيّل أنّ الوضيّة ستتدهور إلى هذا الحدّ. فأثناء آخر لقاء لنا بالسفير كوردون، ألحنا على الوضيّة الهشّة للمواقع التي زرتها، وعلى أهمية إيفاد دوريات منتظمة إلى المواقع التي تتعرّض لعمليات تنقيب غير شرعيّة، وعلى ضرورة أن يتجنّب الجيش الأمريكيّ تركيز مخيماته في مواقع رئيسيّة من التراث الثقافيّ العراقي.

167 مارين أو مرّن "ربنا" ومارتن أو مرتن "سيدتنا" وبار مارين أو بر مرجان "ابن ربنا" (المترجم نقلاً عن فصل مملكة الحضر في ويكيبيديا).

بعد بعثة اليونسكو الأولى إلى بغداد في شهر ماي/مايو 2003، حققت البعثة الثانية إلى العراق في نفس العام، كل أهدافها المتمثلة في تقديم تقييم كامل لوضعية أهم المعالم، والمواقع الأثرية، والمؤسسات الثقافية في مجمل البلاد. لقد قطعنا، في ما يزيد على أسبوع، قرابة أربعة آلاف كيلومتر... وهذا كان من المفروض أن يسمح بإرساء تنسيق دولي للجهود في عملية عامة ترمي إلى إعادة تهيئة التراث الثقافي في العراق.

ولما وصلنا إلى عمان، دُعينا إلى عقد ندوة صحفية، وما إن تسلّم المدير العام، كواشيرو ماتسورا، تقرير البعثة حتى قرّر تقديم اقتراح للمجلس التنفيذي يدعو إلى إنشاء لجنة دولية للتنسيق من أجل حماية التراث الثقافي في العراق، قياسا على اللجان التي أنشئت من أجل كمبوديا وأفغانستان. وأعطى في نفس الوقت إشارة انطلاق تحضيرات الاجتماع الثالث لخبراء اليونسكو من أجل حماية التراث العراقي. وانعقد الاجتماع في طوكيو في غرة شهر أوت/أغسطس 2003.

وإثر ذلك، اجتمعت اللجنة الدولية للتنسيق مرتين، الأولى في ماي/مايو 2004، [188] والثانية في جوان/يونيو 2005. وحُصص الاجتماع الثاني للنظر في وضعية موقع بابل تبعا لصدور "الكتاب الأبيض" الذي صاغه فريق علماء الآثار البولونيين المصاحب لفرقة قوات حفظ السلام البولونية التي استقرت ببابل عوضا عن الفرقة الأمريكية. وبطبيعة الحال تابعت جميع هذه الاجتماعات التي كان من المنتظر أن تسفر عن إطلاق عمليات إعادة تأهيل كبرى، على غرار ما تمّ في كمبوديا.

ثم إن مكتب اليونسكو الذي بعث في العراق كان من المفروض أن يؤمن عودة عمليات الصون، ولكن، للأسف، لم تكفّ الوضعية الأمنية عن التدهور، ونُقل المكتب من العراق ليستقرّ في عمّان مدة سنوات. أمّا الأطراف المانحة، فأخلت بتعهداتها ولم تتحقّق على النطاق الواسع إلاّ بعض عمليات، مثل ترميم الجامع العسكريّ بسامراء الذي تضرّر بسبب انفجار، وترميم الجزء العلويّ من المئذنة الملوّية الذي أصيب بقذيفة. ولم تحظ بالتمويلات اللازمة إلاّ قلعة أربيل ممّا مكّن من انطلاق عمليات تنقيب وترميم لبيوت تقليديّة.

إنّ الأحداث التي ميّزت ما سُمّي بـ "الربيع العربي" أثّرت، على وجه التخصيص، في العراق وسوريا، تأثيراً عميقاً. ثم إنّ الانعدام التامّ للأمن في بعض مناطق هذين البلدين، وعودة النزاعات لم يُمكننا من مواصلة عمليات الصون، بل عمّقا حدّة التهديدات التي ترصّدت، ومازالت تترصد التراث الثقافيّ. فكلّ الأخبار التي تنقلها، يوميّاً، وسائل الإعلام عن العراق وسوريا وعن اليمن وليبيا أيضاً، تظهر الصعوبات التي تواجهها منظمة اليونسكو في التدخّل الميداني. وسنظلّ نقول ونكرّر بأنّها منظمة لا تمتلك قوات عسكريّة ولا دبابات.

[189] لقد حاولت، من خلال عرض سريع لحالات النزاع، أن أبين إلى أيّ حدّ يُتاح للمرء أن يكون على أرض الميدان وأن يقدم للزملاء سنداً لطالما تمّنوه وطلبوه بإصرار في تعايشهم اليوميّ مع الخوف من الأضرار الجانبية، ومن القنابل ومن شظايا القذائف، دون أن نتحدّث عن أسوأ ما يمكن أن يصيب أحدهم، وهذا ما حصل للمرحوم خالد الأسعد، واحد من ألمع علماء الآثار

في سوريا، والمسؤول عن موقع تدمر، إذ قطع أتباع تنظيم داعش رأسه ثمّ علّقه على أحد أعمدة الموقع. وسيُسجّل اسمه مع زملاء آخرين في سجّل الشهداء الذين فدّوا التراث بحياتهم.

خاتمة [191]

حفظ التراث للأجيال القادمة [193]

شهدت الصّراعات التي نشبت خلال العقود الثلاثة الماضية، تزايداً مطّرداً في استهداف رموز الثقافة، قصد تدمير هويّة الشّعب ودفعه إلى مغادرة أرضه، في بعض الأحيان، ومحو ذاكرته. وهذا هو ما شرّع في تطبيقه نظام طالبان عبر استهداف جميع أصناف التّمائيل المجسّمة، وما يواصل القيام به في الوقت الراهن أتباع المجموعات الإرهابية مثل تنظيمي القاعدة وداعش، في عدّة دول من المنطقة العربية وكذلك في منطقة الساحل الإفريقي وفي تونس وليبيا.

وقد أثار هذا الضّرب من التدمير ردّ فعل المجموعة الدّولية التي سارعت إلى الإدانة الجماعية، لا بالاستناد على النصوص المعيارية لمنظمة اليونسكو والمتعلقة بحماية التّراث الثقافي فحسب، بل بالاستناد أيضاً على نصوص المحكمة الجنائية الدّولية وذلك منذ اللحظة التي وصف فيها الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة والمديرة العامّة لليونسكو عمليّات التّدمير المتتالية بأنّها "جريمة ضدّ الإنسانية".

وقياساً على تدمير التّراث الثّقافي الذي حدث خلال الحرب العالمية الثانية، رأت المجموعة الدّولية أنّ اتفاقية لاهاي لعام 1954 كانت أداة كافية لذلك.

وأعدّ البروتوكول الثّاني من اتّفاقية [194] لاهاي (1999) من قبل اليونسكو ليؤكّد على هذا التغيّر الذي شهدته طبيعة النّزاعات، وعلى أنّ المجموعة الدّوليّة يجب أن تواصل ضبط الآليات التي يمكن أن تستجيب للطّلب المتزايد في مجال حفظ التّراث الذي لحقته أضرار جسيمة أثناء مثل هذه النّزاعات.

ومنذ ذلك الحين، رأينا بكلّ وضوح أنّ طبيعة الحروب تغيّرت، إذ قلّما تكون مسألة أطراف دّولية ومعارك تدور بين جيوش نظاميّة، فقد أصبحت مسألة صراعات داخلية تخوضها مجموعات غير نظاميّة تبدو أيديولوجيتها المتطرّفة عصيّة على التّحديد، رغم نعتها غالبا بأنّها إسلامية. فعمليّات القتل والاعتصاب والاعتداء على التّراث هي الأهداف الحقيقيّة لهذه المجموعات التي تريد قمع كلّ رؤية تخالف رؤيتها، كما أوضح ذلك أحسن توضيح شريط "تمبكتو" الذي أنجز سنة 2014.

خلال هذه النّزاعات الداخلية، أصبح التّراث الثقافي هدفا مقصودا فعلا بالنّسبة إلى الفصائل الإرهابيّة المتحاربة التي وجدت فيه مصدر دخل مربحًا تصعب مراقبته. وقد أصبحت هذه الممتلكات المادّيّة واللّامادّيّة هي المعرّضة للسّرقة والاتّجار غير الشّرعي والتدمير داخل مناطق النّزاع على الرغم من النّصوص الدّولية الصّادرة في الغرض.

وتذهب اليونسكو إلى، "أنّ الدرس الرّئيسي المستخلص من تطبيق هذه المعايير على المستوى الوطني هو أنّ الوقاية والالتزام على المدى الطّويل

ضروريّان في التّخفيف من تأثير أيّ أزمة سواء كانت طبيعية أو من فعل الإنسان. وهذا يتطلّب قيادة قويّة، بالإضافة إلى قدرات وطنية ومحليّة تتولّى اليونسكو المساعدة على تعزيزها لدى الدول الأعضاء عن طريق عمليات دفاع وتوعية، إضافة إلى [195] تقديم المشورة والتّكوين. وقد أثبتت التجربة أنّ تدريب المهنيين المحليين وتكوينهم هو أفضل ضمان لحفظ سلامة التراث الثقافي في حال حدوث أزمة. ولهذا السبب، ينبغي أن تركز الجهود الهادفة إلى تعزيز القدرات الوطنية وتوعية السكّان المحليين بضرورة الحماية العاجلة للتراث الثقافي، على الوقاية بدلا من التدخّل في اللّحظة الأخيرة. وهذا يصحّ بشكل خاصّ في فترات النزاع عندما يكون من الصّعب، بل من المستحيل وصول المساعدة الدّولية إلى المناطق المتضرّرة¹⁶⁸.

وضع حدّ لسياسة الأرض المحروقة

ظلت المجموعة الدّوليّة، منذ عدّة سنوات، مدعوّة إلى تعزيز دورها، بصفتها جهة مانحة، في دعم جهود إعادة إعمار البلدان المتضررة من النزاعات، زيادةً على دورها في تنسيق العمليّات المعقّدة الهادفة إلى ترميم التّراث المتضرّر وإعادة تأهيله.

إلا أنّ المؤسّف في أغلب في الأحيان، كما بيّنا آنفاً من خلال سلسلة الأمثلة المعروضة أعلاه، هو أنّ التّراث الثقافي الذي ظلّ مدّةً طويلةً في مأمن، أصبح الهدف المفضّل للجماعات المسلّحة بسبب قيمته الرّمزية ودلالته على

168 اليونسكو تعزّز عملها من أجل المحافظة على التراث المعرّض للتلف، 12 أوت/أغسطس 2014.

الهوية، والحال أنه كان ينبغي أن يكون أداة تقارب ومصالحة بين الفصائل المتحاربة.

في أغلب الأحيان، مثلت الإحالة على التراث المشترك نقطة الانطلاق في استئناف الحوار [196] وبناء مستقبل مشترك. ويقوم مثلاً المصالحة الألمانية الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية، والمصالحة الجارية في يوغسلافيا السابقة شاهدين على ذلك.

ومن الواضح أن اليونسكو هي الوكالة الوحيدة من بين وكالات منظمة الأمم المتحدة التي ينص اختصاصها على وجه التحديد على حماية التراث الثقافي، والتي ينبغي أن تكون، بفضل دعم الوكالات التابعة للأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية، في الطليعة من أجل النهوض بهذه المهمة. وفي هذا الصدد أدرج دورها التنسيقي في منظومة اللجوء إلى "مجموعة الأمم المتحدة للتنمية"¹⁶⁹ من أجل إعادة إعمار البلدان التي كانت ضحية للحرب، وقد تولى إطلاق العملية الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة.

ولهذا وجب على منظمة اليونسكو أن تكون ضامناً لتنفيذ الوسائل القانونية الدولية في مجال حماية التراث الثقافي، وأن تعزز في الآن نفسه الحوار بين الثقافات وتشجع على الحفاظ على التنوع الثقافي وإثرائه.

وقد أمكن لنا الوقوف على ذلك، بشكل خاص، في أتمودج "الممارسة الجيدة" التي مثلتها عملية إعادة تأهيل التراث في كمبوديا، تلك العملية التي

169 مجموعة منظمة الأمم المتحدة للتنمية [هذا اسمها القديم الذي استعمله المؤلف (UNDG) ثم تغيرت التسمية حالياً (UNSDG): مجموعة الأمم المتحدة للتنمية المستدامة (المترجم)].

حازت ثناء الجميع. فبالنسبة إلى هذه البلاد، أوكلت المجموعة الدولية إلى اليونسكو مسؤولية تقديم حلّ يستند إلى تنسيق المساعدة الملائمة في إطار مسار حفظ التراث الثقافي وتثمينه في هذا البلد الخارج للتوّ من صراع دموي طويل الأمد. ومن حسن الحظ أن أصبحت كمبوديا مرفأً سلام، لتظلّ منطقة أنغكور، بلا شك، أهمّ وجهة سياحيّة في منطقة جنوب شرق آسيا.

ومع ذلك، فإنه من واجبنا أن نشير إلى أنّه على الرغم من الظروف [197] الصعبة للغاية في أغلب الأحيان، تواصل بعض المنظمات غير الحكومية العمل من أقرب مكان ممكن من ميدان النزاعات، كما هو الحال في ما قامت به دروع التراث الزرقاء. وفي ذات السياق، أودّ، من خلال التذكير أحداث 2003-2004 في كوسوفو، التنويّة بأنشطة المنظمة غير الحكومية "تراث بلا حدود" (السويد) ولا سيّما بالاجتماع الأخير الذي عُقد في مقرّ المركز الثقافي السويدي بباريس يوم 11 جويلية/يوليو 2007 برئاسة السفير الراحل أندرياس آزال مندوب السويد الدائم لدى اليونسكو الذي حاول تقديم العون لتراث الطائفتين الصربيّة والألبانية في كوسوفو.

ولختم هذه السلسلة من الأمثلة، أودّ أن أذكّر كذلك بالنزاع الإسرائيلي الفلسطيني في منطقة الشرق الأوسط الذي لم يتمّ، للأسف، إيجاد حلّ له منذ عام 1948، وبالمشكلة البالغة التعقيد المتمثلة في حماية التراث الثقافي في القدس، تلك المدينة التي لها قيمة رمزيّة عالية في الديانات التّوحيدية الثلاث.

وقد بيّنت الحفريات الأثرية التي قامت بها السلطات الإسرائيلية عقب انهيار مدرّج باب المغاربة خلال شتاء 2004-2005 مدى تعقّد الوضع في هذه المدينة المسجّلة في قائمة التراث العالمي وعلى لائحة التراث العالمي المعرض للخطر.

أثناء أشغال الدورة 34 للجنة التراث العالمي التي انعقدت خلال شهر جويلية/يوليو 2010 بمدينة برازيليا عُيّنَتْ وسيطا بين وفود كلّ من إسرائيل والأردن وفلسطين لتدارس نقطة من جدول الأعمال متعلقة بالقدس القديمة وأسوارها. وبعد ساعات طويلة من المفاوضات ظهر آنذاك بصيص من الأمل بعد المصادقة بالتوافق على القرار [198] الذي يتعلّق بهذا الموقع. ولكن، منذ ذلك الوقت، تلاشى، للأسف، الأمل في الوصول إلى حلّ توافقي.

من سرايفو إلى أنغكور مرورا باميان وتدمر ومأرب وإبلا وسامراء والموصل وهرود بالإضافة إلى عدّة مواقع أخرى، ظلّ التّراث الثقافي خلال السنوات الماضية في أغلب الأحيان هدفا لصراعات سياسية وعرقية أو دينية. ولكن عندما يستعيد السلام مكانته، فإنّ تأهيل وتثمين هذه المواقع ذات القيمة الرمزية العالية، وما يتصل بها من أشكال التعبير الفني المنتمة إلى التراث اللامادي، قد يسهم أحيانا في تعزيز عملية المصالحة الوطنية وإعادة إحياء النشاط الاقتصادي.

وبودّي في هذا الصدد أن استشهد بنصّ من نصوص اليونسكو يؤكّد [فيه] أنّ "التراث الثقافي لشعب ما هو ذاكرة ثقافته الحية، ويعبّر عنه

بأشكال متنوّعة للغاية مادّيّة ولامادّيّة. ثم إنّ أصول هذا التراث متعدّدة أيضا. فعندما يتتبّع شعب من الشعوب، جذوره الثقافيّة الخاصّة، ويتعرّف على التأثيرات العديدة التي أثّرت في تاريخه وشكّلت هويّته، يكون أكثر استعدادا لإرساء السلم مع شعوب أخرى، قصد إرساء سنّة الحوار الممكن والسماح له بنحتِ مستقبله".

في هذه المقالة المتواضعة التي جرّنتني إلى التذكير كيف وجدت اليونسكو نفسها في مواجهة الصراعات التي اندلعت في مناطق مختلفة من العالم، وكيف نهضت هذه المنظمة بالمهمّة الشاقّة المتمثلة في صون التراث في حالات النزاع، بدا لي أنّ أحدثها يطرح تحديات جديدة.

إنّهُ لمن المبهج أن نرى المجموعة [199] الدولية، تبعا لنداءات المديرية العامّة إيرينا بوكوفا، تنجح في رفع قضية التراث الثقافي والدفاع عنه إلى أعلى مستوى في هيئات منظمة الأمم المتحدة: فبفضل قراراته الأخيرة حول العراق وسوريا عبّر مجلس الأمن عن دعمه الحاسم المطلوب لوضع حدّ لمحو الذاكرة ولسياسة الأرض المحروقة التي أصبحت من اختصاص المنظمات الإرهابية. وبإمكان العمليات التي تتمّ على الميدان بهدف إعادة تأهيل التراث الثقافي، وحتى إعادة بناءه، أن تستفيد من هذه التغطية، ومن هذا الالتزام السياسي الذي لا بدّ منه¹⁷⁰.

170 أ. كاليغويري: "تكفّل مجلس الأمن برعاية المصلحة العامّة للإنسانية في حماية التراث الثقافي والمحافظة عليه، وهي مسؤولية ظلّت إلى حد الآن المحدّدة لمعايير اليونسكو وميدان اختصاصها المطلق تقريبا وإن كان نطاق تدخلها محكوما بما ورد في البند السابع من ميثاق منظمة الأمم المتّحدة"، وارد في: <http://revel.unice.fr/psei/index.html?id=717>

الصحة ضدّ الظلامية

من التحدّيات الكبرى التي يواجهها العالم المعاصر، ظهور التطرّف في تأويل النصوص الإسلامية المقدّسة، القرآن وسنة الرسول محمّد، صلّى الله عليه وسلّم، من قبل المجموعات المتطرّفة التي بنّت ومازالت تبتّ الرعب بين السكّان داخل المناطق التي سيطرت عليها في العراق وليبيا وسوريا واليمن، وراحت تستهدف التراث الثقافي.

وفي هذا الصدد تعالت عدة أصوات رسميّة، وشهدنا منذ شهر ديسمبر 2014 تدخل واحدة من أرفع المؤسسات الدينية في العالم الإسلامي وأكثرها حظوة بالاحترام، [200] ونعني بها جامعة الأزهر بالقاهرة، إذ صرّح رئيسها سماحة شيخ الأزهر أحمد الطيّب، خلال ندوة نظّمت بالقاهرة في ديسمبر 2014 وضمت علماء في الدين من حوالي عشرين بلدًا: "إنّ المجموعات المسلّحة ترتكب جرائم بربرية نكراء" وتلبس لبوس الإسلام، هذا الدين المقدّس. وقد سمّت نفسها "دولة إسلامية" في محاولة منها لنشر إسلامها المغشوش...أنا ما انفكّ أتساءل ليّل نهارٍ عن أسباب هذه الفتنة العمياء، وهذا البلاء العربي الملطّخ بالدمّ"¹⁷¹.

وفي نفس الاتجاه، تولّت المديرية العامّة لليونسكو السيدة إيرينا بوكوفا خلال زيارتها الرسمية إلى القاهرة يوم 13 ماي/مايو 2015 وبعد مقابلة فضيلة شيخ الأزهر، إلقاء محاضرة في جامعة الأزهر حول "الدور الأساسي للحوار بين الثقافات ومن أجل معرفة أكثر دقّة بالدين تعزيرًا للتسامح والتفاهم المتبادل".

171 ورد في [جريدة] لومند، نقلًا عن وكالة فرنسا للأنباء ووكالة رويترز، بتاريخ 3 ديسمبر 2014 ضمن المقال المعنون "شيخ الأزهر في القاهرة يُدين جرائم [تنظيم] الدولة الإسلامية".

وقد شدّدت السيدة بوكوفا على أهمية قيام جميع القادة، بما في ذلك السلطات الدينية، بتعبئة الشباب من أجل الردّ على الخطب المضلّة التي يلقيها أولئك الذين يسعون إلى تشويه رسالة الدّين.

كما توجّهت بالشكر إلى جامعة الأزهر على "إدانتها لتدمير التراث الثقافي، وعلى جهودها في توعية شباب العالم برسالة الإسلام الحقيقيّة"¹⁷².

[201] ما انفكّت هذه الجامعة ورئيسها يذكران بانتظام بأنّ "تدمير تراث الإنسانية أمر تحرّمه شريعتنا كما تحرّم سرقة الآثار الفنية القديمة"¹⁷³.

أمّا بالنسبة إلى الباحثين في العلوم الاجتماعية، كما هو الأمر بالنسبة إلى الشخصيات الدينية الإسلامية، فإنّ علاقة الإسلام بحماية التراث مسألة لا تشوبها شائبة كما بيّن ذلك بوضوح "إعلان الدوحة" الصادر في ديسمبر 2001. كما يمكننا النظر على وجه الخصوص في دراسة حديثة أنجزها الأستاذ محمود الدوّادي، من جامعة تونس، وقد جاء فيها ما يلي: "للقرآن تصوّر أبستمولوجي للتمثيلات الثقافية بوصفها مكوّنات مميّزة للجنس البشري. إنّ النفخ الثقافي الرّبّاني في آدم دون كل المخلوقات الأخرى هو نفخ له جذور وطبيعة ميتافيزيقية حسب المنظور القرآني. إنّ منبعه لا يتّصل بالديوي، بل بالرّبّاني الذي حرّم من الكائنات الأرضية وعهد به إلى الإنسان وحده. وقد أشار القرآن صراحة إلى الطبيعة الماورائيّة للنفخ الثقافي الذي حُصّ به الإنسان

172 وثيقة "اليونسكو" المؤرّخة في 13 ماي/مايو 2015: في مصر المديرية العامّة لليونسكو تدعو إلى التّكاتف من أجل التراث قصد دحر التطرّف والتعصب.

173 أوردته مجلة "جون أفريك" في عددها الصادر يوم 31 ماي/مايو 2016 تحت عنوان: "معركة في سبيل الإنسانية" وفق تصريح الأزهر.

دون سواه، ما يعني أن التفخ الثقافي في صدر آدم مردّه إلى الجوهر الإلهي ذاته": "فإذا سوّيته ونفختُ فيه من رُوحِي فَفَعُّوا له ساجدين" (الحجر، الآية 29، وص، الآية 72).

وتبعاً لذلك فإنّ التّصوّر القرآني للطبيعة الماورائية للتمثلات الثقافية المميّزة للجنس البشري لا وجه للشكّ فيه البتّة¹⁷⁴.

[202] كما يمكننا الاستشهاد بالشيخ جاد الحق شيخ جامع الأزهر الذي أصدر فتوى يوم 11 ماي/مايو 1980 حول إنشاء المتاحف في مصر مؤكّداً فيها أنّ "التمثيل والنقوش والرّسوم الموروثة عن الأمم السّالفة ليست محرّمة مادام الهدف من عرضها ليس العبادة والتمجيد. بل إنّه يجب حفظها لها من أهمية في دراسة التاريخ. وقد ذكر في هذا الصدد آية قرآنية تحثّ على التأمّل في تاريخ الأمم الماضية.

"أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" (الروم، الآية 9)¹⁷⁵.

المناخ الاقتصادية لحفظ التّراث

من جهة أخرى، أودّ أن أذكّر بأنّ حفظ التّراث التاريخي كان، على وجه الخصوص، أحد المجالات الثقافية التي تُعتبر "قابلاً للتّعاملات البنكية". فمنذ

174 محمود الدوّادي، "نظرة أخرى حول الثقافة: وجهة النظر الإسلامية"، المجلّة العالميّة للعلوم الاجتماعية، عدد 2007، 193/3 ص 29.

175 وردت الآية مبتورة من قوله تعالى "فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون" فأتممتها. (الترجم)

نهاية السبعينات كانت المبادرة من برنامج الأمم المتحدة للتنمية والبنك العالمي اللذين شرعا في توفير الأموال لحفظ التّراث المُشيد وتطوير الصناعات التقليدية. ثم إنَّ المفوضيّة الأوروبية، من جهتها، خصّصت ميزانيات للدراسات المتعلقة بإعادة تأهيل [203] مراكز تاريخية حضرية ولا سيّما في إطار المشاريع الخاصّة بمنطقة البحر الأبيض المتوسط. ففي هذه المراكز التاريخية ثبت أنّ عمليّة تخصيص بعض المعالم التاريخية ذات الصبغة العقاريّة العمومية، لأنشطة أخرى، هي في الغالب أنشطة متحفية، يمثّل نظاما تنافسيّا يمكن أن يسهم في تنشيط القاعدة الاقتصادية للأحياء القديمة في مدينة من المدن وأن يوَلد مداخل ومواطن شغل.

وهكذا، سرعان ما وجد شعار "حفظ [التراث] مجلبة للمنافع" الذي صيغ في المملكة المتحدة خلال الثمانينات أتباعا في جميع أنحاء العالم، شأنه شأن مبدأ "صون [التراث] دعامة للتنمية" الذي اكتسب شرعيّة.

ويمكننا استحضار عمل عدد من الخبراء حول مسألة "اقتصاد التّراث" الجديدة، أقول كلامي هذا وأنا أفكّر بصفة خاصة في مؤلفات السيدة بنحمو الأستاذة في جامعة الصربون بباريس، والراحل والتر سنتقاطا من جامعة التقنيات بتورينو.

وكما سبقت الملاحظة، أبدتْ المؤسّسات المالية، مثل البنك العالمي، اهتماما بالتّراث الثقافي حيث اعتُبر، بعد دراسات عديدة أجريّت على الميدان، أنّه يقترن بمشاكل تصرّف وتنمية اقتصادية واجتماعية.

ومع ذلك فإن اقتصاد التّراث ليست له علاقة تُذكرُ بعالم الأعمال المعروف، كما أنّ طريقة التّصرّف في الموارد الخاصّة بالثقافة لا تدخل في نفس دائرة تسيير الممتلكات والخدمات.

إلى حدّ الساعة مازلنا دوما في المرحلة التّجريبية، ولكن من المُشجّع أن نرى رئيس البنك الدولي جايمس د. ولفنسن يصرّح أنّ "هذا التنوّع الثقافي الثّرّي ليس [204] كنزا علينا أن نبتهج به فحسب، بل هو جدير بالحماية الكاملة تماما مثل التنوّع البيولوجي في كوكبنا. ولهذه الأسباب فإنّنا، في البنك العالمي، نعتقد أنّ احترام ثقافات الشّعوب وهويّاتها عنصر جوهري ينبغي على كلّ تمشٍّ محوره التنمية لمصلحة السّكّان، أن يقرأ له حساباً".

إنّ الرّهان الثّابت هو التّوفيق بين [استثمار] الفرص الاقتصادية والمحافظة على التّراث. وفي الآن ذاته من المتوقّع أن يلعب التّراث دورا أكبر في مجال التنمية لاسيّما بسبب التنمية السياحية التي تمثّل بالنسبة إلى العديد من البلدان مصدرا هاماً للمداخيل والتّشغيل.

إنّ دور السياحة، إذا ما نُظر إليها على أنّها وسيلة لتنمية الموارد اللّازمة لحفظ التّراث ودفع التنمية بصفة عامّة، يصبح أمرا بديهياً. فالندوة الدولية التي شاركت في تنظيمها كلّ من السلطات الكمبودية ومنظمة اليونسكو والمنظمة العالمية للسياحة¹⁷⁶ خلال شهر فيفري/فبراير 2015 في سيام ريب (كمبوديا) والتي كان لي شرف المشاركة في أعمالها، أقرّت بالإمكانات الكبرى

للسياحة، لكنّها نَبّهت أيضا إلى أنه ينبغي أن تدار في إطار استراتيجية شاملة ترسي منظومة تسمح للسكان المحليين بتحصيل امتيازات اقتصادية، وأن تكون في تناغم مع كلّ صنف من أصناف التّمنية السّياحيّة سواء في مستوى التّشغيل أو المداخل أو درجة تحقّق الرضى الذاتي.

وينبغي أيضا أن تحقّق منها السلطات الوطنية أو المحلية، من جهتها، أرباحا عن طريق الضرائب المباشرة أو غير المباشرة الموظّفة على موارد التراث، وأرباحا أخرى تتعلّق [205] بصورة البلاد والاعتراف الدوليّ.

وعلى الرغم من كل الجهود المبذولة لخدمة التراث وتوعية الناس بأهميته توعيةً لم يسبق لها مثيل، يظلّ التّراث رغم كلّ شيء مهدّدا بشكل جدّي، ولا يُدار دوماً بكفاءة ولا يُحفظ وفقا للمعايير [المطلوبة]. ويتّفق مُعظم المراقبين على أنّ مجموعة من العوامل المتضاربة هي التي أدّت، للأسف، إلى تسارع مُذهل وحتمي في خسران الممتلكات الثقافية وإلى تدهور أوضاعها بفعل عوامل الطّبيعة أو بفعل الإنسان.¹⁷⁷

ونظرا لنقص الموارد وبالخصوص البشرية منها والمالية، وسعيا إلى تمكين الدول الأعضاء من تحمّل مسؤولياتها، يجب دمج مجال التّراث الثقافي في صلب سياسة ثقافيّة مركزيّة وفي مستوى تخطيط وطني. ومن شأن هذه السياسة أن تسمح للمؤسسات ولأهل الاختصاص المباشرين بإثبات حقوقهم في حال وجود تضارب مصالح وتهديد باندثار التّراث.

177 راجع قائمة المائة موقع المهّدّد في العالم التي نشرها الصندوق العالمي للآثار والتّراث.

من الواجب بالنسبة إلى التراث، وقد صُمِّمَ إلى السياحة الثقافية، أن يجد له مكانا صلب تكنولوجيات الإعلام الحديثة، وأن يكون أكثر ملاءمة، وأن يكون التَّفَادُ إليه أيسر بواسطة وسائل أكثر إبداعا، وأن يكون أوسع تقاسُما بين البلدان ودخل كلِّ بلاد على حدة. يجب أن يتمَّ استعماله بشكل أكثر إبداعا قصد إعادة بناء ثقافة حيَّة تؤسِّس لتراث المستقبل. وختاما، ينبغي أن يُتصوَّر هذا التراث بطريقة أكثر حِصافة باعتباره موردا هامًا للمداخيل والتَّشغيل.

إن مسألة حفظ التراث الثقافي لفائدة الأجيال القادمة، لا سيَّما عندما يكون ضحيَّة من [206] ضحايا النَّزاعات، مثله مثل السَّكَّان، تظلُّ بلا ريب واحدة من أهمِّ التَّحدِّيات الكبرى في عصرنا.

إنَّ النجاح في حفظ هذا التراث الثقافي لا يعتمد إلا على إرادتنا وعلى إصرارنا على الحفاظ على قيم الماضي قصد ضمان مستقبل أفضل لأبنائنا وللأجيال اللاحقة.

تذليل [207]

[209] تداعيات الربيع العربيّ

في الوقت الذي أحرّر فيه هذه السطور، تشهد عديد الدول العربيّة كارثة ثقافيّة حقيقيّة منذ سنة 2010 وإلى غاية سنة 2016. فبدل تعزيز الديمقراطية كما حصل في تونس، صاحب هذه الثورات ظهور نوع جديد من الهمجيّة جعلت من المواقع والمعالم التاريخيّة هدفا مقصودا. ومازالت اللآئحة القائمة لهذه الكارثة في تضخّم، لكأنّها تنذر ببداية عهد جديد يتولى فيه الإرهابيون محو الذاكرة محوا لا حدود له.

تدمير أضرحة تمبكتو

في سنة 2002، وبسقوط نظام طالبان الذي خلّف عددا كبيرا من الضحايا ودمّر جزءا كبيرا من تراثه الوطني، كان من المشروع للعالم أن يأمل في توقّف التدمير الذي استهدف ما يقوم شاهدا على الماضي. ولكن في غرة جويلية/ يوليو 2012، وفي خضمّ اجتماع هيئة التراث العالميّ في بيتربورغ حوّلت العناصر الإرهابيّة لجماعة أنصار الدين المتحالفين مع تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، نصف أضرحة مدينة تمبكتو ترابا، فكانت العمليّة ردّا يستهزئ من القرار الذي أدرجت بمقتضاه هذه المدينة في قائمة التراث المهّدّد بالخطر.

[210] وعلى منصّة هيئة التراث العالمي، أجهشت وزيرة الفنون والسياحة والثقافة في مالي، السيدة فاديا ديالو، بالبكاء وهي تذكّر بأنّ تمبكتو، التي أسست في القرن الحادي عشر ميلادياً ولقّبت باسم "مدينة الـ333 ولياً صالحاً"، كانت مركزاً فكرياً ومحطّة لنشر العلوم الإسلاميّة في إفريقيا. وترجع شهرتها أيضا إلى "مقابرها وأضرحتها الستة عشر التي كانت من المكوّنات الأساسيّة للنظام الدينيّ حيث أنّها تعتبر، حسب المعتقدات الشعبيّة، الحصن الذي يحمي المدينة من كلّ مكروه"¹⁷⁸.

وقد نعتت السيدة فاتو بنسودا المدعية العامّة للمحكمة الجنائيّة الدّولية هذا العمل البشع بـ "جريمة حرب". وخلال هذا الاجتماع، طلبت منّي السيدة فاديا أن أمكّنها من الالتقاء بالمدنوب الدائم للمملكة العربية السعوديّة لدى منظمة اليونسكو، السيّد زياد الدريس، لأنّها تخشى أن تكون لهذا البلد مسؤوليّة في تمويل الجماعات الإرهابية الناشطة في مالي. وقد سمح هذا اللقاء من تبديد هذا الخوف ومن التنسيق في ردّ الفعل.

وبفضل مهامي الجديدة في المركز الإقليمي العربي للتراث العالمي¹⁷⁹، وتبعا للنداء الذي صدر عن المديرية العامّة السيّدة إيرينا بوكوفا لفائدة التراث الثقافي في تمبكتو، تمكّنت من الحصول على مساهمة مالية قدرها خمسون ألف دولار من البحرين لمساعدة مكتب اليونسكو في باماكو على إعادة تأهيل الأضرحة المدمّرة وإعادة بنائها.

178 المصدر: اليونسكو، موقع مركز التراث العالمي.

179 أنشئ المركز بمبادرة من وزارة الثقافة والسياحة في البحرين سنة 2012 وتحت إشراف منظمة اليونسكو.

يذكرنا تدمير أضرحة تمبكتو بالمصير الذي لقيته معالم أخرى من التراث العالمي، مثل تمثاليّ [211] بوذا في باميان اللذين توسّعنا، سابقا، في الحديث عن تدمير طالبان لهما في شهر مارس 2001. وأشارت جريدة لوموند إلى أنّ الجماعات الإرهابية المعروفة باسم "شباب" في الصومال، دمرت بدورها عددا كبيرا من أضرحة المتصوفة الأتقياء الذين يمجّد ذكراهم الأهالي المحليون.

ورغم ذلك، بدأ بصيص من الأمل يظهر في تمبكتو لما زارها يوم 2 فيفري/فبراير 2013 كلّ من السيّدة إيرينا بوكوفا والرئيس الفرنسي فرانسوا هولاند ورئيس مالي بالنيابة ديونكوندا تراوري. وقد كان الهدف الرئيسي من هذه الزيارة هو انطلاق عملية إعادة بناء التراث الثقافي الموجود في شمال مالي وصونه، وبالخصوص أضرحة تمبكتو فضلا عن مجموعات رائعة من المخطوطات الموجودة في المدينة. وقد تلقينا بكثير من الارتياح خبر مثول أحد قادة جماعة أنصار الدين المتّهم بالإشراف على عمليات التدمير تلك، أمام المحكمة الجنائيّة الدوليّة في شهر مارس 2016.

وكانت السيدة فاتو بنسودا قد صرّحت في هذا الصدد بأنّ "تسليم سلطات دولة النيجر للمتهم أحمد الفقي المهدي لإحالته على المحكمة الجنائيّة الدوليّة يمثّل تطوّرًا موقّفا. فالأمر يتعلّق بمرحلة هامّة في مجال الإفلات من العقاب، لا في مالي فحسب، بل في منطقة الساحل الإفريقي والصحراء الإفريقيّة التي كان سكانها في السنوات الأخيرة، ضحايا جرائم بشعة.

من حق الشعب المالي أن يستردَّ حقَّه بعد الهجمات التي تعرضت لها مدنه وعقائده وأهاليه. ولتكن الأمور واضحة: تتصل التهم الموجهة لأحمد الفقي المهدي [212] بجرائم على درجة كبيرة من الخطورة، فهي تتعلَّق بتدمير معالم تاريخية لا يمكن تعويضها، وبتعدُّ صارخ على كرامة شعوب كاملة وعلى هويتها وعلى أصولها الدينية والتاريخية. ولسكان مالي، الضحايا الأوائل لهذه الهجمات، الحقُّ في أن تتمَّ إقامة العدل¹⁸⁰.

"تمبكتو تُبعث من جديد"، هذه هي العبارة التي استعملتها صحفية تعمل في قناة فرانس 24 التلفزيونية يوم 4 فيفري/فبراير 2016. فبعد مرور ثلاث سنوات عن تدمير أضرحة المدينة الأسطورية الواقعة شمال شرق مالي، والتي كانت ضحية الظلامية والإرهاب، ها هي تستردُّ معالمها وقد أُعيد بناؤها كما كانت. وقد صرَّح زميلنا في اليونسكو لازار إيلوندو، الذي دُعي إلى إدارة مكتب المنظمة في مالي وسهر على تنفيذ مشاريع الترميم قائلاً "لقد رأينا قساوة الصور، وبشاعة التهديم، أمَّا اليوم فنحن سعداء بإقامة هذا الضريح [من جديد]".

تدمير واتجار غير شرعي في اليمن وليبيا

في نهاية شهر مارس 2015، اندلع نزاع آخر في البلد الذي أُطلق عليه الإغريق والروم اسم "بلاد العرب السعيدة". يتعلَّق الأمر باليمن الذي تدور فيه رحى "حرب مَنسِيَّة" أسفرت عن آلاف الموتى وعن تدمير لا رجعة فيه

180 من وثيقة المحكمة الجنائية الدولية، مرافعة المدعي العام بتاريخ 26 سبتمبر 2015.

لِحَقِّ مدنا لها ماض يعود إلى آلاف السنين ولا سيَّما العاصمة صنعاء التي سُجِّلت مدينتها القديمة في قائمة التراث العالميّ، وخصَّتها منظمة [213] اليونيسكو منذ سنة 1984 بحملة دوليّة تهدف إلى صونها.

رُتِّ صنعاء في شهر جوان/يونيو من سنة 2014، صحبة زميل مختصّ في الهندسة المعماريّة يشغل في المركز الإقليمي العربي للتراث العالميّ، بهدف التعاون مع المسؤولين اليمنيين في وزارة الثقافة وفي وكالة حماية المدن التاريخيّة، على إطلاق مشروع إعادة تأهيل مدينة زَبِيد التاريخيّة المدرجة في قائمة التراث العالميّ المهدّد بالخطر والتي من المحتمل شطبها نهائيّاً من القائمة بسبب إهمال تعهّدها بالصيانة وتبعاً لإقحامها في النسيج الحضريّ التقليديّ. وقد جرى تنفيذ هذه الدراسات الفنيّة من أجل مشروع رائد واجتمعت كلّ الشروط اللازمة لانطلاق الأشغال على الميدان... إلّا أنّ الحرب اندلعت، وتوقّف كلّ شيء.

أمّا النزاع الثاني الذي لا نعرف إلّا القليل عن مخلفاته على الصعيد البشري وكذلك على الصعيد الثقافي فهو النزاع في ليبيا التي لم تعرف بعد سقوط نظام العقيد معمر القذافي في أكتوبر 2011 إلّا الاضطرابات والإضرار بالأشخاص والممتلكات. فمِنذ 2014، تتنازع حكومتان شرعيّة، بينما يغرق البلد في حرب أهلية لم يُتوصَل إلى حلّها إلى زمن كتابة هذه الأسطر. وأسفرت هذه الوضعيّة عن غياب تامّ للرقابة على المواقع الأثريّة الكبرى في البلاد والتي من ضمنها أربعة مواقع مدرجة بقائمة التراث العالميّ: سيران (شحات)، وغدامس، ولبتيس ماقتنا (لبدة الكبرى)، وصبراتة.

وفي الوقت الذي وردت فيه أخبار تفيد تزايد عمليات تخريب التراث الثقافي الليبي والاتجار غير المشروع به، أطلقت المديرية العامة لمنظمة اليونسكو نداء لجميع الجهات [المعنية] من أجل حماية هذا التراث الثقافي الفريد في [214] ليبيا: "التراث الليبيّ تعبّر عن الذاكرة المشتركة للبلاد، ويمثّل احترامه حجر الزاوية الذي تنبني عليها المصالحة الوطنية المستدامة. ولهذا أنا أطلب من جميع الأطراف، بما في ذلك أهالي ليبيا، الالتزام بصون هذا التراث والعمل على تحقيق ذلك. من المفروض أن تتجنّب الأطراف [المتنازعة] استعمال المواقع الثقافيّة وما يجاورها لغايات عسكريّة قد تعرّضها للتدمير أو تلحق بها أضراراً. ومن المفروض أيضاً أن تكفّ عن كلّ اعتداء على هذه الممتلكات. فاليونسكو تعمل بالتعاون مع الإنترنتول، والمنظمة العالميّة للجمارك (OMD)، وأجهزة الشرطة الوطنية المختصّة، مثل الحرس الإيطالي، على مضاعفة الرقابة على كلّ محاولة توريد أو تصدير أو اتجار بالممتلكات الليبيّة. وقد نُبّهت أيضاً البلدان المجاورة لليبيا إلى ضرورة اليقظة لمحاولات تهريب الممتلكات الثقافيّة".

سقوط مدينة تدمر ثم استرجاعها

لمّا كانت تمبكتو تنبعث فيها الحياة من جديد، وقد تمّت عملية إعادة تأهيل الأضرحة المدمّرة، كان الشرق الأوسط، وعلى وجه التخصيص العراق وسوريا، يشهد تعاظم نفوذ تنظيم داعش الذي كان يضطهد المدنيين من الأهالي ويخضعهم لأوامره الظلاميّة [المتخلّفة]. وكان، زيادة على ذلك، يستهدف أرقى الرّموز التراثيّة في هذين البلدين. وقد عبّر الرّأي العامّ العالمي

عن انزاعه، لمّا علم، يوم 21 ماي/مايو 2015 بسقوط مدينة تدمر بين أيادي تنظيم داعش. وقد نقلت ذلك جريدة "لوفيغارو" الفرنسية على النحو التالي: "استولى مقاتلو تنظيم الدولة الإسلامية، مساء يوم الأربعاء، [215] على مدينة تدمر ودخلوا، صباح يوم الخميس مدينتها القديمة. فبعد معارك دامت ثمانية أيام، أعلنت داعش على "تويتر" استيلاءها على كامل المدينة، مؤكّدة أنّ "القوات الموالية [للنظام] فرّت مخلفّة وراءها عددا كبيرا من قتلها". واعترف النظام بهزيمته وأكّدت وكالة الأنباء السوريّة "سنا" أنّ القوات النظاميّة انسحبت بعد (...) هجوم عدد كبير من الإرهابيين التابعين لتنظيم الدولة الإسلاميّة".

فبعد أن استولى تنظيم داعش على هذه الواحة، أصبح صاحب السيادة على نصف الأراضي السوريّة... فلاستيلاء على المدينة له قيمة استراتيجية من الدرجة الأولى، حسب التفسير الذي قدّمه فريس بالانش، الأستاذ المحاضر بجامعة ليون 2 والمتخصّص في قضايا الشرق الأوسط، لجريدة "لوفيغارو": "داعش، بإحكام قبضتها على تدمر، توسّع تأثيرها على جهتي الحدود العراقيّة السوريّة وافتتح منفذا يصلها بالرمادي..."

وقد أشارت وكالة الأنباء السوريّة إلى مسألة إجلاء أغلب المدنيين. وعبرت رئيسة الدبلوماسية الأوروبيّة عن انشغالها قائلة: "مرّة أخرى، يُقتل المئات من المواطنين، وقد يتعرّض الآلاف منهم للعنف بشكل عشوائي، وفي الوقت ذاته قد تطال المواقع الثقافيّة عمليات تدمير جديدة".

ولقد شاءت الأقدار أن تضمّ المدينة التي تكتنّى بـ"جوهرة الصحراء السورية"، تحفة تراثية. وهذا الكنز الأثريّ هو الآن واقع تحت تهديد التنظيم الإرهابيّ الراغب في محو المعالم الثقافية "باعتبارها من الفترة الجاهليّة التي سبقت ظهور الإسلام" حسب التفسير الذي قدّمه فبريس بالانش. وقال السيّد مأمون عبد الكريم مدير عام المديرية العامة للمتاحف والآثار في سوريا، في لوعة، "من المرجّح أن يتمّ تدمير الممرّ الرائع ذي الأعمدة، ومعبدُ بعل"، [216] ولكنه أكد أيضا أنّ مئات التماثيل قد حُفِظت في مكان آمن، وأنّ "المخاوف تخصّ، في المستقبل، المتحفّ والمعالم الضخمة التي يستحيل نقلها".

نحن نجهل، إلى الآن، هل أنّ الموقع المُدرّج في قائمة اليونسكو للتراث العالمي، تعرّض للتدمير [أم لا]. "يجب أن نحمي تدمر. إنّها مدينة رائعة بما فيها من آثار معمارية. وقد كانت أحد أهمّ المراكز الثقافية في العهد القديم... مدينة تدمر هي اليوم مُلتقى كثير من الحضارات، بل هي مدينة حوار الحضارات. ولا بدّ من حمايتها" هذا ما كانت تردّه بشدّة المديرية العامة لليونسكو صباح يوم الأربعاء".¹⁸¹

ولكن، للأسف، كما كان منتظرا، لم يكتف تنظيم داعش بالاعتداء على أحد المواقع الرئيسية في سوريا والذي تمّ إدراجه بقائمة التراث العالمي سنة 1980 ثمّ في قائمة التراث العالمي المهدّد بالخطر سنة 2013، بل إنّهُ اعتدى أيضا على من كان مسؤولا عنه مدّة أربعين سنة، ونعني بكلامنا عالم الآثار

181 "العناصر الجهادية لتنظيم الدولة الإسلامية يدخلون مدينة تدمر القديمة"، جريدة "لوفغارو" بتاريخ يوم 20 ماي/ مايو 2015، ووكالة رويتر للأخبار.

السيد خالد الأسعد، الذي دفع حياته ثمنا لرفضه الخضوع للتنظيم الإرهابي. ولم يُشَفِ قطعُ رأسه على الملأ، غليل الإرهابيين فعَلَقوا جثته على أحد أعمدة الموقع وكتبوا لافتة يتهمونونه فيها بـ"مدير الأصنام" في تدمر. "ودخل الرعب الحياة اليومية"¹⁸² على حدِّ عبارة المفكّر التونسي حمّادي الرديسي. لقد كانت ردّة الفعل في سوريا وفي العالم كلّهُ إجماعاً على أنّ هذا الصّنيع عمل وحشيّ لا يُصدّق. [217] ودخل مجال علم الآثار في حالة حداد وتوافدت على الهيئة العامّة للآثار والمتاحف في سوريا برقيّات التعزية، على حدِّ عبارة حمّادي الرديسي في المقال ذاته.

وأثناء الندوة التي التّأمت يوم الجمعة 30 أكتوبر/ 2015 في بايستوم بإيطاليا، في إطار "البورصة المتوسّطيّة للسياحة الآثاريّة"، انتظم تكريمٌ رسميٌّ لعالم الآثار الشهيد بحضور عدد كبير من الشخصيّات الرسميّة، من بينهم السيّد فرانشسكو روتيليّ الرئيس الأسبق لبلدية روما ووزير الثقافة السابق. وقد حضرت هذا التكريم وفي نفسي لوعة كبرى. ونجحت في ربط اتصال هاتفي بالسيّد مأمون عبد الكريم، المدير العامّ للمديريّة العامّة للمتاحف والآثار في سوريا، أتاح له فرصة توجيه كلمة إلى جمهور الحاضرين.

وتعرّضت أيضاً، معامُ رمزيّة في موقع تدمر، مثلما أكّدت ذلك عديد وسائل الإعلام، لهجمات من إرهابيي داعش الذين فجّروا على التّوالي معبد الإله بعلشمين في أوت/أغسطس 2015، ثمّ المعبد الكبير للإله بعل. وبعد فترة قصيرة، جاء دور أيقونة المواقع، قوس النصر، الذي يفتح على ممزّ الأعمدة،

182 عنوان مقال لحمادي الرديسي صدر في Philosophie magazine 95، ديسمبر 2015 / جانفي-يناير 2016، ص 64.

ليتحوّل إلى ركام حقيقيّ من الأتربة. ولا ننسى تدمير البرجين الجنائزيّين من القرون الوسطى، وتخریب المتحف، وتفكيك تمثال أسد أثينا الضخم الذي يبلغ علوّه ثلاثة أمتار والمنتصب أمام المتحف.

فحسب المدير العامّ مأمون عبد الكريم "الخيار بسيط: إمّا أن تندثر تدمر إلى الأبد، وإمّا أن يتقدّم الجيش السوريّ بسرعة مسنودا بالمجموعة الدوليّة والجيش الروسيّ، من أجل تحرير [218] المدينة. فالأمر الأهمّ هو أن ننقذها، وبعد ذلك يمكننا مناقشة المشاكل السياسيّة"¹⁸³.

وبعد استرجاع الجيش السوري المسنود بالجيش الروسيّ، مدينة تدمر وموقعها الأثريّ في 27 مارس 2017، فُتحت صفحة جديدة في تاريخ هذا الموقع الذي شهد مأساة. وعلى الفور، رحّب كلّ من الأمين العامّ لمنظمة الأمم المتحدة والمدير العامّ لمنظمة اليونسكو بهذا الإنجاز. وصادق المجلس التنفيذي لليونسكو بمناسبة انعقاد دورته 199 في شهر أبريل/ أبريل 2016 بباريس، بالإجماع على قرار ينصّ على "صون وحماية موقع تدمر ومواقع أخرى من التراث السوريّ".

الترميم وإعادة التأهيل والتكوين وإعادة البناء

أكدت المديرية العامّة، طيلة النقاشات، أنّ منظمة اليونسكو تصرّ على أنّ "موقع تدمر تراث لكلّ السوريين، وهو أيضا تراث عالميّ يوحدنا كالعائلة الواحدة. ودعا المجلس التنفيذي المديرية العامّة إلى إرسال بعثة من خبراء

183 شهادة نقلتها ناتالي لاكوب، جريدة "لاكروا" الفرنسيّة، 10 أبريل/أبريل 2015.

اليونسكو الدّوليين، إلى موقع تدمر وغيره من المواقع الهامة مثل حلب، عندما تسمح بذلك الظروف الأمنيّة، من أجل تقدير حجم الأضرار، وتحديد الحاجيات المستعجلة في ما يتعلّق بالحفظ والترميم والصون حتى تطلّ تدمر ومواقع أخرى هامة مثل حلب، صامدة في وجه الزمن"¹⁸⁴.

[219] وضع خبير المجلس الدولي للمعالم والمواقع (إيكوموس)، الأستاذ سمير عبدلك، الخطوط العريضة لما ينبغي القيام به. وفي ردّه على سؤال طرحته عليه صحفّية جريدة "لوسوار" (المساء) في شأن ما يجب القيام به في تدمر، هل نرمم، أم نعيد التأهيل، أم نعيد البناء؟ قال: "ربّما يكون كلّ هذا في نفس الوقت. ولكن لا بدّ قبل كلّ شيء أن نؤمن الموقع. ينبغي إزالة الألغام: فنحن نجهل هل توجد متفجّرات يمكن أن تُحدّث أضرارا مرّة أخرى. ولا يمكن أن يبدأ العمل العلميّ بجديّة إلاّ بعد [القيام بكلّ ما سبق]. وبها اطّلنا عليه من صور حصلت لنا فكرة عامّة عن الوضعيّة، ولكن من وجهة النظر العلميّة، يجب أن نتحوّل على عين المكان لمعاينة حالة المباني وما يوجد من ركام".

الأوليّة إذن، لتقدير الأضرار في موقع تدمر والمواقع التي حرّرت. والوضع في العراق مختلف، فمازال جزء من الأراضي الواقعة حول الموصل تحت سيطرة تنظيم داعش. وقد تضاعف التدمير المتعمّد للتراث فانضاف إلى الخراب الذي خلّفه الغزو الأمريكي للعراق بين شهري مارس و أبريل/ أبريل 2003، وإسقاط صدّام حسين.

184 وثيقة المجلس التنفيذي لليونسكو، أبريل/أبريل 2016.

ثمة سعي متجدد إلى محو آثار الماضي والقضاء على كل ما له علاقة بالذاكرة. وما انفكت المديرية العامة لليونسكو تردّد بأنّه "شكل جديد من الجرائم ضدّ الإنسانية". وصرّح مندوب فرنسا الدائم لدي اليونسكو، دانيال رونديو بأنّ "عدوى الكره لا تعرف حدوداً... وكلّ ما يمكن أن يكون شاهداً على عبقرية الإنسان وسعيه إلى السموّ أصبح مُستهدفاً".

[220] وردًا على قوى الشرّ هذه التي تريد محو الماضي، أطلقت المديرية العامة لليونسكو، انطلاقاً من القاهرة ثم من بغداد، حملة تحت شعار "متّحدون من أجل التراث!"، من أجل تحسيس أكبر عدد ممكن من الناس عبر وسائل التواصل الاجتماعيّ، والتحفيز على انطلاق حملة عالميّة لحماية التراث الثقافي والطبيعي في العراق وفي سوريا.

وفي إطار اتفاق مبرم مع المديرية العامة للآثار والمتاحف في سوريا، وانطلاقاً من المركز الإقليمي العربي للتراث العالمي الموجود بمملكة البحرين، وبالتعاون مع اليونسكو والمركز الدولي الإقليمي لدراسة صون الممتلكات الثقافية وترميمها (إيكروم) الكائن بالشارقة، بادرتُ إلى تنظيم دورة تكوينيّة، ذات صبغة تقنيّة بحت، لاثنتين وعشرين زميلاً سورياً أمكنهم التحوّل إلى بيروت مرّة أولى في شهر ديسمبر 2014، ثم مرّة ثانية في شهر جوان/يونيو 2015، ولمدّة أسبوعين، لتلقي تكوين في "إجراءات النجدة الأولية للتراث الثقافي في حالات النزاع".

[221] وقد جرى وضع مضمون هذا التكوين في مركز "إيكروم" روما سنة 2008 بفضل ما قدّمته وزارة الممتلكات الإيطالية من دعم ماديّ لهذه المؤسسة. وتبعاً لهذا، فإنّ أدوات التكوين والتقييم كانت متوقّرة من قبل. ولقد تعلق الأمر بعملية متواضعة كان لها، في المقابل، أثر هامّ على الزملاء السوريين الذين أدركوا أنّهم لم يتخلّ عنهم في مواجهتهم للتدمير الممنهج الذي تتعرّض له متاحفهم ومعالمهم ومواقعهم الأثرية. وقد تولّت مديرية المتاحف والآثار في لبنان فتح أبواب متاحفها ومواقعها وتنظيم دورات تكوينية فيها، وقد أمّنها موظفوها الذين قدّموا الخبرة البنائية في مجال حماية المواقع الأثرية طيلة فترة النزاع التي شهدها البلد.

وانتهاجا لنفس المنوال، عمل المركز الإقليمي بشكل وثيق مع الزملاء العراقيين، فنظّم في مملكة البحرين ستّ ورشات عمل ضمّت خبراء في مجال المواقع الثقافية والمواقع الطبيعية وكان الهدف من ذلك إعداد ملفّ يخصّ إدراج أهوار جنوب العراق [في قائمة التراث العالمي الطبيعي والثقافي].

لا بدّ أن نعلن، بكلّ أسف، عن وقوع خسائر غير قابلة للإصلاح، في المواقع الأثرية العراقية التي لم تُدرج بعد في قائمة التراث، وكان من الممكن إدراجها، مثل موقع مدينة نمرود، العاصمة الثانية للإمبراطورية الآشورية، التي شهدت مجدا كبيرا في عهد الملك آشور بانبيال ودُمرت آثارها بالجرافات، ومثل موقع نينوى العاصمة الآشورية القديمة في القرن السابع قبل الميلاد، وبعض معالم مدينة الموصل التي نُهب متحفها في شهر فيفري/فبراير 2015. وحتىّ مدينة الحضر، الموقع العراقيّ الوحيد المدرج بقائمة التراث العالميّ إلى حدود سنة

2003، لم يَنْجُ من التخريب الهمجي الذي صوّره مقترفوه بأنفسهم وهم يدمّرون النقوش التي كانت تزيّن جدران معابد المدينة القديمة.

ومبادرة من الفيدرالية الروسية، وبالتعاون الوثيق مع السلطات السورية نُظِّمت بعثة ثانية رفيعة المستوى تضمّ قرابة عشرة سفراء ومندوبين قارين لدى اليونسكو، وتنقّلت يوم 5 ماي/مايو 2016 إلى تدمر، تلت [222] بعثة فنيّة أولى أرسلتها اليونسكو قبل أسبوع وترأستها مديرة مركز التراث العالمي السيّدة مشتيلد روسلار.¹⁸⁵

كانت هذه البعثة تدخل في إطار متابعة القرار الذي صادق عليه المجلس التنفيذي لليونسكو بالإجماع، والمتعلّق بدور المنظمة في صون وحماية موقع تدمر المدرج بقائمة التراث العالمي وقائمة التراث العالمي المعرض للخطر.

دعتني المديرة العامّة لليونسكو إلى المشاركة في هذه البعثة، فمكّنتني ذلك من الوقوف، بمعّية وزير الثقافة السوريّ ومساعديه، ولا سيّما مدير عامّ الآثار والمتاحف، على حجم الأضرار التي أُلْحِقت بموقع تدمر ومتحفه. وشارك في هذه البعثة الأستاذ ميخائيل بيوتروفسكي مدير عامّ متحف إرميتاج وعدد من الخبراء الروسيين في مجال التراث الثقافي.¹⁸⁶

185 ضمت هذه البعثة السفراء والمندوبين الدائمين لجنوب إفريقيا والجزائر وأرمينيا والصين والهند وبيرو والفلبين والفيدرالية الروسية، وصربيا، وسوريا، وزمبابوي.

186 السفراء المندوبون لدى اليونسكو في بعثة إلى تدمر، انظر موقع المندوبية الدائمة لروسيا لدى اليونسكو. باريس في 7 ماي/مايو 2016.

بدأت الرحلة باتجاه تدمر برحلة جوية خاصة انطلقت من باريس باتجاه اللاذقية مساء يوم 4 ماي/مايو. وبعد استراحة قصيرة في القاعدة العسكرية الروسية الموجودة في هذه المدينة الساحلية السورية، تواصلت الرحلة برًا، بالحافلة، مدّة خمس ساعات، في رتل خضع لحماية مشدّدة، ووصل إلى مدينة تدمر أواخر الصباح. هذا الرتل المتكوّن من قرابة عشر حافلات وعدد من السيّارات الخاصة، كان يتضمّن، [223] زيادةً على بعثة السفراء المندوبين لدى اليونسكو، فرقةً موسيقيي مسرح مارينسكي في سان بيترسبورغ بقيادة المايسترو فاليري غيرغيف، سفير النوايا الحسنة من أجل السلام لدى اليونسكو، ومجموعةً صحفيين قدموا من بلدان مختلفة.

في بداية شهر ماي/مايو ذاك، كان اليوم ربيعياً، والبساتين الواقعة بالقرب من البحر تزخر برتقالا وليمونا، وهضاب شجر الزيتون الخضراء تمتدّ إلى أبعد ممّا تراه العين. وكانت حركة السير في الطريق المؤدّية من اللاذقية إلى حمص عادية وعلى طول حافتيها ينتصب باعة الغلال والخضر. ولم يكن ليخطر ببال أحد أنّ هذا البلد يشهد منذ خمس سنوات، حربا لولا العربات المصفّحة التي كانت ترافق الرتل والطائرتين المروحيّتين اللتين تحلّقان فوقه طيلة الرحلة.

ولكن، ما إن تجاوزنا حمص وسلكنا طريق الصحراء حتّى ذكّرتنا حواجز المراقبة وآثارُ المعارك التي دارت في المدينة، بالحقيقة المرّة التي يعيشها البلد. وكذا كان الشأن في تدمر. فما إن وصلناها ومررنا أمام أوّل بيوت المدينة الحديثة، ورأينا المشهد الرهيب للبيوت المثقوبة والمباني المحترقة حتى تذكّرنا

أن تنظيم داعش الإرهابي احتل هذه المدينة قرابة السنة، ولم يغادرها إلا منذ أسابيع قليلة.

وأدركت على عين المكان، مثلما أدركت بعثة زملائي في اليونسكو التي تحوّلت إلى تدمر قبل أيام، من 24 إلى 26 أفريل/أبريل، وترأسها السيّدة مشتيلد روسلار، ضخامة حجم الأضرار التي ألحقت بموقع تدمر. إلا أن بعثة اليونسكو [224] في شهر أفريل/أبريل "لم تتمكّن من معاينة الأضرار التي لحقت معبد بعل إلا عن بعد، لأنّه كان من غير الممكن دخول الموقع قبل الانتهاء من عملية نزع الألغام".¹⁸⁷

أنهيت عمليات نزع الألغام من الموقع، يوم وصولنا إليه في 5 ماي/مايو، ولذلك تمكّنت من دخول الحرم الذي أقيم فيه معبد بعل، أكثر مباني تدمر جلالاً. إنّّه يعود إلى القرن الأوّل ميلاديّاً، وهو ينتصب وسط ساحة واسعة ذات أعمدة. يبدو أنّ جدران الحرم لم تُصب بكثير من الأذى، رغم ما يلاحظ عليها من شقوق وانهيّارات حديثة الوقوع.

ولكن عندما نقترب ممّا بقي من هذا المعبد القديم نتبيّن الكارثة الكبرى، فلا مقصورة المقدّس ولا سقفها المتكوّن من حجر واحد (مونوليت) ولا زخارف الباب ولا الأعمدة الخارجية صمدت في وجه تفجير العناصر الإرهابية لتنظيم داعش.

187 اليونسكو: "خبراء اليونسكو ينجزون تقييماً أولياً للتدمير الذي أصاب موقع تدمر". الأربعاء 27 أفريل 2016.

وتسلّقتُ صحبة المدير العامّ للآثار والمتاحف، الدكتور مأمون عبد الكريم، ركام هذا المعبد الذي لم تبق قائمة في وسطه غير أعمدة الباب الشرقيّ. وتمكّنا من أن نعاين عن كثب أنّ الكثير من الصخور الضخمة قد انفجر بصفة نهائيّة، بينما ظلّ بعض منها سليما نسبيا، وتبعا لهذا حافظ على ما فيه من نقوش منحوتة وملوّنة. فالتقطتُ لها بعض الصور.

ولمّا وصلنا ممرّ الأعمدة الشهير الموافق لوسط (دوكومانوس) المدينة العتيقة والذي يعشقه، عن حقّ، المصوِّرون، عاينا أنّ قوس النصر، الذي يمثّل مدخلا للممرّ، خُلف [225] التفجير الذي دَمَره، صخورا ضخمة كانت تمثّل هيكله، وظلّ أغلبها سليما، على عكس ما رأينا في معبد بعل وفي معبد بعلشمين اللذين سوّيا بالأرض.

أمّا بقيّة المعالم الأقلّ رمزيّة والأقلّ شهرة بين الناس فيبدو أنّها لم تتعرّض لشراسة المجموعات الإرهابيّة باستثناء الأبراج الجنائزيّة القروسطيّة التي تضرّرت كثيرا من التفجيرات. وكذلك كانت حالة قبور المدفن العتيق الذي تعدّر علينا دخوله بسبب وجود الألغام. وتعتبر زيارة المتحف أكثر الزيارات إرهاقا، فمدخله مشوّه تشويها كاملا بعد تدمير أسد أثينا المسمّى أيضا أسد اللآت، ولكنّ الأدهى هو أنّ كلّ قاعات العرض وما فيها من قطع فنيّة ضخمة تعدّر صونها ونقلها إلى دمشق قبل استيلاء داعش على تدمر، خرّبت تخريبًا همجيا لم يُعرف له نظير.

ففي هذا المتحف المثقوب الجدران في مواضع كثيرة، والمقطوعة رؤوس كل تماثيله، والمكسورة كل واجهاته، كانت تنتصب "المحكمة الإسلامية" المرعبة التي أقامتها الجماعات الإرهابية.

ووجهنا مدير المتحف بمعية مختصين بولونيين في الترميم كانا موجودين على عين المكان منذ بضعة أسابيع، أنا والأستاذ بيوتروفسكي، في أكوام الأنقاض التي تسد كل المعابر، وفسروا لنا ما تتطلبه العناصر المتأتية من التماثيل المدمرة من عمل بحثي متأن، والخطوات الأولى التي قاموا بها في ترميم أسد أثينا الذي اكتشفته، سنة 1977، بعثة بولونية مختصة في علم الآثار أرسلت إلى سوريا.

[226] وفي أعقاب ذلك اليوم، انعقدت جلسة عمل في المسرح الأثري الموجود في موقع تدمر ذاته، بحضور وزير الثقافة الروسي والسوري، وسفير سوريا لدى اليونسكو الدكتور مأمون عبد الكريم، والأستاذ ميخائيل بيوتروفسكي. وعبر الجميع عن أملهم في أن تتمكن منظمة اليونسكو، في أسرع وقت، من المساهمة في إعادة تأهيل الموقع، بضمان تضافر الجهود الدولية. وذكّرت، في هذا الصدد، بالنجاح الذي حققته الهيئة الدولية للتنسيق من أجل صون وتنمية موقع أنغكور التي أنشأتها منظمة اليونسكو سنة 1993، والتي يمكن أن تتخذ أمودجا للتعاون الدولي المستعدّ لدعم إعادة تأهيل وترميم التراث الثقافي السوري المتضرر من النزاع.

وسبقتُ هذا الاجتماعَ تظاهرةً ذات طبيعة رمزية رفيعة. ففي هذا المسرح الذي كان قد اتُّخذ مكاناً لتنفيذ أحكام الإعدام، قدّم الأوركستر السنفوني لمسرح مارينسكي في سان بيترسبورغ بقيادة المايسترو فاليري غيرغيف، حفلاً موسيقيًا تضمن مقطوعات لباخ وبروكوفياف وتشيتيرين وكان تحت عنوان "صلاة من أجل تدمير، الموسيقى تُحيي من جديد الجدران القديمة".

وما إن عدتُ إلى باريس، حتى دُعيتُ إلى جلسة عمل برئاسة المديرية العامة لليونسكو، أكّدت خلالها أنّ ما وصلتُ إليه من استنتاجات يتطابق تمامًا مع ما استخلصته بعثة التقييم الفنيّ العاجل التي أُرسِلت إلى الموقع المدرج بقائمة اليونسكو للتراث العالمي، وشدّدت على أنّ "موقع تدمير الأثريّ، رغم تدمير العديد من معالمه الرمزية، حافظ، في جزء كبير منه، [227] على سلامته وأصالته".

وأشرت، من جهة أخرى، إلى أنّي أعلمتُ بعثة السفراء، بالمنهجية المتبعة عادة من منظمة اليونسكو في حالات النزاع التي يكون لها تأثير على التراث الثقافيّ، وذكّرتُ بما أُنجز في الماضي من تدخّلات، في إطار مقارنة تأخذ في الاعتبار الأولويات المُحدّدة من السلطات الوطنية وتعوّل على التعاون الدولي دون أيّ امتياز كان.

ولكن كلّما مرّ الزمن تواصل، للأسف، التدمير. فقد علمنا في آخر شهر ماي/مايو 2016 بأنّ جماعات تنسب نفسها إلى "الدولة الإسلامية" قد دمّرت

بالجرفّات سور نينوى.¹⁸⁸ وبلغ الاستفزاز قَمّته عندما بعث نفسُ هذا التنظيم، الذي لم يرض بما اقترفه من آثام في سوريا والعراق، برسالة يهدّد فيها بمهاجمة أهرام مصر!".

لا يمكن أن نختم هذا التذييل إلّا بشكل ظرفي، لأنّ الحرب في سوريا مازالت، للأسف، متواصلة في اللحظة التي أكتب فيها هذه الأسطر. ولا يمكن أن أختم دون أن أشير إلى ما شهدته الرأي العام الدولي من تعبئة بسبب تأثره العميق لاستيلاء تنظيم داعش على تدمر في صائفة 2015، وإلى ما شعر به من ارتياح بعد أن استرجعت القوّات الحكوميّة السوريّة مدعومة من الجيش الروسيّ، هذا الموقع الأيقونيّ في ربيع سنة 2016.

188 هي رسالة بعثها الأستاذ إحسان فتحي رئيس جمعية المهندسين المعماريين العراقيين، مُرفقة بصور توثّق لهذا التدمير الذي تمّ في وضح النهار.

مُلحقات

بيان الدُّوْحَة للعلماء حول الإسلام والتراث الثقافي 30-31 ديسمبر 2001

تحت رئاسة

سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني

وبتنظيم من

منظمة المؤتمر الإسلامي

ومنظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)

والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو)

ومنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)

[232] إنَّ منظِّمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) ومنظِّمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) والمنظِّمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) باعتبارها معبِّرة عن الضمير الثقافيِّ الإنسانيِّ، الدوليِّ والإسلامي والعربيِّ،

إيماناً بما يمثِّله التراث الثقافي من عناصر فاعلة في حماية الهويَّات الحضاريَّة وتحسين الذاتيات الثقافيَّة للشعوب والأمم، ومدِّها بمقوِّمات الثبات والمناعة، واستلهاماً من التعاليم السماويَّة والقوانين الدوليَّة والأعراف الإنسانيَّة الداعية إلى عمارة الكون وصلاح الإنسان وحماية التراث الإنسانيِّ وتنوِّعه باعتباره رصيِّدا حضاريًّا للإنسانيَّة،

ووعيًّا بما يتعرَّض له التراث الثقافيِّ العالميِّ من مخاطر مدمِّرة من جرَّاء الحروب والعداء وسوء فهم الدين، وبمسؤوليَّة الإنسان في عمارة الأرض وإصلاحها وعدم إفسادها،

ومراعاةً لطبيعة الظروف والتحوُّلات التي يمرُّ بها العالم،

عُقدت الندوة الدوليَّة، للعلماء حول "الإسلام والتراث الثقافيِّ" تحت رعاية [233] سموِّ الشيخ جاسم بن حمد بن خليفة آل ثاني نائب الأمير، ولي العهد بدولة قطر، في الدوحة بتاريخ 15-16 شوال 1422هـ الموافق لـ 30-31 كانون الأوَّل/ديسمبر 2001م، وقد أُفتتحت الندوة بكلمات لأصحاب المعالي السيِّد عبد الله بن خليفة العطية وزير الدولة، رئيس المجلس الوطنيِّ للثقافة والفنون والتراث في دولة قطر، رئيس المؤتمر الإسلامي الثالث لوزراء

الثقافة، والسيد كوتشيرو ماتسورا، المدير العام لمنظمة اليونسكو، والدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري المدير العام لمنظمة الإيسيسكو، والدكتور المنجي بوسنينة، المدير العام لمنظمة الألكسو، ثم أقيمت كلمة معالي الدكتور عبد الواحد بلقزيز الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي بالنيابة عنه، وكلمة البروفسور أحمد جلاّلي، رئيس المؤتمر العام لليونسكو، التي رسمت الخطوط العامة للندوة بالتعاون بين المنظمات الثلاث والتنسيق مع اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم.

وقد ناقش العلماء الحاضرون الموضوع المطروح في الندوة من مختلف جوانبه، وأكدوا أنّ سماحة الدين الإسلامي تقتضي احترام التراث الإنسانيّ على وجه العموم، أيّا كانت مصادره وأشكاله ومظاهره، وأبرزوا في مداولاتهم كيف أنّ المسلمين حافظوا على التراث الإنسانيّ المتنوع فلم يُلحقوا به ضرا ولم يمسّوه بسوء، ويشهد على ذلك أنّ العالم الإسلاميّ يزخر بالنصيب الأكبر من التراث الإنسانيّ الذي يعود معظمه إلى عهود ما قبل الإسلام، ولولا محافظة المسلمين عليه لضاع معظم هذا التراث، [234] وبيّنوا أنّ الوضع استمرّ على هذا المنوال طوال القرون الأربعة عشر التي مضت من تاريخ الإسلام.

وأكد العلماء المشاركون في الندوة أنّ موقف الإسلام من الحفاظ على التراث الثقافيّ الإنسانيّ ينبع من تقديره للقيم الإنسانية الفطرية ومن احترام معتقدات الشعوب. كما أوضحوا أنّ موقف الإسلام من الحفاظ على التراث الثقافيّ الإنسانيّ هو موقف مبدئيّ ثابت ويعبّر عن جوهر الدين الإسلاميّ، وأنّ أيّ تصرف أو سلوك يصدر من أيّ فرد أو جماعة يخالف ذلك، لا يمثّل الموقف

الإسلامي الذي يعبر عنه علماء الأمة وفقهاؤها بأي حال من الأحوال. وبعد مناقشة الأوراق العلمية المقدمة في الندوة باستفاضة وتركيز، التقت توجّهات العلماء المشاركين في التوصيات التالية:

1. إيلاء مزيد من الاهتمام للقيم الثقافية في المناهج التعليمية والرسالات الإعلامية؛

2. تشجيع وسائل الإعلام وسائر الشخصيات والجهات المعنية على توسيع دائرة المواقف الإيجابية تجاه الإسلام وثقافته وحضارته، حتى تتجلى فيها مضامين هذا البيان؛

3. التأكيد على ضرورة مواصلة الحوار بين الثقافات والحضارات من منطلق الاحترام المتبادل والتسامح عملاً بالتوجيهات القرآنية والسنة النبوية في الاعتراف بالآخر وفي الحوار بالحكمة [235] والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن؛

4. التأكيد على ضرورة احترام التنوع الثقافي والديني في التعامل مع الآخر إقراراً بحقوق الإنسان وإغناءً للحضارة الإنسانية؛

5. مناشدة المنظمات الثلاث مواصلة العمل على المحافظة على التراث واسترجاع الممتلكات الثقافية المسلوقة؛

6. شكر دولة قطر أميراً وحكومة وشعباً، على استضافتها الكريمة لهذه الندوة،

7. شكر اليونسكو والإيسيسكو والألكسو على دعوتها لعقد هذه الندوة والإعراب عن تقدير العلماء المشاركين فيها لجهود هذه المنظمات الثلاث من أجل الحفاظ على التراث الثقافي الإنساني.

وفي نهاية جلسات الندوة روجعت وثيقة الإعلان بشأن القضاء على جميع أشكال التعصّب والتمييز القائمين على أساس الدين أو المعتقد الذي اعتمده الجمعية العامة للأمم المتحدة في 25 تشرين الثاني/نوفمبر 1981م، ونظرا إلى الحاجة إلى دراسة معمّقة وموسّعة للوثيقة، فقد اقترح إحالتها على الهيئات المتخصصة في العالم الإسلامي، ورفعت برقية تقدير وامتنان لحضرة صاحب السموّ الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، أمير دولة قطر، رئيس مؤتمر القمة الإسلامي التاسع، على كرم ضيافته.

إعلان اليونسكو [236]

بشأن التدمير المتعمد للتراث الثقافي

17 أكتوبر 2003

إنّ المؤتمر العامّ لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة المنعقد في دورته الثانية والثلاثين في باريس في عام 2003، إذ يُدكر بمأساة تدمير تماثيل بوذا في باميان التي أفجعت المجتمع الدولي بأسره،

ويُعرب عن قلقه العميق إزاء تزايد أعمال التدمير المتعمد للتراث الثقافي،

ويشير إلى الفقرة الفرعية (ج) من الفقرة 2 من المادة الأولى من الميثاق التأسيسي لليونسكو التي تُنيط بالمنظمة مهمة المساعدة على حفظ المعرفة وعلى تقدّمها وانتشارها "بالسهر على صون وحماية التراث العالمي من الكتب والأعمال الفنية وغيرها من الآثار التي لها أهميتها التاريخية أو العلمية؛ وبتوصية الشعوب صاحبة الشأن بعقد اتفاقيات دولية لهذا الغرض"،

ويدكر بما تضمّنته جميع اتفاقيات اليونسكو وتوصياتها وإعلاناتها ومواثيقها من مبادئ ترمي إلى حماية التراث الثقافي،

[237] ويُدرِك أنّ التراث الثقافيّ عنصر هام للذاتية الثقافية للمجتمعات والجماعات والأفراد، وللتماسك الاجتماعيّ، وأنّ تدميره المتعمّد ترتّب عليه، من ثمّ، نتائج ضارّة بالكرامة البشريّة وبحقوق الإنسان،

ويكرّر التأكيد على أحد المبادئ الأساسيّة الواردة في ديباجة اتفاقية لاهاي لعام 1953 الخاصة بحماية الممتلكات الثقافية في حالة وقوع نزاع مسلّح والذي ينصّ على "أنّ الضرر الذي يلحق بالممتلكات الثقافية لأيّ شعب من الشعوب إمّا يُعتبر ضرا يصيب التراث الثقافيّ للإنسانية جمعاء، نظرا لأنّ كلّ شعب يسهم بنصيب في ثقافة العالم"،

ويُذكر بالمبادئ المتعلّقة بحماية التراث الثقافيّ في حالة وقوع نزاع مسلّح التي أُقرّت بموجب اتفاقيّتي لاهاي لعام 1899 و عام 1907، وعلى الأخصّ بالمادتين 27 و 56 من النظام الخاصّ باتفاقية لاهاي الرابعة لعام 1907 وكذلك بالاتفاقيات الأخرى اللاحقة،

ويأخذ في اعتباره تطوّر قواعد القانون الدوليّ العرقيّ، التي أكّدها أيضا السوابق القضائيّة ذات الصلة، والتي تتعلّق بحماية التراث الثقافيّ زمن السلم وفي حالة وقوع نزاع مسلّح،

ويُذكر أيضا بالمادتين 8 (2) (ب) و (9) و 8 (2) (هـ) و (4) من نظام روما الأساسيّ الخاصّ بالمحكمة الجنائيّة الدوليّة، [238] وبالمادة 3 (د) من النظام الأساسيّ للمحكمة الجنائيّة الدولية الخاصّة بيوغسلافيا السابقة، حسب مقتضى الحال، وهي مواد تتصل بالتدمير المتعمّد للتراث الثقافيّ،

ويؤكد من جديد على أنّ القضايا التي لا يُعطيها بالكامل هذا الإعلان
وسائر الوثائق الدوليّة المتعلّقة بالتراث الثقافيّ سوف تظلّ خاضعة لمبادئ
القانون الدوليّ والمبادئ الإنسانيّة وما يُمليه الضمير العامّ،

فإنّه يعتمد ويُعلن رسميًا هذا الإعلان:

أولاً- الاعتراف بأهميّة التراث الثقافيّ

يعترف المجتمع الدوليّ بأهميّة حماية التراث الثقافيّ ويؤكد من جديد
التزامه بمكافحة تدميره المتعمّد بأيّ صورة من الصور كي يمكن نقل هذا
التراث إلى الأجيال القادمة.

ثانيا- مجال التطبيق

1. يسري هذا الإعلان على التدمير المتعمّد للتراث الثقافيّ بما في ذلك
التراث الثقافيّ المرتبط بموقع طبيعيّ.

2. لأغراض هذا الإعلان، يُقصد بعبارة "التدمير المتعمّد" الفعل الذي
يهدف إلى تدمير تراث ثقافيّ كلّه أو بعضه، بحيث ينال من [239]
سلامته، على نحو يُشكّل انتهاكا للقانون الدوليّ وإخلالا لا مُبرّر له
بمبادئ الإنسانيّة وما يُمليه الضمير العامّ، ويُستند إلى الضمير العامّ إذا
كانت مثل هذه الأفعال لا تحكّمها بالفعل المبادئ الأساسيّة للقانون
الدوليّ.

ثالثاً- تدابير تستهدف مكافحة التدمير المتعمد للتراث الثقافي

1. ينبغي للدول أن تتخذ التدابير الملائمة لمنع وتجنّب ووقف وقمع أفعال التدمير المتعمد للتراث الثقافي أينما وُجد.

2. ينبغي للدول أن تتخذ التدابير القانونية والإدارية والتربوية والتقنية الملائمة، في حدود مواردها الاقتصادية، من أجل حماية التراث الثقافي، وينبغي لها أن تُنقّح هذه التدابير بصورة دورية بغية تطويعها لتطوّر المعايير المرجعية الوطنية والدولية الخاصة بحماية التراث الثقافي.

3. ينبغي للدول الأعضاء أن تعمل، بكافة الوسائل الملائمة، على تأمين احترام التراث الثقافي في المجتمع، لا سيّما بواسطة برامج للتعليم والتوعية والإعلام.

4. ينبغي للدول:

أ. أن تصبح أطرافاً في اتفاقية لاهاي لعام 1953 الخاصة بحماية الممتلكات الثقافية في حالة وقوع نزاع مسلّح وفي بروتوكولها لعامي 1954 و1999، وفي البروتوكولين الإضافيين الأوّل والثاني لاتفاقيات جنيف الأربع لعام 1949، إذا لم تكن أطرافاً فيها، [240]

ب. أن تُعزّز عمليات إعداد واعتماد وثائق قانونية توفّر مستوى أعلى من الحماية للتراث الثقافي،

ج. أن تُعزّز التطبيق المتناسق للوثائق القانونية الحالية والمقبلة المتعلقة بحماية التراث الثقافي.

رابعاً- حماية التراث الثقافي عند القيام بأنشطة في وقت السلم

ينبغي للدول عند القيام بأنشطة في وقت السلم أن تتخذ جميع التدابير الملائمة من أجل أن تتمّ على نحو يكفل حماية التراث الثقافي، ويتفق بوجه خاصّ مع مبادئ وأهداف اتفاقية عام 1972 لحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعيّ، وتوصية عام 1956 الخاصة بالمبادئ الدوليّة التي ينبغي تطبيقها في مجال الحفائر الأثريّة، وتوصية عام 1968 بشأن صون الممتلكات الثقافيّة التي تهددها الأشغال العامّة أو الخاصّة، وتوصية عام 1972 بشأن حماية التراث الثقافيّ والطبيعيّ على الصعيد الوطني، وتوصية عام 1976 بشأن صون المناطق التاريخيّة ودورها في الحياة المعاصرة.

خامساً- حماية التراث الثقافيّ في حالة وقوع نزاع مسلّح بما في ذلك حالة الاحتلال

ينبغي للدول عندما تشتبك في نزاع مسلّح، سواء أكان ذا طابع دوليّ أم غير دوليّ، بما في ذلك [241] حالة الاحتلال، أن تتخذ جميع التدابير الملائمة من أجل القيام بأنشطتها على نحو يكفل حماية التراث الثقافيّ، وفقاً للقانون الدوليّ العرفيّ ومبادئ وأهداف الاتفاقات الدوليّة وتوصيات اليونسكو المتعلّقة بحماية هذا التراث أثناء أعمال القتال.

سادساً- مسؤوليّة الدول

في حالة قيام أيّ دولة بتدمير متعمّد لتراث ثقافيّ ذي أهميّة عظيمة بالنسبة إلى الإنسانيّة، أو بالامتناع عمداً عن اتخاذ التدابير الملائمة لحظر ومنع ووقف ومعاينة أيّ تدمير متعمّد لهذا التراث، سواء أكان هذا التراث أم

لم يكن مُدرجا في قائمة تحتفظ بها اليونسكو أو أي منظمة دولية أخرى، فإنها تعتبر مسؤولة عن هذا التدمير وفقا لما ينص عليه القانون الدوليّ.

سابعاً- المسؤولية الجنائية الفردية

ينبغي للدول أن تتخذ جميع التدابير الملائمة، بما يتفق مع القانون الدولي، من أجل بسط ولايتها القضائية، وتوقيع عقوبات جنائية رادعة، على الأشخاص الذين يرتكبون أو يأمرّون بارتكاب أفعال تدمير عمدي لتراث ثقافيّ ذي أهمية عظيمة بالنسبة إلى الإنسانية، سواء أكان هذا التراث الثقافيّ، أم لم يكن، مُدرجا في قائمة تحتفظ بها اليونسكو أو أي منظمة دولية أخرى. [242]

ثامناً- التعاون من أجل حماية التراث الثقافيّ

1. ينبغي للدول أن تتعاون فيما بينها ومع اليونسكو من أجل حماية التراث الثقافيّ من التدمير المتعمّد، وينبغي أن يستتبع هذا التعاون القيام كحدّ أدنى بما يلي: (1) تقديم وتبادل المعلومات المتعلّقة بالظروف التي قد تؤدّي إلى تدمير متعمّد للتراث الثقافيّ، (2) إجراء مشاورات في حالة تدمير فعليّ أو وشيك الوقوع للتراث الثقافيّ، (3) النظر في تقديم المساعدة إلى الدول الأعضاء في اليونسكو، بناء على طلبها، فيما يتعلّق بتعزيز البرامج التربويّة ورفع مستوى الوعي وبناء القدرات من أجل منع ومعاينة أي تدمير متعمّد للتراث الثقافيّ، (4) تقديم ما قد تطلبه الدول المعنية من مساعدة قضائية أو إدارية من أجل قمع ومنع أيّ تدمير متعمّد للتراث الثقافيّ.

2. من أجل توفير حماية أشمل، تُشجّع كلّ دولة على اتخاذ جميع التدابير الملائمة، بما يتفق مع القانون الدولي، بغية التعاون مع سائر الدول المعنية من أجل بسط الولاية القضائيّة، وتوقيع عقوبات جنائيّة رادعة، على الأشخاص الذين ارتكبوا أو أمروا بارتكاب الأفعال المشار إليها في القسم "سابعاً" أعلاه (المسؤوليّة الجنائيّة الفرديّة) والذين يوجدون على [243] أراضيها، بغضّ النظر عن جنسيّتهم أو المكان الذي ارتكبت فيه هذه الأفعال.

تاسعا- حقوق الإنسان والقانون الإنسانيّ الدوليّ

عند تطبيق هذا الإعلان تعترف الدول بالحاجة إلى احترام القواعد الدولية المتعلّقة بتجريم الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان وللقانون الإنسانيّ الدولي، وخاصّة عندما يقترن التدمير المتعمّد للتراث الثقافي بهذه الانتهاكات.

عاشرا- توعية الجمهور

ينبغي للدول أن تتخذ جميع التدابير الملائمة لكفالة نشر هذا الإعلان على أوسع نطاق ممكن في صفوف عامّة الجمهور والفئات المستهدفة، من خلال القيام بجملة أمور منها تنظيم حملات لتوعية الجمهور.

[244] في فرنسا كُلّف الرئيس المدير لمتحف اللوفر، يوم 29 جوان/يونيو 2015، بمقتضى مذكرة تكليف بمأمورية صادرة عن رئيس الجمهورية، فرانسوا هولاند، تُدكّر، على وجه التخصيص، "بأنّ للنزاعات التي تُدمّر اليوم سوريا والعراق، تبعات غير قابلة للمعالجة على تراث يعود أحيانا إلى آلاف السنين، هو جزء من الممتلكات المشتركة للإنسانية" وبضرورة القيام "بعملية بحث عن الوسائل التي تمكّن من الارتقاء بجدوى الأدوات والآليات الموجودة".

وبناء على ذلك، قدّم السيّد جان-لوك مارتيناز، الرئيس المدير لمتحف اللوفر، في شهر نوفمبر 2015، "تقريراً لرئاسة الجمهورية حول حماية التراث في حالات النزاع المسلّح" تحت عنوان: "خمسون اقتراحاً فرنسيّاً من أجل حماية تراث الإنسانية". قد جعلنا توطئته ومحتوياته ومذكرة التكليف ضمن ملاحق هذا الكتاب.

ومن جهة أخرى، تجدر الإشارة إلى أنّ اليونسكو نظّمت، بدعم من الحكومة الألمانية، اجتماعاً واسعاً للخبراء التقوا ما بين 2 و4 جوان/يونيو 2016 من أجل "إجراء تدقيقٍ لما تحقّق من تطوّر في تطبيق خطة اليونسكو التي تمّت المصادقة عليها في ماي/مايو 2014.

وكان الاجتماع يهدف كذلك إلى تجميع الأطراف المتدخّلة، لتحديد الثغرات في صون التراث السوري المبنى، والمنقول واللامادي، وتنسيق التوثيق الراهن على المستوى الوطني والدولي، وتقييم الضرر الحاصل والجهود المبذولة في تدعيم القدرات، وضبط المراحل القادمة الموجهة إلى الخطط العاجلة المستقبلية وخطط الحماية¹⁸⁹.

189 وثيقة اليونسكو (COM/7A.Add, p.34. 40/WHC/16) المقدّمة في الدورة 40 لمجلس التراث العالمي المنعقدة في إسطنبول من 10 إلى 20 جويلية/يوليو 2016.

[245] **خمسون اقتراحا فرنسيا من أجل حماية تراث الإنسانية**

تقرير إلى رئيس الجمهورية بشأن حماية التراث في حالات النزاع المسلح نوفمبر 2015

جان-لوك مارتينيز، رئيس مدير متحف اللوفر

لئن كان هذا التقرير مخصصا لتدمير التراث في الدول التي تشهد حالات نزاع مسلح، فإننا نذكر بأن أول ضحايا هذه النزاعات هم سكان هذه البلدان وأن ما يحدث في بداية هذا القرن الحادي والعشرين في الشرق الأوسط هو أولاً وقبل كل شيء كارثة من أكبر الكوارث الإنسانية في عصرنا، وهي تحدث على أبواب أوروبا.

وفي هذا الصدد، قد يبدو من الصعب، أخلاقياً وسياسياً أيضاً، القبول بالحديث عن خطة [246] عمل تتعلق بقضايا التراث فقط، رغم خطر حصول انطباع خاطئ، بأن فرنسا تولي حياة البشر اهتماماً أقل مما توليه "للحجارة القديمة". فالمؤتمر الذي خصص لضحايا العنف العرقي والديني في الشرق الأوسط، وتولّى رئيس الجمهورية افتتاحه بتاريخ 9 سبتمبر 2015، و"خطة عمل باريس" التي تمخّضت عنه تدحض تماماً مثل هذا الانطباع.

إنّ التوصية الأولى لهذه الدراسة، تتمثل إذن في التذكير بأنّ جهودنا لحماية التراث في مناطق النزاع، يجب أن تكون مصحوبة بتعبئة لا تقل أهمية عن التعبئة لحماية الأهالي وقعوا الآن ضحايا للنزعات الوحشية، سواء بقوًا في بلدانهم أو اضطروا إلى الفرار منها. وبهذا التصوّر، قد يكون من المناسب في تقديرنا أن تُضمّ، أو تُلحق خطة العمل هذه، إلى خطة عمل باريس (الاقتراح رقم 1). وهذا الأمر يكتسب معنى أكثر متى أخذنا في الاعتبار أنّ المجازر أو الهجمات المتعمدة الموجهة ضدّ هؤلاء الأهالي وممتلكاتهم، والتدمير الذي يلحق تراثا لا يقدر بثمن، هو جزء من استراتيجية واحدة "للتطهير الثقافي"، حسب عبارة السيدة إيرينا بوكوفا، المديرية العامة لليونسكو، تهدف إلى محو حقب كاملة من تاريخ البشرية.

وإذا كنّا سنركّز القول، في هذا التقرير، على مسائل الممتلكات الثقافية بالمعنى المقصود في اتفاقية لاهاي لعام 1954، فإنّه من الضروري، في تقديرنا، التذكير بشدّة بأنّ حماية التراث لا يمكن فصلها عن حماية الأهالي.

[247] ومن ناحية أخرى، تجدر الإشارة هنا إلى أن فرنسا، بلد حقوق الإنسان، وصاحبة السبق أيضا في مجال علم الآثار في الشرق الأوسط، كما يشهد على ذلك بشكل خاص إنشاء أول "متحف آشوري" في متحف اللوفر، عام 1847، لها بلا شك مسؤولية خاصة جدًّا في هذه المسائل وفي هذه المنطقة من العالم.

حتى لو كانت الأعمال التي نشهدها حالياً بلغت حدًا أبعد بكثير ممّا نقلته لنا ذاكرة التاريخ، فمن الواجب أن نتذكر أيضًا أن النزاعات المسلحة أدت دائمًا إلى تدمير ممتلكات ثقافية لا يمكن تعويضها.

إنّ الممتلكات الثقافية، لكونها روح أمة ما وذاكرتها، كانت منذ العصور القديمة محلّ كلّ الأطماع وأحيانًا موضوع تدمير متعمد ومقصود. وفي الواقع، يعدّ إنكار وجود الخصم بمهاجمة معاملة المميّزة وفنّه، موقفًا متواترًا جدًّا في تاريخ النزاعات: فالغالب يمحو ذاكرة المغلوب ليفرض ذاكرته هو. وقد دُرست هذه الظاهرة في سياق الثورات "الشاملة"، التي كان يحرص قادتها على إنتاج "إنسان جديد" بمحو ما يُقدّم على أنّه من أخطاء الماضي، من أجل بناء مستقبل آخر.

ثمّ إنّ الوعي بأهمية التراث وضرورة حمايته مسألة قديمة أيضًا: فمنذ القرن الثاني قبل الميلاد كان المؤرخ اليوناني بوليبيوس متبرّمًا [248] من تدمير الممتلكات الثقافية أثناء النزاعات المسلحة [فقال]: "إذا لم نحصل منها على أي منفعة (...). فلا أحد يمكنه أن ينكر أن الانصياع للتدمير غير المفيد للمعابد، والتماثيل وغيرها من المقدّسات الأخرى عمل مجنون".

ومع ذلك، لئن كانت هذه الظواهر قديمة، فمن الواضح أن تدمير الممتلكات الثقافية والدينية بلغ اليوم حجمًا استثنائيًا:

- أولاً لأنّ عمليات التخريب هذه، تكتسي طبيعة منهجية ويُخطط لها، وأصبحت في حدّ ذاتها أداة دعاية في خدمة أيديولوجيا واستراتيجيا

حقيقية للإرهاب، مع رغبة في تدمير هوية الخصم ذاتها وتاريخه وثقافته وعقيدته،

- ثانياً، لأن الاتجار غير المشروع بـ"آثار الدم" هو (وتخصيصاً يمكن أن يصبح) أحد مصادر تمويل الإرهاب،

- أخيراً لأن وسائل الاتصال تمكّن من نقل هذا الدمار في أوانه وبالتالي يكون الرأي العام الدولي شاهداً على ذلك.

وأمام تضخّم حجم الظاهرة، ولا سيّما في العراق وسوريا، صادقت الجمعية العامّة للأمم المتحدة، في 28 ماي/مايو 2015، على قرار يعتبر المجتمع الدولي بموجبه "الهجمات التي تشنّ على التراث الثقافيّ لأيّ بلد هجمات على التراث المشترك للإنسانيّة جمعاء". ويؤكد هذا القرار نفسه على "أهمية التنوع والتعددية الثقافيّين وحرية الدين والمعتقد في تحقيق السلام والاستقرار والمصالحة والتماسك الاجتماعيّ".

[249] فسواء على المستوى الوطني أو الأوروبي أو الدولي بشكل خاص (تحت رعاية الأمم المتحدة واليونسكو)، تسلّحت الدول منذ نهاية الحرب العالميّة الثانية، بترسانة نصوص قانونية طموحة للغاية، انكشفت، للأسف، حدودها في السياق الحاليّ الذي تُواجه فيه الوحشيّة الإرهابية المنتشرة في الشرق الأوسط.

من الضروري ضبط تعريف التراث المهدد بالخطر، وفي نفس الوقت ضبط نطاق هذا التقرير. فاليوم، الحالات الأكثر وضوحًا هي حالات سوريا، والعراق، واليمن، وليبيا. ويجب أن نأخذ في الاعتبار أيضًا عددًا من البلدان الأخرى التي تمر بحالة ما بعد النزاع فضلًا توازنها هشا (أفغانستان ومالي على سبيل المثال). ثم سَنَميِّز البلدان التي أضعفتها الهجمات التي استهدفت الأماكن التراثية، مثل مصر أو تونس. وفي الختام، ثمة بلدان لم تشهد عنفا بلغ درجة من القوّة تضاهي حدة النزاع المسلح إلا أنّ تراثها في خطر لأنه نُهب أو هُجر.

هذا التقرير، غدّته وأثرته أفكار [250] هي نتيجة إنصات إلى حوالي ستين شخصية من العالم الدبلوماسي والثقافي والعلمي والاقتصادي، أو ممن يعملون في المنظمات غير الحكومية، وهو يسعى جاهدا لتحسّس مسالك مقترحات ملموسة وعمليّة بهدف وضع خطة عمل شاملة يمكن أن تبادر بها فرنسا. فأفضل إجابة على المتوحّشين الذين يريدون تدمير الماضي والذاكرة هي التعبئة الجماعية، منذ الآن، لإعادة بناء المستقبل، ولإعطاء رسالة تفاعل في نفس الوقت تذكّر بأنّ الإرهاب بالنسبة إلى الحضارات ليس إلا ظاهرة زائلة، وفي هذا السياق أستعيرُ عبارة لوران فاييوس وزير الخارجية والتنمية الدولية التي قال فيها "لا يمكننا أن نذبح التاريخ".

**بيان رئيس الجمهورية الفرنسية،
فرانسوا هولاند،
حول الإرهاب والممتلكات الثقافية،
خلال قمة مجموعة السبع، في إيسى-شيما، اليابان
في 26 ماي/مايو 2016**

[251] زملائي الأعزّاء،

أودّ أن أشكر السيّد شينزو آب، الوزير الأوّل اليابانيّ الذي أتاح لرئيس متحف اللوفر فرصة تقديم نتائج التقرير الذي أوكلت إليه مهمّة القيام به. الإرهاب يهاجم النساء والرجال والأطفال ويهاجم أيضا مواطن حفظ الذاكرة وكلّ ما يمكن أن يمثل الحضارة.

الإرهاب يريد أن يستأصل التاريخ ويمحو أثره، وكلّما تسنّى له أن يحتلّ منطقة هدم ما فيها من إبداعات فنيّة، وأحيانا، هو يبيعها فيتخذ من ممتلكات الإنسانية تجارة شنيعة غير شرعيّة، إنّه يهاجم دائما ما يحفظ هذه الذاكرة. وقد شاهدنا ذلك في العراق، وسوريا، واليمن، وأفغانستان، وغيرها إذ

القائمة طويلة. لمّا رأينا جزءاً هاماً من تَدْمَرٍ مهْدَمًا وعدداً من متاحف العراق مخرباً، [252] قدَّرتُ أنَّه من الواجب أن يكون للمجتمع الدولي ردٌّ على ذلك. والتقرير الذي تسلَّمته من رئيس متحف اللوفر، يتعلَّق في الحقيقة بما يمكن أن يقوم به المجتمع الدولي، متى وقرَّ لنفسه الوسائل لتحقيق ذلك:

1. أولاً وقبل كلِّ شيء مقاومة الاتجار غير الشرعيِّ بالممتلكات الثقافيَّة والآثار المتأتية من الصراعات الدميَّة، وهذا الأمر يظلُّ رهين إرادتنا بحيث أنَّ الممتلكات التي يتمُّ تهريبها والاتجار بها نتمكَّن من حجزها؛
2. والأولويَّة الثانية هي أن نتجنَّب وقوع التحف الأثريَّة في أيدي الإرهابيين. ولهذا السبب، مثلما توجد بلدان تستقبل اللاجئين، يجب أن توجد بلدان تستقبل في الآن نفسه اللاجئين والممتلكات الثقافيَّة قبل أن تصبح مهْددة بالخطر أو النهب؛
3. أمَّا الأولوية الثالثة فتتمثَّل في حفظ ذاكرة المواقع إمَّا بوسائل إلكترونيَّة وإمَّا بما يمكن أن ننجزه من عمليات تجديد من أجل حماية التراث ولا سيَّما في الشرق الأدنى والشرق الأوسط.

وهذا ما أمكن تحقيقه في موقع أنغكور بكمبوديا، فأتاح، اليوم، استقبال الزوَّار من كلِّ بلدان العالم. ولبلوغ هذه النتائج نحتاج تمويلاً عموميًّا، ولكننا نحتاج أيضاً دعماً مالياً ورعاية [من القطاع الخاصِّ]. ولعلَّ المسألة تحتاج إنشاء صندوق مُخصَّصات موجهٍ للممتلكات الثقافيَّة المهْددة بالخطر.

[253] أقتراح عليكم مناقشة هذه التوجّهات، وتعبئة هذه الموارد المالية، بمناسبة تظاهرة يمكن تنظيمها خلال تدشين متحف اللوفر في أبو ظبي، الذي سيكون رمزا لحوار الحضارات. وتُعدّ هناك ندوة دولية يشرك فيها كل الوزراء المكلفين بالتراث، وأهمّ مديري المتاحف والخواص الراغبون في رعايته. أعتقد أنّ ذلك سيكون حاملا لبعده رمزيّ، فمن جهة، المكان هو أبو ظبي ومن جهة أخرى، سيكون متحف اللوفر حاضرا، زيادة على مشاركة كل الوزراء المكلفين بحماية الممتلكات الثقافية وما يمكن تعبئته من موارد لتحقيق هذه النتيجة. فمكافحة الإرهاب هي أيضا كفاح من أجل الحضارة.

ببليوغرافيا مختصرة [255]

BIBLIOGRAPHIE SUCCINTE

Ouvrages imprimés

- BOGDANOS Matthew, *Thieves of Bagdad: one marine's passion for ancient civilizations and the journey to recover the world's greatest stolen treasures*, New York, Bloomsbury Pub., 2006.
- BRODIE Neil, *Illicit Antiquities: the theft of culture and the extinction of archaeology*, One World Archaeologia. Ed. Routledge 2002.
- COISSARD Pascale, *La protection du patrimoine culturel en cas de conflit armé: enjeux et limites du cadre international*, Mémoire de fin d'études, Université de Lyon 2, juin 2007.
- CUNO James, *Whose Culture? The Promise of Museums and the Debate over Antiquities*, Princeton University Press, 2012.
- DAVID Eric, *Principes de droit des conflits armés*, Ed. Bruylant, 1994.
- FLANDRIN Philippe, *Le pillage de l'Irak*, Éditions du Rocher, 2004.
- KILA Joris, *Heritage Under Siege: military implementation of cultural property protection following the 1954 Hague Convention*, Ed. Brill 2012.
- KNUTH Rebecca, *Burning Books and Leveling Libraries: extremist violence and cultural destruction*, Ed. Praeger, 2006.
- LAYTON Robert, *Destruction and conservation of cultural property*, One World Archaeologia, Ed. Routledge 2001.
- LEGOFF Jacques, *Patrimoine et Passions Identitaires*, Éditions du Patrimoine, Fayard, 1998.
- NAIDU-SILVERMAN Ereshnee, *The contribution of Art and Culture in Peace and Reconciliation Processes*, Centre for Culture and Development, 2015.
- NEGRI Vincent, *Le Patrimoine culturel, cible des conflits armés*.

De la guerre civile espagnole aux guerres du XXIe siècle, Ed. Bruylant, janvier 2014.

- O'KEEFE Roger, *The Protection of Cultural Property in Armed Conflict*, Cambridge University Press, 2006.

- PROTT Lyndel, *Witnesses to History: a compendium of documents and writings on the return of cultural objects*, UNESCO, 2009.

- SCHIELE Bernard, *Patrimoines et identités*, Colloque de l'UCAM, Ed. Muséo, 2001.

- STONE Peter, *Cultural Heritage, Ethics and the Military*, Ed. Boydell Press, 2010.

- TOMAN Jiri, *La protection des biens culturels en cas de conflit armé*, UNESCO, 1994.

- WEGENER Corine and MARJAN Otter, *Cultural Property at War: Protecting Heritage during Armed Conflict*, The Getty Conservation Institute Newsletter, 2008, Vol. 23, N° 1.

- WOOD Nicholas, *War crime or just war?: The Iraq war 2003-2005, a case for indictment*. Ed. South Hill Press, 2005.

Support électronique

- Site Web de l'UNESCO: Conflit armé et Patrimoine.

- *Appel pour la protection du patrimoine culturel en Palestine*, F. Mariscalo, Observatoire pour la protection du Patrimoine Culturel, <http://www.ism-france.org>

- *La Destruction du patrimoine culturel en situation de conflit armé à caractère international: les limites du régime de protection face aux acteurs non-étatiques*, A. Caligiuri, <http://revel.unice.fr>

- *Droit des biens culturels et des archives*, Marie Cornu, *Centre d'études sur la coopération juridique internationale*, <http://educnet.education.fr/chrgt/biensculturels.pdf>

- *Le Patrimoine culturel iraquien à l'épreuve de l'intervention militaire du printemps 2003*, Hiram Abtahi, *Actualités et Droit International*, <http://www.ridi.org/adi>.

Revue et Périodiques

- *Cultural Heritage in Postwar Recovery*, Nicholas Stanley-Price, Papers from the ICCROM Forum held in October 2005.
- *Cultural Heritage Vandalism and Looting: The Role of Terrorist Organizations*, Public Institutions and Private Collectors. Leila A. Amineddoleh, *Santander Art and Culture Law Review*, Vol 1 : p. 27-62, février 2015,
- *Cultural Property at War: Protecting Heritage during Armed Conflict*, Corine Wegener, Otter Marjan, *The Getty Conservation Institute Newsletter*, printemps 2008, Vol. 23, N° 1.
- *Culture as Afterthought: US Planning and Non-Planning in the invasion of Iraq*, McGuire Gibson, *Management of Archaeological Sites*, vol. 11, N° 3-4, p. 333-339, novembre 2009.
- *Face à l'Histoire*, dans *Museum International*, Vol. 55, Ed. UNESCO, décembre 2003.
- *Facts on the Ground: Archaeological Practice and Territorial Self-Fashioning in Israeli Society*. Nadia Abu El-Haj, University of Chicago Press, 2001.
- *From Pan-Arabism to Saddam Hussein's Cult of Personality: Ancient Mesopotamia and Iraqi National Ideology*. Kamyar Abdi, *Journal of Social Archaeology* 8, Vol 1 : p. 3-36, février 2008.
- *From Banyan to Bagdad: Warfare and the Preservation of Cultural Heritage at the Beginning of the 21st Century*, *Georgetown Journal of International Law*, vol. 37, N° 2, p. 245-351, hiver 2006.
- *Iraq's Cultural Heritage: Monuments, History and Loss*. Zainab Bahrani, *The Art Journal*, Vol. 62, p. 17-19, décembre 2003.
- *Journal of Eastern Mediterranean Archaeology & Heritage Studies* 1, No. 4 (2013) Special Issue Archaeologies 4, No. 3 (December 2008). [Special Issue: Imperial Inspections: Archaeology, War and Violence].
- *Journal on Cultural Heritage in Conflict*.
- *Les Guerres du patrimoine*. J.-G. Leturcq, *CEDEJS Égypte*, octobre 2006.

- *Lost Heritage: Antiquities Stolen from Iraq's Regional Museums*. Chicago: American Association for Research in Bagdad; London: British School of Archaeology in Iraq, 1992.
- *Le Musée Branly étrillé par la presse étrangère*, Vincent Noce, Libération, 23 juin 2006.
- *Le Musée National du Liban*, Joseph Pharès, Museum International, vol. 55, p. 38-44, décembre 2003.
- *Near Eastern Archaeology* 78, No. 3 (September 2015). [Special Issue: The Cultural Heritage Crisis in the Middle East].
- *The crumbling of an ivory tower*, Harriet Crawford, The Art Journal, vol. 62, décembre 2003.
- *Violents affrontements sur l'Esplanade des Mosquées*, Le Monde, 9 février 2007.

Films

- *Burning Books: The destruction of the National Library in Bosnia and Herzegovina, Sarajevo*, Norwegian Film Institute, 2002.
- *The Monuments Men*, Columbia Pictures, Twentieth Century Fox, Sony Pictures, Siebente Babelsberg Film and Smokehouse, 2014.

شكر

[259] أودّ، وأنا أضع نقطة النهاية لهذا العمل الذي يروي جزءاً من مسيرة كرّستها لخدمة الثقافة، أن أتقدّم بجزيل الشكر والتقدير إلى ناشر الكتاب الصديق إيريك نونبي ووالده، اللذين شجّعاني بقوة، منذ مدّة خلت، على الكتابة للتعريف بما تقوم به اليونسكو من عمل في الأزمات التي وسمت تاريخنا المعاصر.

ما قمت به من عمل، كان نابعا من اقتناع راسخ بأنّ معرفة الماضي مصدر ثراء للهويّة الثقافيّة، وفهم للحاضر، وتطوير للمستقبل. وهذا الاقتناع تمّتن، على وجه الخصوص، في مرحلة الدراسة الجامعيّة على أيدي أساتذة تقاسموا معي معرفتهم وخبرتهم في مجال التاريخ، والبحث في الآثار، وحماية المعالم والمواقع الأثريّة.

فمن واجبي أن أكرّم من وجّهوني، وكوّنوني في هذا المجال الذي يتميّز بالثراء والتشعب، مجال البحث في التراث الثقافيّ وصونه، الذي يمثّل منبع كلّ هويّة وفهمٍ للآخر.

ففي جامعة الجزائر، بدأت معرفتي بالتاريخ الحديث والمعاصر من الأساتذة آسيا جبار، ومحفوظ كدّاش وريني غاليسو، وبالتاريخ الوسيط من الأستاذين رشيد بورويبة وفراسوا ديفورك، وبالتاريخ القديم وعلم الآثار من

الأساتذة جان لاسوس، وبول ألبار فيفريي، وجون ديسانج، وسارج لانسال. وفي الأخير، يعود الفضل في ما تلقته من تكوين في الجغرافيا الطبيعيّة والبشريّة، إلى الأساتذة روبير كابو-راي، وأندري برونات، [260] وبيار إستورجس.

وفي جامعة لاسبينزا بروما، حظيت بحضور دروس الأستاذ ساباتينو موسكاتي حول علم الآثار الفينيقية-البونوية في معهد الشرق الأدنى، ثمّ بالمشاركة ضمن فريقه في الحفريات الأثرية التي أجريت في موقعين بونيين في جزيرة سردينيا.

ولمّا عدت إلى الجزائر، أفدت من تجربة السيّد سيد أحمد بغلي مساعد مدير أوّل للفنون والمعالم والمواقع، ومن نصائح الأستاذ بول ألبار فيفريي، وسارج لانسال، عندما تولّيت إدارة حفريات الإنقاذ التي مكّنت، بعد اكتشاف مقبرة تعود إلى عهد المسيحية المبكرة، من توسعة مساحة موقع تيبازة المرموق الذي كان عزيزا على ألبير كامو.

ومن جهة أخرى، مكّنتي التعاون مع علماء الآثار في المتحف البريطاني بمبادرة من الأستاذ شيبارد فرار، ثم مع معهد الآثار الألماني في روما الذي يشرف عليه الأستاذ فريدريش راكوب، ثم في الختام مع مؤسّسات جامعية راجعة إلى جامعة لاسبينزا وأعلامها، الأستاذ أندريا كارندينني، رئيس المجلس الأعلى للآثار في إيطاليا، والأستاذ أنطونيو دي فيتا، رئيس جامعة ماسيراتا ومدير مدرسة أثينا، من الاستثناس بمختلف المناهج المطبّقة في الحفريات الأثرية وفي ترميم المعالم والمواقع.

ومناسبة إعادة تهيئة متحف تيبازة، استفدت من وجود الأستاذ جورج هنري ريفيار في الجزائر، وهو أحد مؤسسي المجلس الدولي للمتاحف (إيكوم)، ومنشئ متحف باريس للفنون والعادات الشعبىة، فعلمني، على أرض الميدان، [261] مبادئ علم المتاحف الحديث وساعدني على أن أعرض مجموعات متحف تيبازة بشكل جديد.

هذه التجارب الميدانية التي امتدت على سبع عشرة سنة، هي التي أفادتني إفادة كبيرة ومكنتني من مواجهة التحديات التي يتعرّض لها التراث الثقافي على الصعيد الدولي، ومن أن أنجز، صعبة زملائي، ومنذ أكثر من أربعين سنة، المأموريات التي كلّفتُ بها من منظمة اليونسكو، ومن المركز الدولي لدراسة صون الممتلكات الثقافية وترميمها، ومؤخراً من المركز الإقليمي العربي للتراث العالمي في البحرين.

وأوجّه شكري وامتناني كذلك إلى المديرين العامين لليونسكو، أحمدو مختار مبو، وفيدريكو مايور، وكواشيو ماتسورا وإيرينا بوكوفا، الذين تشرفت بالعمل معهم طيلة العشريّات الثلاث الأخيرة.

ويتوجّه شكري أيضا إلى كلّ زملائي الذين أدين لهم بالكثير من التعاون المثمر والمتبادل، على مدى مسيرتي الطويلة، ولأنهم كثر يتعدّر عليّ أن أذكرهم بأسمائهم. وأنا فخور بالاحترام الذي ظفرت به منهم، وأعبّر لجميعهم عن مشاعر الاعتراف بالجميل.

وفي الختام، لا يفوتني أن أذكر بالدعم الدائم الذي لقيته من زوجتي وإبني وأن أقدره حق قدره. فقد تقاسموا معي، وما زالوا، الصعوبات والنجاحات أيضا، في حياة وهبتُها للدفاع عن التراث الثقافي والطبيعي والارتقاء به في كل أنحاء العالم.

فهرس المحتويات [263]

- 7 - أخبار عاجلة: مواقع دمّرها الإرهابيون
- 10 - خريطة عامّة
- 13 - تصدير للسيدة إيرينا بوكوفا
- 17 - مقدمة: وعي ناشئ عن الحرب العالمية الثانية
- 18 - التراث الثقافي، سفينة القيادة في اليونسكو
- 19 - مفهوم "التراث الثقافي" اليوم
- 20 - ثقافة حيّة مصدر للتنمية
- 21 - الهوية الثقافية والتراث اللامادي
- 22 - عمليّة صون على الصعيد العالمي
- 25 - القسم الأوّل
- 27 - إنجازات اليونسكو عبر الزمن
- 28 - نحو تعريف موسّع لمفهوم التراث
- 29 - صون موروثنا الثقافي المشترك
- 30 - هل الترميم واجبٌ؟ ولمّ الترميم؟ وماذا نُرمّم؟
- 32 - التحضّر الصناعي في أوروبا
- 35 - التدمير الحاصل في فترة ما بعد العهد الاستعماري
- 37 - معايير أوليّة إزاء تردّي وضع التراث
- 38 - ماذا تفعل اليونسكو لمواجهة هذه الرهانات والتحدّيات؟
- 42 - اتفاقية لاهاي لحماية الممتلكات الثقافية في حالة النزاع المسلّح
- 45 - وعيٌ رأى النور منذ العصور القديمة
- 46 - عملية معيارية على الصعيد العالمي

- القسم الثاني 51
- التدمير المكثف الناتج عن النزاعات التي اندلعت في نهاية القرن العشرين.. 53
- تدمير رموز الذاكرة: سلاح جديد للتواصل في عصر الأنترنت 53
- ردود فعل اليونسكو 55
- الحرب العراقية الإيرانية 57
- قصف مدينة دوبرفنيك التاريخية 62
- مأمورية في بلغراد وفوكوفار 65
- حرب لبنان 68
- النهب الجزئيّ لمتحف بيروت 70
- إجراءات الحماية الأولية في لبنان 75
- نهب مكثف لموقع صور 77
- طرابلس ودير البلمند 79
- بيلوس، وعنجر، وبعليك وصيدا 80
- نهاية النزاع في كمبوديا 83
- أنغكور تبعث من جديد 86
- محاولة طمس معالم هوية مدينة مُستار 92
- البعثات الأولى إلى سرايفو 95
- إعادة بناء الجسر القديم 98
- أشغال ذات رمزية عالية 102
- التسجيل في قائمة التراث العالميّ 104
- القسم الثالث 109
- حين يصبح التراث هدفا مقصودا في النزاعات 111
- تدمير التراث الأفغاني من قِبَل حركة طالبان 111
- مئات المواقع الأثرية تتعرض إلى النهب في كل أرجاء البلاد 112

- 116 - التصدّي لهدم تمثالي بوذا في باميان
- 119 - إنشاء خلية أزمة
- 122 - تعبئة دعم البلدان الإسلامية
- 125 - زوال بلا رجعة لتمثالي بوذا في باميان
- 127 - ردّ فعل العالم الإسلامي: إعلان الدوحة
- 130 - الإسلام والتراث الثقافي
- 133 - ما العمل للمحافظة على التراث الأفغاني؟
- 135 - إعادة بناء تمثالي بوذا في باميان؟
- 139 القسم الرابع**
- 141 يوميّات تخريب همجيّ واسع النطاق**
- 143 - حرب الخليج الأولى: متحف بغداد يَنخَرُه النَّمْل الأبيض
- 145 - الآثار النَّاجمة عن الاجتياح العراقيّ للكويت
- 148 - حرب الخليج الثانية: خراب شامل في متحف بغداد
- 152 - كيف يمكن صون التّراث العراقيّ؟
- 156 - بغداد فريسة النَّهب الشّامل
- 160 - البعثة الأولى إلى بغداد
- 163 - عودة إلى المتحف الوطنيّ
- 166 - مدينة مدمّرة تدميرا كاملا
- 170 - تخريب عامّ في المواقع [الأثريّة] العراقيّة
- 172 - نهب بابل وأوما (تل جوخة)
- 175 - حريق مكتبات البصرة
- 179 - تدمير تنظيم الدولة الإسلاميّة لتراث نينوى والموصل
- 184 - عناصر تنظيم داعش والتطهير الثقافيّ في مدينة الحضر

191	خاتمة.....
193	حفظ التّراث للأجيال القادمة
195	- وضع حدّ لسياسة الأرض المحروقة
200	- الصّحة ضدّ الظلاميّة
202	- المنافع الاقتصادية لحفظ التّراث
207	تذييل
209	تداعيات الربيع العربيّ
209	- تدمير أضرحة تمبكتو
212	- تدمير وتّجار غير شرعيّ في اليمن وليبيا
214	- سقوط مدينة تدمر ثم استرجاعها
218	- الترميم وإعادة التّاهيل والتكوين وإعادة البناء
229	مُلحقات
231	- بيان الدّوْحة للعلماء حول الإسلام والتراث الثقافيّ
236	- إعلان اليونسكو بشأن التدمير المتعمّد للتراث الثقافيّ
245	- خمسون اقتراحاً فرنسيّاً من أجل حماية تراث الإنسانيّة لجان-لوك مارتنيز ...
	- بيان رئيس الجمهورية الفرنسية، فرانسوا هولاند، حول الإرهاب والممتلكات
251	الثقافية
255	بيبلوغرافيا مختصرة
259	شكر

التُّراث المُدمَّر

«خبر عاجل: تنظيم إرهابيّ يستولي على المدينة القديمة للملكة زنوبيا في تدمر. ويقطع رأس مدير المتحف. ويفجّر الأعمدة الفخمة...»

كثيرا ما شوّهت الحروب المتعاقبة التُّراث الثقافي، ولكئنه أصبح، منذ سنوات، هدفا مقصودا بالنسبة إلى الجماعات الإرهابية. فسيمة الاستيلاء على أرض تعود إلى آلاف سنين يكون بتدميرها ومحو ذاكرتها.

علاوة على المواقع التي اجتاحتها العمليات العسكرية للمتطرفين أو الإرهابيين، يتعلّق الأمر بمقاومة تهريب القطع الأثرية الذي تفتش في هذه البلدان التي عصف بها عنف لا يُصدّق. فكيف نتصدى له وكيف نتجنّب انتهاكاته؟ ومن نستعين؟ وبأيّ الوسائل؟

هذا الكتاب يستعرض مسيرة عمل شاقّ قام به المؤلّف، عن اقتناع وبشغف، طيلة أكثر من أربعين سنة، خدمة لمختلف المؤسسات الدولية والأممية الهامة، فكان، وهو المتخصّص في علم الآثار، بين مهمّتين، مهمّة المسؤول الدبلوماسي ومهمّة رجل الإطفاء.

موقع أنغكور الشهير، جسر مستار، متحف بغداد، تمثالا بوذا، أضرحة تمبكتو، ومواقع بلاد ما بين النهرين ومن بينها حضّر وتدمر ... جميعها أصابها الدمار... ومازال الأمر متواصلا. حياة نُذرت للتراث العالمي للإنسانية، حياة غالبا ما انقضت بين طائفة وأخرى من أجل محاولة إنقاذ «برمجية» موروثنا المشترك.



مدير بوشاقي

عالم آثار من مواليد 16 نوفمبر 1943 بتلمسان- الجزائر. تولى بين 1974 و1981 منصب مدير التراث الثقافي في الجزائر، ثمّ التحق، بين سنة 1982 و2005، بمنظمة اليونسكو، وتقلّد فيها عددا من المسؤوليات، أولها مدير قسم التراث الثقافي ثمّ مدير مركز التراث العالميّ فمُنصب مدير عام مساعد للثقافة. وفي شهر نوفمبر 2005، انتخب مديرا عاما للمركز

الدولي لدراسة صون الممتلكات الثقافية وترميمها (إيكروم) وظلّ في هذا المنصب إلى شهر ديسمبر 2011. وحاليا، هو يشغل منصب مستشار فخريّ لمدير عام «الإيكروم»، ومستشار خاص للمديرة العاقبة لليونسكو مكلّفا بالمركز الإقليمي العربي للتراث العالمي الذي أنشئ في مملكة البحرين سنة 2012.

